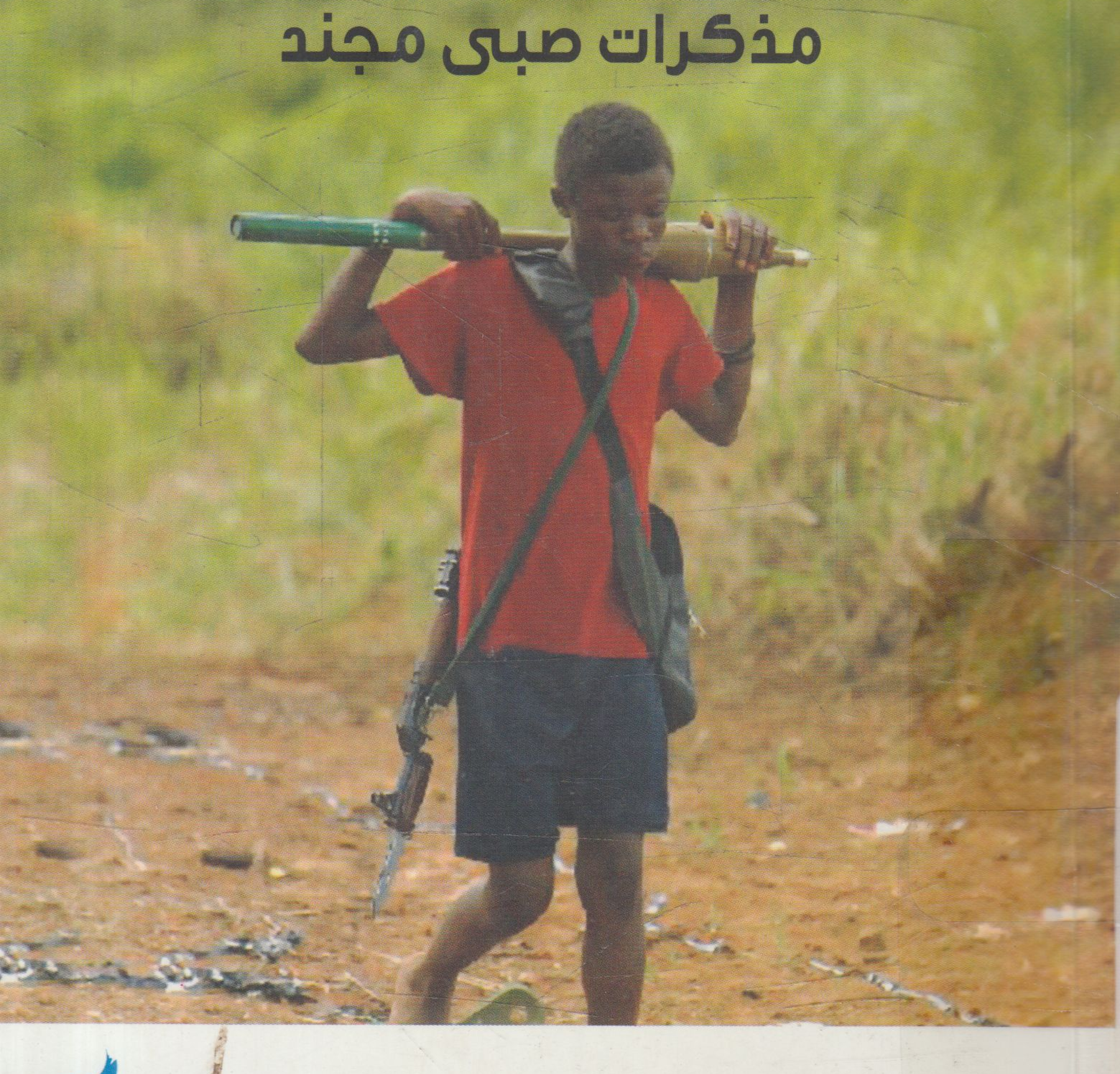
إشمائيل بيه

الطريق الطويل

مذكرات صبى مجند



مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

دار الشروق

الطريق الطويل

A Long Way Gone:
Memoirs of a Boy Soldier
by Ishmael Beah

published by arrangement with
Sarah Crichton Books,
an imprint of
Farrar, Straus and Giroux, LLC,
New York.

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

رقم الإيداع ٢٠٠٨/٧٣٦٤
ISBN 978-977-09-2364-5

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧: «٢٠٢»
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

إشماثيل بيه

الطريق الطويل

مذكرات صبى مجند

ترجمة
سحر توفيق

دار الشروق

رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزى القارئ

فى عصر يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، تنظر مؤسسة محمد ابن راشد آل مكتوم إلى الترجمة على أنها الوسيلة المثلى لاستيعاب المعارف العالمية، فهى من أهم أدوات النهضة المنشودة، وتؤمن المؤسسة بأن إحياء حركة الترجمة، وجعلها محركًا فاعلًا من محركات التنمية واقتصاد المعرفة فى الوطن العربى، مشروع بالغ الأهمية ولا ينبغى الإمعان فى تأخيره.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة، فى العام الواحد، لا يتعدى كتابًا واحدًا لكل مليون شخص، بينما تترجم دول منفردة فى العالم أضعاف ما تترجمه الدول العربية جميعها.

أطلقت المؤسسة برنامج «ترجم»، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمى من معارف وعلوم، عبر نقلها إلى العربية، والعمل على إظهار الوجه الحضارى للأمة عن طريق ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية خلال ثلاث سنوات، أى بمعدل كتاب فى اليوم الواحد.

وتأمل مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم فى أن يكون هذا البرنامج الاستراتيجى تجسيدا عمليًا لرسالة المؤسسة المتمثلة فى تمكين الأجيال القادمة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار الخلاقة التى تقود إلى إبداعات حقيقية، إضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج «ترجم» والبرامج الأخرى المنضوية تحت قطاع الثقافة، يمكن زيارة موقع المؤسسة www.mbrfoundation.ae

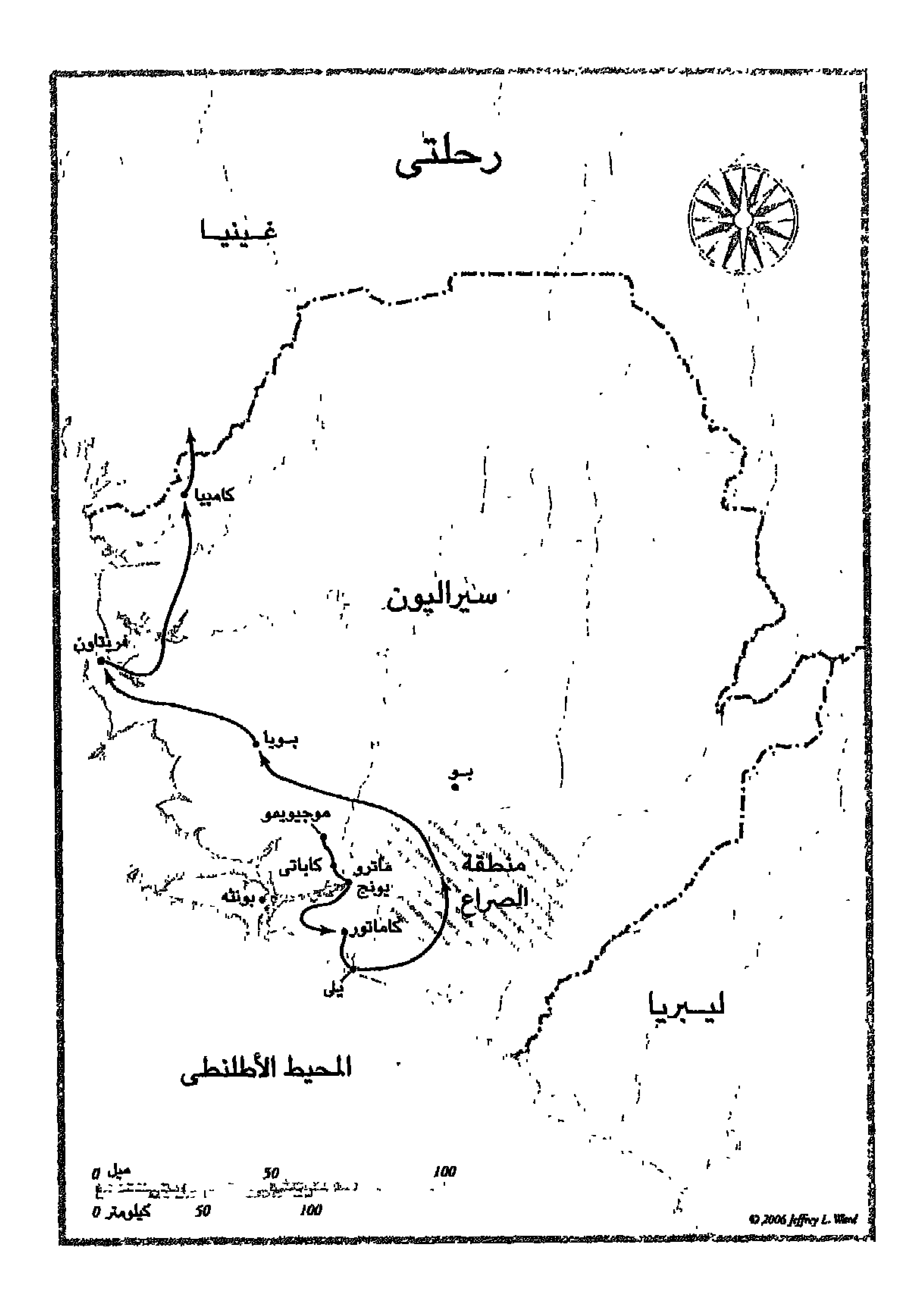
عن المؤسسة

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة كريمة من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبى، وقد أعلن صاحب السمو عن تأسيسها، لأول مرة، فى كلمته أمام المنتدى الاقتصادى العالمى فى البحر الميت ـ الأردن فى أيار/ مايو ٢٠٠٧. وتحظى هذه المؤسسة باهتمام ودعم كبيرين من سموه، وقد قام بتخصيص وقفٍ لها قدره ٣٧ مليار درهم (١٠ مليارات دولار).

وتسعى مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، كما أراد لها مؤسسها، إلى تمكين الأجيال الشابة فى الوطن العربى، من امتلاك المعرفة وتوظيفها بأفضل وجه ممكن لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة مستمدة من الواقع، للتعامل مع التحديات التى تواجه مجتمعاتهم.

إلى ذكرى والدى، ووالدتى، وأخى الأكبر، وأخى الأصغر
أرواحكم وحضوركم داخلى يمنحنى القوة للاستمرار فى الحياة

إلى كل أطفال سيراليون الذين سرقت منهم طفولتهم
وإلى ذكرى والتر (والى) شوير؛ لكرمه ومشاعره المتعاطفة،
ولأنه علمنى أن أكون رجلاً متحضرًا


رحلتى
غينيا
كامبيا
سيراليون
فريتاون
بويا
بو
موجيبويمو
كاباتى
ماترو
يونج
بونثه
منطقة
الصراع
كاماتورو
يلى
ليبريا
المحيط الأطلنطى
ميل 0
50
100
كيلومتر 0
50
100
© 2006 Jeffrey L. Ward

مدينة نيويورك، ١٩٩٨

بدأ أصدقائى فى المدرسة الثانوية يرتابون أنى لم أخبرهم بالقصة الكاملة لحياتى.

«لماذا غادرت سيراليون؟»

«لأن الحرب دائرة هناك».

«هل شاهدت بعض المعارك؟»

«كل واحد فى البلد شاهد».

«هل تعنى أنك شاهدت حاملى البنادق يركضون فى كل مكان ويتبادلون إطلاق النار؟»

«نعم، طوال الوقت».

«رائع».

أبتسم بعض الابتسامة.

«لابد أن تحكى لنا عن ذلك فى وقت ما».

«نعم، فى وقت ما».

(١)

كل أنواع القصص عن الحرب كانت تُروى، مما جعلها تبدو وكأنها تحدث بعيدًا، فى أرض أخرى. ولم نبدأ فى رؤية أنها تحدث بالفعل فى بلادنا حتى بدأ اللاجئون يمرون فى بلدتنا. كانت العائلات التى سارت مئات الأميال تروى كيف قُتل الأقارب وأحرقت ديارهم. وشعر بعض الناس بالأسف من أجلهم وعرضوا استضافتهم، لكن معظم اللاجئين رفضوا، لأنهم قالوا إن الحرب سوف تصل إلى بلدتنا فى النهاية. كان أطفال تلك العائلات لا ينظرون إلينا، كانوا يفزعون عند سماع صوت قطع الخشب أو عندما يسقط حجر على سقف من الصفيح، قذفه أطفال يصطادون الطيور بـ «النبلة». كان الراشدون المرافقون لهؤلاء الأطفال القادمين من مناطق الحرب يتوهون أحيانًا فى أفكارهم أثناء الحديث مع الكبار من أهل بلدتى. وبمعزل عما يعانون من تعب وسوء تغذية، كان من الواضح أنهم رأوا شيئًا تسبب فى حالة الذهول التى تتملكهم، شيئًا قد نرفض قبوله وتصديقه إذا قصوا علينا كل شىء عنه. فى بعض الأوقات كنت أظن أن بعض القصص التى رواها هؤلاء العابرون مبالغ فيها. فلم يسبق لى أن عرفت حروبًا إلا تلك التى قرأت عنها فى الكتب، أو رأيتها فى الأفلام، مثل فيلم «رامبو: الدم الأول»، والحرب فى ليبريا، البلد المجاور لنا، والتى سمعت عنها

فى الأخبار. لم يكن خيالى ـ وأنا صبى فى العاشرة من عمرى ـ قادرًا على استيعاب ذلك الشىء الذى حرم هؤلاء اللاجئين من الهناء.

* * *

كان أول تلامس بينى وبين الحرب وأنا فى الثانية عشرة من عمرى. كان ذلك فى يناير ١٩٩٣. خرجت من المنزل مع جونيور، أخى الأكبر، وصديقنا تالوى، وكلاهما يكبرانني بعام واحد، كنا ذاهبين إلى مدينة ماترو يونج، للاشتراك فى حفلة استعراض المواهب لأصدقاء لنا. ولم يستطع محمد، أعز أصدقائى، أن يأتى معنا. ففى ذلك اليوم كان يساعد والده فى ترميم مطبخهم المغطى بسقف من القش. كنا نحن الأربعة قد أنشأنا فرقة للرقص وأغانى الراب[1] منذ كنت فى الثامنة من عمرى. وقد تعرفنا على الموسيقى الإيقاعية لأول مرة أثناء إحدى زياراتنا إلى «موبيمبى»، وهو حى يعيش فيه الأجانب الذين يعملون بالشركة الأمريكية التى كان يعمل فيها أبى. كنا نذهب كثيرًا إلى موبيمبى لنسبح فى بركة السباحة، ونتفرج على التليفزيون الملون الضخم، والناس ذوى البشرة البيضاء الذين يملأون منطقة الاستجمام الخاصة بالزائرين. فى إحدى الأمسيات عرض التليفزيون فيديو موسيقى لفرقة من الشباب ذوى البشرة السوداء يتكلمون بسرعة كبيرة. جلسنا نحن الأربعة مسحورين بالأغنية، محاولين أن نفهم ماذا كان هؤلاء الشباب السود يقولون. وفى نهاية الفيديو، ظهرت بعض الحروف

---

(١) موسيقى الراب rap music أو الهيب هوب hip hop: قالب موسيقى غنائى عبارة عن أسلوب إيقاعى لإلقاء الكلمات على خلفية من الضربات الإيقاعية الصادرة عن جهاز تشغل اسطوانات. وتعتبر هذه الموسيقى جزء من ثقافة «الهيب هوب» التى انتشرت خاصة فى السبعينيات والثمانينيات بين الأمريكيين من أصل إفريقى أو لاتينى. (وتضم هذه الثقافة أيضًا نوعًا من الرقص الفردى وفن الجرافيتى أو الرسم على الأسطح العامة مثل الجدران) [المترجمة].

أسفل الشاشة. وكانت تقول: «شوجر هيل جانج رابرز ديلايت» (عصابة تل السكر، فرحة الإيقاعيين)[1]. كتب جونيور الكلمات بسرعة على ورقة. وبعد ذلك كنا نأتى إلى المقر كل أسبوعين فى العطلة الأسبوعية لندرس هذا النوع من الموسيقى على التليفزيون. لم نكن نعلم اسمها فى ذلك الوقت، لكنى تأثرت كثيرًا بحقيقة أن هؤلاء الشباب سود البشرة كانوا يعرفون كيف يتحدثون الإنجليزية بسرعة جدًّا، ويؤدونها مضبوطة على الإيقاع.

وفيما بعد، عندما ذهب جونيور إلى المدرسة الثانوية، تصادق مع بعض الأولاد الذين علموه المزيد عن الموسيقى والرقص الأجنبيين. وأثناء العطلات، كان يحضر لى شرائط كاسيت ويعلمنى أنا وأصدقائى كيف نرقص على الموسيقى التى أصبحنا نعرف أن اسمها «الهيب ـ هوب». كنت أحب الرقص، وأستمتع خاصة بتعلم أشعار الأغانى، لأنها جميلة كشعر، كما أنها ساعدتنى على تحسين مفرداتى من اللغة الإنجليزية. وفى إحدى الأمسيات، جاء أبى إلى البيت بينما كنت أنا وجونيور ومحمد وتالوى نتعلم كلمات أغنية I Know You Got Soul (أعرف أن لك روحًا)، للثنائى إريك بى. وراكيم[2]. وقف على باب بيتنا المبنى من الطوب اللبن والمغطى بسقف من الصفيح ضاحكًا، ثم سأل: «هل يمكنكم حتى أن تفهموا ما تقولون؟» وغادر المكان قبل أن يتمكن جونيور من الإجابة. وجلس فى الأرجوحة الشبكية المعلقة تحت ظلال أشجار المانجو والجوافة والبرتقال، وأدار مؤشر الراديو الصغير الذى يحمله إلى أخبار الـ (بى بى سى).

---

(١) Sugerhill Gang 'Rapper's Delight': تعتبر هذه الفرقة أول مجموعة تغنى أغانى الهيب هوب، وكانت هذه الأغنية قد وصلت إلى قمة الشهرة فى أواخر السبعينيات، وهى أول أغنية من نوع الهيب هوب تحصل على أسطوانة ذهبية [المترجمة].

(٢) Eric Barrier (Eric B.) and William Griffin (Rakim)، ثنائى غنائى اشتهرا باسم Eric B. & Rakim، عرفا بالغناء فى قالب الهيب هوب [المترجمة].

ثم زعق من الفناء قائلاً: «ها هى، لغة إنجليزية جيدة، من النوع الذى ينبغى أن تستمعوا إليه».

وبينما يستمع والدنا إلى الأخبار، كان جونيور يعلمنا كيف ننقل أقدامنا على الإيقاع. كنا نحرك أقدامنا اليمنى ثم اليسرى إلى الأمام والخلف، ونفعل نفس الشىء بأذرعنا فى تزامن وتناسق، مع هز النصف الأعلى من أجسادنا ورءوسنا. قال جونيور: «هذه الحركة تسمى: (الرجل الراكض)». وبعد ذلك كنا نتدرب على تقليد حركات الرقص لأغانى الراب التى حفظناها. وقبل أن نقوم بأداء مهامنا المسائية: إحضار الماء، وتنظيف اللمبات، كنا نقول كلمات مثل: «بيس، سان» أو «آى آم أوت» (لطفًا يا بنى، أنا خارج)، وهى عبارات التقطناها من كلمات أغانى الراب، وفى الخارج، كانت الموسيقى المسائية للطيور والجداجد (صرَّار الليل) تبدأ.

* * *

فى الصباح الذى خرجنا فيه ذاهبين إلى ماترو يونج، ملأنا الحقائب التى نحملها على ظهورنا بالكراسات التى كتبنا فيها أشعار الأغانى التى كنا نعمل عليها، وملأنا جيوبنا بأشرطة كاسيت لألبومات الراب. وفى تلك الأيام كنا نرتدى بنطلونات جينز من طراز «باجى» (الذى يتميز باتساعه وكثرة جيوبه)، وتحتها ارتدينا سراويل قصيرة وسراويل رياضية للرقص. وتحت قمصاننا ذات الأكمام الطويلة ارتدينا فانلات تحتية بدون أكمام، وتى شيرت، وفانلات رياضية من الجيرسيه. وارتدينا ثلاثة أزواج من الجوارب والتى جذبنا أطرافها لأسفل وطويناها لتبدو أحذيتنا الرياضية منتفخة. وعندما اشتدت الحرارة أثناء النهار، خلعنا بعض الملابس وحملناها على أكتافنا. كانت هذه الملابس موضة، ولم تكن لدينا فكرة أن هذه الطريقة غير المعتادة فى اللبس سوف تفيدنا. ولأننا كنا ننوى العودة فى اليوم التالى،

لم نودع أحدًا ولم نخبر أحدًا إلى أين نحن ذاهبون. لم نكن نعلم ونحن نترك ديارنا أننا لن نعود إليها أبدًا.

ولتوفير النقود، قررنا أن نسير المسافة البالغة ستة عشر ميلاً إلى ماترو يونج. كان يومًا صيفيًا جميلاً، فلم تكن الشمس شديدة الحرارة، ولم نشعر بطول المسافة أيضًا، حيث كنا نتحدث حول كل الأشياء، ونمزح، ويطارد بعضنا البعض. وحملنا معنا نبالاً استخدمناها فى ضرب الطيور بالحصى، ومطاردة القرود التى حاولت أن تعبر الطريق الرئيسى، وكان طريقًا ترابيًا. توقفنا عند عدة أنهار لنسبح. وعند أحد الأنهار، والذى كان له جسر مقام عبره، سمعنا صوت سيارة قادمة عن بُعد، وقررنا أن نخرج من المياه وأن نرى إن كان يمكننا أن نحصل على ركوبة مجانية. خرجت قبل جونيور وتالوى، وجريت عبر الجسر ومعى ثيابهما. اعتقدا أنهما يستطيعان اللحاق بى قبل أن تصل السيارة إلى الجسر، لكن عندما تحققا من استحالة ذلك، بدآ يجريان عائدين إلى النهر، وعندما كانا فى وسط الجسر، وصلت الحافلة إليهما. ضحكت الفتيات اللائى فى الحافلة وأطلق السائق نفير السيارة. كان «مَقْلَبًا» مضحكًا ومفعمًا بالمرح، وطوال الطريق حاولا أن يردا لى ما فعلت، لكنهما فشلا.

فى حوالى الثانية بعد الظهر وصلنا إلى كاباتى، قرية جدتى. كانت جدتى معروفة باسم «مامى كبانا». كانت طويلة ووجهها الطويل الرائع تزينه عظام خديها الجميلة وعيناها البنيتان الواسعتان. كانت دائمًا تقف وقد وضعت يديها إما على ردفيها أو على رأسها. وعندما كنت أنظر إليها كنت أفهم من أين جاءت أمى ببشرتها الداكنة الجميلة، وأسنانها شديدة البياض، وخطوط الثنايا الشفافة على رقبتها. كان جدى، «كامور» ـ المعلم، كما كان الجميع ينادونه ـ أستاذ لغة عربية معروفًا جيدًا، ومُعالجًا فى القرية وما حولها.

فى كاباتى أكلنا، واسترحنا قليلاً، وبدأنا الأميال الستة الباقية. كانت جدتى تريدنا أن نقضى الليل هناك، لكننا أخبرناها أننا سنعود فى اليوم التالى.

سألتنا بصوت جميل يشوبه بعض القلق: «كيف يعاملكم أبوكم هذا هذه الأيام؟»

استمرت تسأل: «لماذا تذهبون إلى ماترو يونج، ما لم يكن إلى المدرسة؟ ولماذا تبدون بهذه النحافة؟» ولكننا تجنبنا أسئلتها. تبعتنا إلى حافة القرية، وراحت تراقبنا ونحن ننزل التل، وقد نقلت عصاها التى تتوكأ عليها إلى يدها اليسرى لكى تستطيع أن تلوح لنا بيدها اليمنى، علامة على الفأل الطيب.

* * *

وصلنا إلى ماترو يونج بعد حوالى ساعتين، والتقينا بأصدقائنا القدامى، جبريلا، وكالوكو، وخليلو. فى تلك الليلة خرجنا إلى طريق «بو»، حيث كان الباعة الجالسون على الطريق يبيعون الطعام حتى وقت متأخر من الليل. اشترينا الفول السودانى المغلى وأكلناه ونحن نتحدث عما سوف نفعله فى اليوم التالى، وخططنا لمشاهدة المكان المخصص لحفلة استعراض المواهب والتدريب. وقضينا ليلتنا فى غرفة الشرفة فى منزل خليلو. كانت الغرفة صغيرة وبها سرير ضيق، فنمنا نحن الأربعة فى نفس السرير (عاد جبريلا وكالوكو إلى منزليهما)، راقدين بالعرض وأقدامنا معلقة فى الهواء. واستطعت أن أطوى قدمى إلى الداخل قليلاً حيث إنى كنت أقصر وأقل حجماً من الأولاد الآخرين.

فى اليوم التالى ظللنا، أنا وجونيور وتالوى، فى بيت خليلو، وانتظرنا عودة أصدقائنا من المدرسة فى حوالى الثانية بعد الظهر. لكنهم عادوا

مبكرين. كنت أنظف حذائى وأحصى لجونيور وتالوى اللذين دخلا فى مباراة دفع. دخل جبريلا وكالوكو إلى الشرفة ولحقا بالمباراة. سأل تالوى، فى كلمات بطيئة وأنفاس متقطعة، عن سبب عودتهما المبكرة. شرح جبريلا أن المعلمين أخبروهم أن المتمردين هاجموا «موجبويمو»، بلدتنا. وقد أُغلقت المدرسة حتى إشعار آخر. توقفنا عما كنا نفعله.

وفقًا لكلام المعلمين، هاجم المتمردون مناطق المناجم بعد الظهر. وتسبب إطلاق النار المفاجئ فى انطلاق الناس ركضًا فى اتجاهات مختلفة للنجاة بحياتهم. جاء الآباء راكضين من مناطق أعمالهم، ليقفوا أمام بيوتهم الخالية وليس ثمة ما يشير إلى أين ذهبت عائلاتهم. ركضت الأمهات باكيات نحو المدارس والأنهار وصنابير المياه بحثًا عن أطفالهن. وجرى الأطفال إلى البيت بحثًا عن آبائهم الذين كانوا يجوبون الشوارع بحثًا عنهم. وعندما تكاثف إطلاق النيران، تخلى الناس عن البحث عن أحبائهم، وهربوا خارج البلدة.

«هذه البلدة هى التالية، حسب أقوال المعلمين». رفع جبريلا نفسه من على الأرض الأسمنتية واقفًا. أخذنا أنا وجونيور وتالوى حقائب ظهورنا واتجهنا مع أصدقائنا إلى المرفأ. وهناك كان الناس يصلون من كل مناطق المناجم. كنا نعرف بعضهم، لكنهم لم يكونوا يعرفون أين ذهبت عائلاتنا. قالوا إن الهجوم كان مفاجئًا جدًا، وشديد الإرباك؛ حتى إن الجميع هربوا فى اتجاهات مختلفة فى فوضى شاملة.

بقينا فى المرفأ لأكثر من ثلاث ساعات، منتظرين بقلق ومتوقعين أن نرى عائلاتنا أو أن نتكلم مع أحد رآهم. لكن لم تكن هناك أية أخبار عنهم، وبعد قليل أصبحنا لا نعرف أحدًا ممن يأتون عبر النهر. بدا اليوم عاديًا بشكل غريب. الشمس تعبر السماء فى سلام عبر السحب البيضاء،

والطيور تغنى فوق قمم الأشجار، والأشجار تهتز برقة مع النسيم الهادئ. لكنى لم أستطع حتى ذلك الوقت أن أصدق أن الحرب وصلت إلى منزلنا. فكرت أن هذا مستحيل. فعندما غادرنا بيتنا فى اليوم السابق، لم يكن هناك ما يشير إلى أن المتمردين قريبون بأية حال.

سألنا جبريلا: «ماذا ستفعلون؟»

سكتنا برهة من الوقت، ثم كسر تالوى الصمت: «لابد أن نعود ونرى إن كنا نستطيع أن نجد عائلاتنا قبل فوات الأوان».

وأومأنا أنا وجونيور موافقين.

* * *

قبل ثلاثة أيام فقط، رأيت أبى عائدًا فى مشية بطيئة من العمل. يحمل قبعته الصلبة تحت ذراعه، والعرق يغطى وجهه الطويل من حرارة شمس ما بعد الظهر. كنت جالسًا فى الشرفة. ولم أكن قد رأيته لفترة، حيث دمرت زوجته الجديدة علاقتنا مرة أخرى. لكن فى ذلك الصباح ابتسم أبى لى وهو يصعد الدرجات. نظر إلى وجهى متفحصًا، وكانت شفتاه على وشك أن تنطقا بشىء ما، عندما خرجت زوجة أبى، نظر بعيدًا، ثم نظر إلى زوجته التى تظاهرت بأنها لا ترانى. وبهدوء دخلا إلى الردهة. أمسكت دموعى، وغادرت الشرفة لأقابل جونيور عند التقاطع الذى كنا ننتظر فيه سيارة اللورى. كنا فى طريقنا لرؤية أمنا فى البلدة المجاورة على بعد ثلاثة أميال تقريبًا. عندما كان والدنا يدفع مصاريف مدرستنا الداخلية، كنا نراها فى عطلات آخر الأسبوع عندما نعود إلى البيت. والآن رفض دفع المصاريف، فأصبحنا نزورها كل يومين أو ثلاثة أيام. فى ذلك اليوم قابلنا والدتنا فى السوق وسرنا معها وهى تشترى بعض اللوازم لتطبخ لنا. كان وجهها مكفهرًا فى البداية، ولكن بمجرد أن احتضنتنا تهللت. أخبرتنا أن أخانا

الصغير، إبراهيم، كان فى المدرسة، وأننا سوف نأتى به فى طريق العودة من السوق. أمسكت بأيدينا ونحن نسير، ومن حين لآخر كانت تتلفت حولها وكأنها تتأكد من أننا لا نزال معها.

وفى طريقنا إلى مدرسة أخينا الأصغر، التفتت أمى إلينا وقالت: «أنا آسفة لأنى لا أملك نقودًا كافية لأدفع لكما مصاريف المدرسة حاليًا. لكنى أعمل على أن أفعل هذا». وتوقفت قليلاً، ثم سألت: «كيف حال أبيكما هذه الأيام؟»

أجبت: «إنه يبدو بخير. رأيته اليوم بعد الظهر». لكن جونيور لم يقل شيئًا.

نظرت أمى مباشرة فى عينيه، وقالت: «أبوكما رجل طيب، وهو يحبكما كثيرًا. كل ما فى الأمر أنه ينجذب إلى زوجات غير مناسبات لكما يا أولاد».

وصلنا إلى المدرسة، كان أخونا الصغير فى الفناء يلعب الكرة مع أصدقائه. كان فى الثامنة، وفى لياقة تامة بالنسبة لسنه. وما أن رآنا حتى جاء يجرى، وألقى نفسه علينا. وراح يقيس نفسه بى ليرى إن كان قد أصبح أطول منى. ضحكت أمى. وتهلل وجه أخى الأصغر المستدير، وتعلقت قطرات العرق حول الثنايا الموجودة فى رقبته، مثل أمى تمامًا. سرنا نحن الأربعة إلى بيت والدتنا. كنت أمسك يد أخى الأصغر، وراح يحدثنى عن المدرسة ويتحدانى فى لعبة كرة القدم فيما بعد فى المساء. كانت أمى تعيش وحيدة وقد كرست نفسها للعناية بإبراهيم. قالت إنه أحيانًا كان يسأل عن أبينا. وقد أخذت إبراهيم ليراه بضع مرات، عندما كنا أنا وجونيور فى المدرسة، وفى كل مرة كانت تبكى عندما كان والدى يحتضن إبراهيم، لأنهما كانا سعيدين برؤية بعضهما. وبدا أن أمى تاهت فى أفكارها، مبتسمة وهى تتذكر تلك اللحظات.

بعد يومين من تلك الزيارة غادرنا البيت. وبينما نقف الآن أمام المرفأ فى ماترو يونج، كنت أتصور أبى يحمل قبعته الصلبة ويركض إلى البيت من العمل، وأمى تبكى وتجرى إلى مدرسة أخى الأصغر. وتملكنى شعور كئيب.

* * *

قفزنا أنا وجونيور وتالوى إلى زورق، ورحنا نلوح إلى أصدقائنا بحزن، والزورق يبتعد عن ضفاف ماترو يونج. وعندما نزلنا على الجانب الآخر من النهر، كان المزيد من الناس يصلون فى حالة استعجال. بدأنا نسير، وتحدثت إلينا امرأة تحمل «شبشبها» على رأسها دون أن تنظر إلينا، قائلة: «لقد أريق دم كثير حيث تنوون الذهاب. حتى الأرواح الطيبة هربت من ذلك المكان». وسارت فى طريقها. وفى الشجيرات على طول النهر، استمرت الأصوات المتوترة للنساء تصرخ: «نجوور جبور مو ما أو»، ليكن الله فى عوننا، ويصرخن بأسماء أطفالهن: «يوسفو، جابو، فوداى...». رأينا أطفالاً يسيرون وحدهم، بلا قمصان، فى ثيابهم الداخلية، يتبعون الحشود. كان الأطفال يصرخون: «نيا نجيه أو، نيا ككيه أو»، أبى، أمى. كانت هناك أيضًا كلاب تجرى وسط حشود الناس الذين كانوا لا يزالون يركضون رغم أنهم ابتعدوا كثيرًا عن الأذى. كانت الكلاب تتشمم الهواء، بحثًا عن أصحابها. شعرت بالدم يتجمد فى عروقى.

سرنا ستة أميال، ووصلنا إلى كاباتى، قرية جدتى. كانت مهجورة. كل ما بقى فيها كان آثار الأقدام فى الرمال التى تؤدى نحو الغابة الكثيفة الممتدة خلف القرية.

وإذ اقترب المساء، بدأ الناس يصلون من منطقة المناجم. خفت تهامسهم، وبدلاً من أصوات غناء الطيور والجداجد عند مقدم المساء،

ارتفعت صرخات الأطفال الصغار الباحثين عن آبائهم الضائعين والذين تعبوا من السير، ونحيب الرضع الجائعين. جلسنا فى شرفة منزل جدتنا، ننتظر ونرهف آذاننا.

سأل جونيور: «يا رفاق، هل تظنون أن العودة إلى موجبويمو فكرة جيدة؟» لكن قبل أن تكون لدى أى منا فرصة للإجابة، سمعنا هدير سيارة فولكس واجن على بعد، وانطلق كل السائرين على الطريق للاختباء بين الشجيرات القريبة. جرينا نحن أيضًا، لكننا لم نستطع الوصول إلى هناك. دق قلبى بعنف وتلاحقت أنفاسى. توقفت السيارة أمام منزل جدتى، ومن حيث كنا نختبئ، استطعنا أن نرى أن من كان فى السيارة لم يكن مسلحًا. وبينما خرجنا، وخرج آخرون من بين الشجيرات، رأينا رجلاً يجرى من مقعد السائق إلى الممشى الجانبى، وراح يتقيأ دمًا، وكان ذراعه ينزف. وعندما توقف عن القىء، بدأ يبكى. كانت هذه أول مرة أرى فيها رجلاً بالغًا يبكى مثل الأطفال، وشعرت بوخز فى قلبى. وضعت امرأة ذراعيها حول الرجل ورجته أن يقف. قام على قدميه وسار نحو السيارة. عندما فتح الباب المواجه لباب السائق، وقعت إلى الأرض امرأة كانت محنية ومستندة عليه. كان الدم ينبثق من أذنيها. وغطى الناس عيون أطفالهم.

وفى الجزء الخلفى من السيارة كانت ثلاثة أجساد أخرى ميتة، بنتان وولد، كان دمهم يملأ المقاعد وسقف السيارة. كنت أريد أن أبتعد عما أراه، لكنى لم أستطع. تخدرت قدماى وتجمد جسمى بكامله. فيما بعد عرفنا أن الرجل حاول الهرب بعائلته كلها، وأن المتمردين أطلقوا النار على سيارته فقتلوا عائلته كلها. والشىء الوحيد الذى عزّاه لثوان قليلة على الأقل، كان تلك المرأة التى احتضنته مواسية، لكنها الآن كانت تبكى معه، وقالت له إنه على الأقل لديه الفرصة لأن يدفنهم. سوف يعرف دائمًا المكان الذى واراهم فيه، وبدا أنها تعرف عن الحرب أكثر قليلاً مما يعرف الآخرون.

توقفت الرياح عن الحركة، وبدا أن ضوء النهار يستسلم سريعًا لدخول الليل. وباقتراب غروب الشمس، كان المزيد من الناس يمرون عبر القرية. كان أحد الرجال يحمل ابنه ميتًا. وكان يظن أن الصبى لا يزال حيًّا. كان دم الابن يغطى أبيه، وظل يقول وهو يجرى: «سوف أصل بك إلى المستشفى يا بنى، وكل شىء سيكون على ما يرام». ربما كان من الضرورى أن يتمسك بآمال زائفة، حيث إن هذه الآمال دفعته إلى الجرى بعيدًا عن الأذى. بعد ذلك جاءت مجموعة من الرجال والنساء مصابين بطلقات عشوائية متفرقة يركضون. كان الجلد المتدلى من أجسامهم لا يزال يقطر دمًا. بعضهم لم يكن منتبهًا إلى أنه مصاب حتى توقفوا وأشار الناس إلى جراحهم. بعضهم أغمى عليه أو راح يتقيّأ. شعرت بالغثيان، وكان رأسى يدور. شعرت بأن الأرض تتحرك، وبدت أصوات الناس بعيدة عن المكان الذى وقفت أرتجف فيه.

آخر ما رأيناه من إصابات فى ذلك المساء كان امرأة تحمل وليدها على ظهرها. كان الدم يجرى على ثوبها ويقطر خلفها، تاركًا أثرًا خطيًّا. كان الطفل قد قُتل، وكانت تجرى للنجاة بحياتها. ولحسن حظها أن الرصاصة لم تخترق جسد الصغير وتصل إلى جسدها. ثم توقفت حيث كنا، وجلست على الأرض، وأنزلت الطفل. كان بنتًا، وكانت عيناها لا تزالان مفتوحتين، ولا تزال على فمها بقايا ابتسامة بريئة فاجأها الموت. كان يمكن رؤية الطلقات بارزة قليلاً فى جسد الطفلة، وكانت متورمة. تمسكت الأم بطفلتها وراحت تهزها. كان الألم والصدمة شديدين حتى إنها لم تستطع أن تبكى.

تبادلنا النظرات أنا وجونيور وتالوى، وعرفنا أننا لابد أن نعود إلى ماترو يونج، لأننا رأينا أن موجبويمو لم تعد مكانًا يمكن أن يضمنا كبيت، وأن آباءنا لا يمكن أن يكونوا هناك إلى الآن. بعض الجرحى ظلوا يقولون

إن كاباتى كانت هى القرية التالية على قائمة المتمردين. ولم نكن نريد أن نكون موجودين عندما يصل المتمردون. حتى أولئك الذين كانوا لا يستطيعون السير جيدًا جاهدوا قدر استطاعتهم للحركة بعيدًا عن كاباتى. كانت صورة تلك المرأة وطفلتها تعذبنى ونحن نسير عائدين إلى ماترو يونج. حتى إننى لم أكد أشعر بالرحلة، وعندما شربت ماء لم أشعر بأى راحة رغم أنى كنت أشعر بالعطش. لم أكن أريد أن أرجع إلى المكان الذى جاءت منه تلك المرأة؛ كانت عينا الطفلة تظهران بوضوح أن كل شىء قد ضاع.

* * *

«كان ذلك قبل ميلادك بتسعة عشر عامًا». هكذا كان أبى يقول عندما أسأله كيف كانت الحياة فى سيراليون بعد الاستقلال عام ١٩٦١. كانت مستعمرة بريطانية منذ ١٨٠٨. وأصبح سير ميلتون مارجاى أول رئيس للوزراء، وحكم البلاد تحت الراية السياسية لـ «حزب شعب سيراليون» حتى وفاته فى ١٩٦٤. وأعقبه أخوه، سير ألبرت مارجاى، حتى ١٩٦٧، عندما فاز بالانتخابات سياكا ستيفنز، قائد حزب «مؤتمر كل الشعب»، وأعقب الانتخابات انقلاب عسكرى. وعاد سياكا ستيفنز إلى السلطة فى ١٩٦٨، وبعد سنوات أعلن حكم الحزب الواحد فى البلاد، وأصبح حزب «مؤتمر كل الشعب» هو الحزب الشرعى الوحيد. كانت هذه بداية «السياسات العفنة»، حسب تعبير أبى. وتساءلت فى نفسى: تُرى ماذا يقول عن هذه الحرب التى أجرى هربًا منها؟ سمعت من الكبار أنها كانت حربًا ثورية، تحريرًا للشعب من حكومة فاسدة. لكن أى نوع من حركات التحرير تقتل المدنيين الأبرياء، والأطفال، تلك الطفلة الصغيرة؟ لم يكن هناك من يجيب عن هذه الأسئلة، وشعرت برأسى تثقله الصور التى

احتواها. وبينما نسير، شعرت بالخوف من الطريق، ومن الجبال البعيدة، ومن الشجيرات على الجانبين.

وصلنا إلى ماترو يونج فى وقت متأخر من تلك الليلة. شرح جونيور وتالوى لأصدقائنا ما رأيناه، بينما لزمت الصمت، كنت لا أزال أحاول أن أستوعب إن كان ما رأيته حقيقة بالفعل. فى تلك الليلة، عندما استطعت أخيرًا أن أغفو، حلمت أننى أصبت بطلق نارى فى جنبى، والناس يجرون ويمرون بى دون أن يساعدونى، فقد كانوا جميعًا يركضون للنجاة بحياتهم. حاولت أن أزحف إلى مكان آمن بين الشجيرات، لكن فجأة ومن لا مكان كان هناك رجل يقف على رأسى يحمل بندقية. لم أستطع أن أتبين وجهه لأن الشمس كانت خلفه. سدد هذا الشخص البندقية إلى مكان الإصابة فى جنبى، وجذب الزناد. استيقظت ولمست جنبى مترددًا. أصبحت خائفًا، لم أعد أعرف الفرق بين الحلم والواقع.

* * *

كل صباح فى ماترو يونج كنا نذهب إلى المرفأ انتظارًا لأخبار بلدتنا وأهالينا. لكن بعد أسبوع كان فيض اللاجئين القادمين من ذلك الاتجاه قد تناقص وأصبحنا لا نسمع الجديد من الأخبار. انتشرت قوات الحكومة فى ماترو يونج، وأقاموا نقاط تفتيش عند المرفأ وغيره من الأماكن الاستراتيجية فى كل مكان من البلدة. كان الجنود مقتنعين بأن أى هجوم للمتمردين سوف يأتى عبر النهر، ومن ثم فقد أقاموا مدفعية ثقيلة هناك وأعلنوا حظر التجوال بعد السابعة مساء، وهو ما جعل الليالى أكثر ثقلاً، حيث لم نستطع النوم وكنا نضطر للبقاء بين الجدران منذ وقت مبكر. وأثناء اليوم، كان جبريلا وكالوكو يأتيان. ونجلس نحن الستة فى الشرفة ونناقش ما يحدث.

قال جونيور بهدوء: «لا أظن هذا الجنون سيستمر». ونظر لى كأنما ليطمئننى أننا سوف نعود سريعًا إلى البيت.

وقال تالوى وهو جالس على الأرض: «من المحتمل أن يستمر شهرًا أو اثنين».

قال جبريلا: «سمعت أن الجنود فى طريقهم بالفعل لإخراج المتمردين من مناطق المناجم». ووافقنا أن الحرب كانت مجرد مرحلة عابرة لن تستمر أكثر من ثلاثة أشهر.

كنا أنا وجونيور وتالوى نستمع إلى موسيقى الراب، محاولين أن نحفظ كلمات الأغانى كى نتمكن من تجنب التفكير فى الأوضاع الجارية. كانت معنا أشرطة كاسيت قليلة لموسيقى الراب، والملابس التى كنا نرتديها. وأتذكر أننى كنت جالسًا فى الشرفة أستمع إلى أغنية «الآن وقد وجدنا الحب»، وأراقب الأشجار على أطراف المدينة تتحرك حركة خفيفة مع الريح البطيئة. كان النخيل خلفها ساكنًا بلا حركة، وكأنه بانتظار شىء ما. أغلقت عينى ومرت فى عقلى الصور التى رأيتها فى كاباتى. حاولت أن أبعدها باستحضار ذكرياتى عن كاباتى قبل الحرب.

* * *

بجوار القرية التى كانت تعيش فيها جدتى كانت توجد غابة كثيفة من ناحية، ومزارع البن من الناحية الأخرى. وكان هناك نهر يتدفق من الغابة إلى أطراف القرية، ويمر عبر أراضى النخيل ليصب فى مستنقع. وفوق المستنقع كانت مزارع الموز تمتد حتى الأفق. كان الطريق الرئيسى الترابى الذى يمر عبر كاباتى مليئًا بالحفر والبرك الصغيرة التى كان البط يحب السباحة فيها أثناء النهار، وفى أفنية المنازل الخلفية، كانت الطيور تعشش على أشجار المانجو.

فى الصباح، كانت الشمس تطلع من وراء الغابة. وتأتى أشعتها متخللة أوراق الأشجار فى البداية، وبالتدريج يطلع الضوء بينها ينتشر صياح الديكة وزقزقة عصافير الدورى معلنة ضوء النهار، وتستقر الشمس الذهبية على قمم أشجار الغابة. وفى المساء، كان يمكن مشاهدة القرود فى الغابة تقفز من شجرة إلى أخرى، عائدة إلى أماكن نومها. وفى مزارع البن، كانت الدواجن مشغولة دائماً بتخبئة صغارها من الصقور. وخلف المزارع كانت قمم النخيل تهتز مع حركة الرياح. ويمكن أحيانًا رؤية أحد جامعى نبيذ النخيل يتسلق نخلة فى أوائل المساء.

كان المساء ينتهى بتكسير أغصان فى الغابة، ودق الأرز فى الهاونات. كانت الأصداء تتردد فى القرية، فتقفز الطيور ثم تعود مستغربة تهمهم وتزقزق. وتتبعها أصوات الجداجد والضفادع والبوم، كلها تتنادى لقدوم الليل وهى تترك أماكن اختبائها. ويرتفع الدخان من المطابخ ذات الأسقف القشية، ويبدأ الناس فى العودة من المزارع حاملين المصابيح وأحيانًا خشبة مشتعلة للإضاءة.

«لابد أن نتطلع لأن نكون مثل القمر». كان عجوز فى كاباتى يكرر هذه العبارة كثيرًا للمارة العابرين على منزله فى طريقهم إلى النهر لجلب الماء، أو للصيد، أو لاستخراج نبيذ النخيل؛ أو إلى مزارعهم. وأتذكر أننى سألت جدتى عما يعنيه هذا الرجل. فشرحت لى أنه مَثَلٌ يُراد به تذكير الناس بأن يلجأوا دائماً فى تصرفاتهم إلى أفضل السلوكيات، وأن يكونوا مهذبين مع الآخرين. قالت إن الناس يشكون من الشمس إذا زادت حرارتها حتى تصبح غير محتملة، كما يشكون عندما تمطر كثيرًا، أو من البرد. لكن لا أحد يتذمر عندما يشرق القمر. بل يصبح الجميع سعداء ويظهرون تقديرهم للقمر كل بطريقته. الأطفال يلاحظون ظلالهم ويلعبون فى ضوئه، ويتجمع الناس فى الساحة ليحكوا الحكايات، ويرقصوا طوال الليل. كثير

من الأشياء الجميلة تحدث عندما يشرق القمر، وهذه بعض الأسباب التى تجعلنا نتمنى أن نصبح مثل القمر.

وأنهت المناقشة قائلة: «إنك تبدو جائعًا، سأعد لك بعض الكاسافا».

بعد أن أخبرتنى جدتى لماذا يجب أن نتطلع لأن نكون مثل القمر، آليت على نفسى أن أراقبه عن كثب. فى كل ليلة يظهر فيها القمر فى السماء، كنت أرقد على الأرض بالخارج وأراقبه بهدوء. كنت أريد أن أكتشف لماذا كان جميلاً ومحبوبًا هكذا. وأصبحت مسحورًا بالأشكال المختلفة التى أراها داخل القمر. فى بعض الليالى كنت أرى رأس رجلٍ له لحية متوسطة ويرتدى قبعة بحار. وفى أوقات أخرى كنت أرى رجلاً يحمل فأسًا ويقطع الخشب، وأحيانًا كنت أرى امرأة تهدهد طفلاً على صدرها. وكلما حانت فرصة لأراقب القمر الآن، أجد أننى لا أزال أرى نفس الصور التى كنت أراها وأنا فى السادسة من عمرى، وأشعر بالسرور لمعرفتى بأن ذلك الجزء من طفولتى لا يزال مطمورًا بداخلى.

(٢)

أدفع عربة يد صدئة فى بلدة يفوح هواؤها برائحة الدم واللحم المحترق. يحمل النسيم صرخات ضعيفة لأولئك الذين تخرج أنفاسهم الأخيرة من أجسادهم المشوهة. أسير عابرًا إياهم. أذرعهم وأرجلهم مفقودة؛ أمعاؤهم بارزة من الثقوب التى أحدثتها الطلقات فى بطونهم؛ مادة المخ خارجة من أنوفهم وآذانهم. الذباب فى حالة اهتياج وثمل حتى إنه يقع على برك الدم فيموت. عيون الذين على وشك الموت أكثر احمرارًا من الدم الذى ينزف منهم، ويبدو أن عظامهم تكاد تقطع الجلد المشدود على وجوههم وتخرج منه فى أية لحظة. أدير وجهى إلى الأرض لأنظر إلى قدمى، لكن حذائى الممزق غارق فى الدم، والذى يبدو أنه يجرى من تحت سروال الجيش القصير الذى أرتديه. لا أشعر بألم فى جسدى، ومن ثم فلست متأكدًا إن كنت مصابًا. ولكننى أشعر بدفء ماسورة البندقية الكلاشينكوف ٤٧ على ظهرى؛ لا أتذكر متى أطلقتها لآخر مرة. أشعر وكأن إبرًا قد دُقَّتْ فى رأسى، ومن الصعب أن أتأكد ما إذا كان الوقت ليلاً أو نهارًا. عربة اليد أمامى بها جسد ميت ملفوف فى ملاءة بيضاء. لا أعرف لماذا آخذ هذا الجسد بالذات إلى المدفن؟

عندما أصل إلى المدفن، أجاهد لرفعه من عربة اليد؛ وأشعر وكأن الجسد

يقاوم. أحمله بين ذراعى، بحثًا عن مكان مناسب لدفنه. يبدأ جسمى يشعر بالألم ولا أستطيع أن أحرك قدمًا دون أن أشعر باندفاع الألم من أصابع قدمى إلى عمودى الفقرى. أنهار على الأرض وأحمل الجسد بين ذراعىّ. تبدأ بقع من الدم تظهر على الملاءة البيضاء التى تغطيه. أضع الجسد على الأرض وأبدأ فى فك الملاءة من حوله بداية من القدمين. ثقوب الطلقات ظاهرة فى كل جزء منه حتى الرقبة. إحدى الطلقات هشمت تفاحة آدم واستقرت شظاياها خلف الحلق. أرفع القماش عن وجه الجسد. وأجد أنى أنظر إلى جسدى أنا.

* * *

أرقد وقد بللنى العرق لدقائق على الأرض الخشبية الباردة حيث وقعت، قبل أن أفتح النور لأتمكن من تحرير نفسى تمامًا من دنيا الحلم. يجرى فى ظهرى ألم حاد. فحصت الجدار الحجرى الأحمر العارى للحجرة، وحاولت أن أعرف أى أغنية من موسيقى الراب تأتى من سيارة عابرة. غشيتنى رعدة، وحاولت أن أفكر فى حياتى الجديدة فى مدينة نيويورك، حيث جئت منذ أكثر من شهر. لكن عقلى كان يتجول عبر المحيط الأطلنطى عائدًا إلى سيراليون. رأيت نفسى أحمل الكلاشينكوف وأسير فى إحدى مزارع البن مع فرقة تتكون من العديد من الأولاد وقليل من البالغين. كنا فى طريقنا لمهاجمة بلدة صغيرة تمتلك بعض الذخيرة والطعام. وما أن تركنا مزرعة البن، حتى فوجئنا بأننا أمام فرقة مسلحة أخرى فى ملعب كرة مجاور لبقايا ما كان قرية. فتحنا النار حتى وقع آخر كائن حى فى الجماعة الأخرى على الأرض. سرنا نحو الأجساد الميتة، ونحن نتبادل صفق كف كل منا بكف الآخر للتهنئة. كانت تلك الفرقة أيضًا تتكون من صبيان صغار مثلنا، لكننا لم نأبه لهم. أخذنا ذخيرتهم، وجلسنا على أجسادهم،

وبدأنا نأكل الطعام المطهى الذى كانوا يحملونه. وفى كل مكان حولنا، كان الدم يسيل حارًّا من الثقوب التى أحدثتها الطلقات فى أجسادهم.

قمت من الأرض، بللت فوطة بيضاء بزجاجة ماء، ولففتها حول رأسى. كنت أخشى أن أنام، لكن البقاء متيقظًا كان يجلب ذكريات مؤلمة أيضًا. ذكريات أحيانًا أتمنى لو أتمكن من محوها، رغم أننى أدرك أنها جزء مهم من تكوين حياتى؛ ومن شخصيتى الآن. بقيت مستيقظًا طوال الليل، أنتظر بقلق طلوع الصبح، لأتمكن من العودة بالكامل إلى حياتى الجديدة، لإعادة اكتشاف السعادة التى عرفتها طفلاً، الفرحة التى بقيت حية داخلى حتى فى تلك الأوقات التى كان فيها البقاء على قيد الحياة عبئًا. هذه الأيام أعيش فى ثلاثة عوالم: أحلامى، وتجارب حياتى الجديدة، التى تثير فى ذهنى ذكريات من الماضى.

(٣)

ظللنا فى ماترو يونج فترة أطول مما كنا نتوقع. لم نسمع أية أخبار عن عائلاتنا، ولم نكن نعلم ماذا يمكن أن نفعل سوى أن ننتظر ونأمل أن يكونوا بخير.

سمعنا أن المتمردين قد تمركزوا فى سامبويا، وهى بلدة على بعد عشرين ميلاً تقريبًا شمال شرق ماترو يونج. هذه الإشاعة سرعان ما حل محلها رسائل أحضرها أناس لم يقتلهم المتمردون أثناء المذبحة التى ارتكبوها فى سامبويا. كانت الرسائل مجرد إعلان لأهل ماترو يونج بأن المتمردين قادمون وأنهم يريدون الترحيب بهم، لأنهم يحاربون من أجلنا. كان أحد الرسل شابًا. وقد حفروا الحروف الأولى من اسم الجماعة وهو «الجبهة الثورية المتحدة» على جسمه بحربة ساخنة، وبتروا أصابعه كلها فيما عدا الإبهامين. وقد أطلق المتمردون على هذا البتر «حبٌ واحد». قبل الحرب، كان الناس يرفعون أحد الإبهامين ليقولوا لبعضهم «حب واحد»، وهو تعبير انتشر نتيجة تأثير موسيقى الريجى[١] وحب الناس لها.

---

(١) reggae music: موسيقى الريجى قالب موسيقى ظهر فى جامايكا وله أصل كاريبى أفريقى، وقد انتشرت فى أمريكا خاصة فى الستينيات، ومن أشهر روادها بوب مارلى [المترجمة].

عندما تلقى الناس الرسالة من الرسول التعس، ذهبوا للاختباء فى الغابة فى نفس الليلة. لكن عائلة خليلو طلبوا منا أن نبقى ونتبعهم مع باقى أشيائهم إن لم تتحسن الأحوال فى الأيام المقبلة، ومن ثم بقينا ملازمين البيت.

فى تلك الليلة، لأول مرة فى حياتى تحققت من أن وجود الناس المادى والروحى هو الذى يعطى أية بلدة حياة. فمع غياب كل هؤلاء الناس، أصبحت البلدة مكانًا مخيفًا، والليل أصبح أكثر عتمة، والصمت لا يطاق. وفى العادة كانت الجداجد والطيور تزقزق فى المساء قبل غروب الشمس، لكنها لم تفعل هذه المرة، وهبط الظلام بسرعة غير معتادة. لم يكن القمر فى السماء؛ وكان الهواء متوقفًا عن الحركة، وكأن الطبيعة نفسها كانت خائفة مما يحدث.

* * *

ظل معظم أهل البلدة مختبئين لمدة أسبوع، وذهب المزيد من الناس للاختباء بعد وصول رسل آخرين. لكن المتمردين لم يأتوا فى اليوم الذى حددوه، ونتيجة لذلك بدأ الناس يعودون إلى البلدة. وما أن استقر الجميع ثانية حتى جاءت رسالة أخرى. هذه المرة كان الرسول أسقفًا كاثوليكيًا معروفًا، كان يقوم بعمله التبشيرى عندما التقى بالمتمردين. لم يفعل المتمردون شيئًا للأسقف سوى تهديده بأنه لو فشل فى تسليم رسالتهم فإنهم سوف يصلون إليه. وعند وصول الرسالة، ترك الناس البلدة مرة أخرى، واتجهوا إلى أماكن اختبائهم المختلفة فى الغابات. وبقينا نحن مرة أخرى، هذه المرة ليس لنحمل أشياء عائلة خليلو، فقد كنا قد أوصلناها بالفعل إلى المخبأ، ولكن لنعتنى بالبيت ولشراء أنواع من الأطعمة المطلوبة مثل الملح والفلفل والأرز والسمك، والتى أخذناها إلى عائلة خليلو فى الأدغال.

مرت عشرة أيام أخرى من الاختباء، ولم يصل المتمردون بعد. ولم يعد هناك إلا استنتاج أنهم لن يأتوا. عادت الحياة إلى البلدة مرة أخرى. عادت المدارس تفتح أبوابها، وعاد الناس إلى روتينهم المعتاد. مرت خمسة أيام بسلام، وحتى الجنود الذين كانوا فى المدينة بدأوا يسترخون.

أحيانًا كنت أذهب لأتمشى وحدى متأخرًا فى المساء. كان مرأى النساء يجهزن العشاء دائمًا يذكرنى بالأوقات التى كنت فيها أراقب أمى وهى تطبخ. لم يكن مسموحًا للأولاد بدخول المطبخ، لكنها كانت تستثنينى من ذلك، قائلة: «إنك بحاجة لأن تعرف كيف تطبخ شيئًا لحياة العزوبية». كانت تتوقف، وتعطينى قطعة من السمك المجفف، ثم تكمل: «أنا أريد حفيدًا، ولهذا لا أريدك أن تبقى أعزب إلى الأبد». تتجمع الدموع فى عينى وأنا أستمر فى تجوالى على الطرقات المفروشة بالحصى فى ماترو يونج.

عندما جاء المتمردون أخيرًا، كنت أطبخ. كان الأرز قد انتهى، وحساء البامية على وشك أن يصبح جاهزًا عندما سمعت طلقة بندقية واحدة رن صداها فى المدينة. كان جونيور وتالوى وكالوكو وجبريلا وخليلو بالغرفة، فانطلقوا ركضًا إلى الخارج. سألوا: «هل سمعت هذا؟». وقفنا ساكنين، محاولين أن نقرر ما إذا كان الجنود هم الذين أطلقوا هذه الطلقة. بعد دقيقة، أطلقت ثلاث طلقات سريعة من بنادق مختلفة. هذه المرة بدأنا نشعر بالقلق. قال أحد أصدقائنا ليطمئننا: «إنهم فقط الجنود يجربون أسلحتهم». وأصبحت البلدة فى حالة هدوء تام، ولم تعد تُسمع أصوات طلقات لأكثر من خمس عشرة دقيقة. عدت إلى المطبخ، وبدأت أضع الأرز فى الأطباق. وفى تلك اللحظة ترددت فى أنحاء البلدة عدة طلقات بدت مثل الرعد حين يضرب البيوت ذات الأسطح الصفيح. كان صوت البنادق مرعبًا للغاية حتى إن الجميع أصابتهم حالة من التشوش. لم يستطع أحد أن يفكر بوضوح. وفى خلال ثوان، بدأ الناس يصرخون ويجرون فى اتجاهات مختلفة،

يدفعون بعضهم البعض، ويطأون على من يقع على الأرض. لم يكن هناك وقت ليأخذ أحد أى شىء معه. انطلق الجميع يركضون للنجاة بحياتهم. الأمهات فقدن أطفالهن، الذين أصابتهم الحيرة، وتزامنت الصرخات الحزينة مع طلقات البنادق. تفرقت العائلات وتركوا خلفهم كل شىء يملكونه وعملوا من أجله طوال حياتهم. كان قلبى يدق بسرعة أكثر من المعتاد. وبدا لى أن كل طلقة معلقة بضربات قلبى.

أطلق المتمردون بنادقهم نحو السماء، وهم يصرخون ويرقصون بمرح متقدمين داخل المدينة فى تشكيل نصف دائرى. وهناك طريقان لدخول ماترو يونج. إحدهما الطريق البرى، والأخرى بعبور النهر «يونج». هاجم المتمردون المدينة من الطريق البرى، مما دفع الأهالى للركض نحو النهر. كان كثير من الناس فى حالة رعب حتى إنهم جروا إلى النهر دون تفكير، وقفزوا فيه، ولم تكن لديهم أى قوة على السباحة. أما الجنود، الذين كانوا بشكل ما يتوقعون الهجوم ويعرفون أن المتمردين يفوقونهم عددًا، فقد غادروا المدينة قبل أن يصل المتمردون بالفعل. كانت هذه مفاجأة لنا، أنا وجونيور وتالوى وخليلو وجبريلا وكالوكو، نحن الذين وجهتنا الغريزة فى البداية للانطلاق إلى حيث يتجمع الجنود. وقفنا هناك، أمام أكياس الرمل المكدسة، غير قادرين على اتخاذ قرار إلى أين نتوجه بعد ذلك. وبدأنا نجرى مرة أخرى نحو المنطقة التى بدا أن طلقات البنادق فيها أقل.

لم يكن هناك مهرب إلى خارج البلدة سوى عن طريق واحدة. انطلق الجميع إليها، الأمهات يصرخن بأسماء أطفالهن المفقودين، والأطفال التائهين يصرخون بلا جدوى. جرينا معًا، محاولين البقاء مع بعضنا. ولكى نصل إلى طريق الهروب، كان علينا أن نعبر مستنقعًا موحلاً مجاورًا لتل صغير. وأثناء عبورنا المستنقع ركضًا، مررنا بأناس انغرزوا فى الوحل، وأناس مقعدين لا يستطيع أحد مساعدتهم، فأى شخص يتوقف ليفعل ذلك يخاطر بحياته.

بعد أن عبرنا المستنقع، بدأ الخطر الحقيقى، لأن المتمردين بدأوا يوجهون طلقاتهم إلى الناس بدلاً من توجيهها إلى السماء. لم يكونوا يريدون أن يغادر الناس البلدة، لأنهم يريدون استخدام المدنيين كدروع أمام الجيش. وكان أحد الأهداف الرئيسية للمتمردين عندما يستولون على بلدة أن يجبروا الناس على البقاء معهم، خاصة النساء والأطفال. وبهذه الطريقة يمكنهم البقاء وقتًا أطول، لأن التدخل العسكرى سوف يتم تأخيره.

كنا الآن على قمة تل معشوشب موجود خلف المستنقع مباشرة، فى منطقة ظاهرة وخالية من الأشجار تسبق طريق الهروب مباشرة. وعندما رأى المتمردون أن الأهالى كلهم على وشك الهروب، أطلقوا قنابل «الآر بى جى»، والبنادق الآلية، وبنادق الكلاشينكوف ٤٧، والبنادق الأوتوماتيكية جى٣، كل ما لديهم من أسلحة، وجهت مباشرة إلى المنطقة. لكننا كنا نعرف أنه لا مفر، وعلينا أن نعبر المنطقة المكشوفة لأننا، كصبية صغار، كان خطر البقاء بالنسبة لنا أعظم من خطورة محاولة الهروب. فقد كان الصبية يتم تجنيدهم فورًا، وكان يتم ختم جلودهم بالأحرف الأولى من اسم «الجبهة الثورية المتحدة» فى أى مكان من الجسم باستخدام رمح ساخن. ولا يعنى هذا فقط أنك ستحمل هذا الختم المشوه طوال حياتك، ولكنه يعنى أيضًا أنك لن تستطيع الهرب منهم أبدًا، لأن الهرب بهذا الختم معناه الموت، فالجنود سيقتلونك دون سؤال، وكذا سيفعل المسلحون من المدنيين.

رحنا ننتقل بين أكمة وأخرى حتى وصلنا إلى الجانب الآخر. لكن هذا كان مجرد البداية للعديد من المخاطر التى كانت بانتظارنا. فور حدوث أحد الانفجارت، أسرعنا بالقيام والجرى سويًا، مع خفض رءوسنا، قافزين على الأجساد الميتة ولهيب الأشجار الجافة المحترقة. وكدنا نصل إلى نهاية المنطقة المكشوفة عندما سمعنا أزيز مقذوفة صاروخية أخرى تقترب،

أسرعنا فى خطواتنا، وقفزنا إلى الأجمة قبل أن تنزل المقذوفة، والتى تبعتها أصوات عدة جولات من نيران البنادق الآلية. لم يكن من كانوا خلفنا مباشرة محظوظين مثلنا. فقد أصابتهم مقذوفة «الآر بى جى». أحدهم أصيب بشظايا «الآر بى جى»، وانطق يصرخ بصوت مرتفع، ويصيح بأنه أعمى. لم يجرؤ أحد على الخروج ومساعدته. وأوقفته مقذوفة أخرى انفجرت مسببة انتثار بقاياه ودمه مثل المطر على الأوراق والشجيرات القريبة. حدث كل هذا بسرعة هائلة.

* * *

وبمجرد أن عبرنا المنطقة المكشوفة، أرسل المتمردون بعض رجالهم ليمسكوا بمن استطاعوا أن يصلوا إلى منطقة الشجيرات. فبدأوا يطاردوننا ويطلقون النار علينا. ركضنا لأكثر من ساعة دون توقف. ولا يمكن للمرء أن يتصور مدى السرعة التى ركضنا بها، ولا المدة التى قضيناها راكضين. لم أعرق ولم أشعر بأى تعب على الإطلاق. كان جونيور أمامى وأمامه تالوى. وبين الفينة والأخرى كان أخى ينادى اسمى، ليتأكد من أننى لم أتخلف. كنت أستطيع سماع الحزن فى صوته، وفى كل مرة كنت أرد عليه، كان صوتى يرتعش. وخلفى كان جبريلا وكالوكو وخليلو. كانت أنفاسهم ثقيلة وكنت أسمع أحدهم يهسهس محاولاً منع نفسه من البكاء. كان تالوى سريع الجرى، حتى عندما كنا أصغر. ولكن فى ذلك المساء كنا قادرين على مجاراته. بعد حوالى ساعة أو أكثر من الجرى، تخلى المتمردون عن المطاردة، وعادوا إلى ماترو يونج، بينما تابعنا نحن ابتعادنا عنها.

(٤)

على مدى أيام عديدة، سرنا ـ نحن الستة ـ على طريق ضيقة اتساعها قدم واحد تقريبًا، محاطة على جانبيها بالآجام الكثيفة. كان جونيور فى المقدمة، ولم تعد يداه تتأرجحان كما كان يفعل عندما يسير عبر الفناء وهو قادم من المدرسة. كنت أريد أن أعرف ما الذى يفكر فيه، لكن كل واحد كان فى حالة هدوء شديد، ولم أكن أعرف كيف أكسر حاجز الصمت. كنت أفكر أين كانت عائلتى، وإذا ما كنت سأتمكن من رؤيتهم مرة أخرى، وتمنيت أن يكونوا سالمين وألا يكونوا فى حالة حزن شديد علينا أنا وجونيور. كانت الدموع تتجمع فى عينىّ، لكن الجوع الشديد كان يمنعنى من البكاء.

كنا ننام فى قرى مهجورة، حيث كنا نرقد على الأرض العارية، ونتمنى أن نتمكن فى اليوم التالى من أن نجد شيئًا غير الكاسافا غير المطهوة لنأكلها. مررنا بقرية كان فيها أشجار موز وبرتقال وجوز هند. كان خليلو يعرف كيف يتسلق أفضل منا جميعًا، فطلع على كل من تلك الأشجار وجمع منها بقدر ما يستطيع. لم يكن الموز ناضجًا، فغلينا بعضه بإضافة خشب إلى نار كانت موقدة فى أحد المطابخ الخارجية (التى تقام خارج الديار). لابد أن أحدًا غادر تلك القرية عندما رآنا قادمين، لأن النار كانت تبدو حديثة. لم يكن طعم الموز جيدًا بأى حال، لأننا لم نضف إليه أى ملح أو أيًّا

من الإضافات الأخرى، لكننا أكلناه كله، لمجرد أن يكون هناك شيء فى بطوننا. بعد ذلك أكلنا بعض البرتقال وبعضًا من جوز الهند. لم نستطع أن نجد طعامًا يقيم الأود. وكنا نزداد جوعًا يومًا بعد يوم، لدرجة أن بطوننا كانت تؤلمنا وبدأت عيوننا تغيم أحيانًا. ولم يكن أمامنا خيار سوى أن نحاول العودة إلى ماترو يونج، مع بعض الناس الذين لقيناهم على الطريق، لكى نأتى ببعض النقود التى تركناها، ومن ثم يمكننا شراء طعام.

* * *

فى طريقنا عبر البلدة الهادئة والجدباء، والتى كانت تبدو الآن غير مألوفة، رأينا أوانى طعام عفنة تركها الناس. كانت الأجساد، والأثاث، والملابس، وكل أنواع المتاع متناثرة فى كل مكان. فى إحدى الشرفات رأينا رجلاً عجوزًا جالسًا فى مقعد وكأنه نائم. وكان فى رأسه ثقب طلقة، وأمام المدخل رقد جسدان لرجلين كانت أعضاؤهما التناسلية وأطرافهما مقطوعة بمنجل كان ملقى على الأرض إلى جوار أجزاء جسديهما المتكومة. تقيأت، وفى الحال شعرت بحمى، لكننا كان يجب أن نستمر. جرينا على أطراف أصابعنا بسرعة وحذر قدر ما نستطيع، متجنبين الشوارع الرئيسية. كنا نقف خلف جدران البيوت، ونتفحص الطرقات الصغيرة المفروشة بالحصى بين البيوت قبل أن نعبر إلى بيت آخر. وفى نقطة ما، بمجرد أن عبرنا الشارع، سمعنا صوت أقدام. لم يكن هناك مكان نختبئ فيه بسرعة، ومن ثم اضطررنا إلى الجرى بسرعة إلى إحدى الشرفات والاختباء خلف قوالب الطوب الأسمنتى المتراصة. استرقنا النظر من خلف القوالب ورأينا اثنين من المتمردين يرتديان بنطلونات «باجى»، و« شباشب»، و«تى شيرتات» بيضاء. كانت رأساهما مربوطتين بمنديلين أحمرين، ويحملان بندقيتين على ظهريهما. كانا يرافقان مجموعة من النساء الشابات يحملن

قدور طبخ، وأكياسًا من الأرز، ومدقات هاون. راقبناهم حتى ابتعدوا عن أنظارنا قبل أن نبدأ فى الحركة مرة أخرى. أخيرًا وصلنا إلى بيت خليلو. كانت الأبواب كلها محطمة، والمنزل ممزق، فقد تعرض للنهب، مثل كل بيت آخر فى البلدة. وكان هناك ثقب رصاصة فى إطار الباب، وزجاج مكسور لزجاجة بيرة النجمة، وهى ماركة شعبية فى البلاد، كما كانت هناك علب سجائر فارغة على أرض الشرفة. ولم يكن هناك أى شىء نافع فى البيت. والطعام الوحيد الذى كان متاحًا هو الأرز الخام فى أكياس ثقيلة ومن الصعب حملها، فسوف تبطئ من حركتنا. لكن لحسن الحظ وجدت النقود حيث تركتها، فى كيس بلاستيكى صغير تحت قدم السرير. وضعتها داخل حذائى، وتوجهنا عائدين باتجاه المستنقع.

تجمعنا ـ نحن الستة ـ بالإضافة إلى الناس الذين دخلنا المدينة معهم، على أطراف المستنقع كما خططنا وبدأنا نعبر المنطقة المكشوفة كل ثلاثة معًا. كنت فى المجموعة الثانية، مع تالوى وشخص آخر. بدأنا نزحف عبر المنطقة المكشوفة حسب إشارة من المجموعة الأولى التى عبرت قبلنا. وبينما كنا فى منتصف المسافة، جاءتنا إشارة من المجموعة أن نرقد منبطحين، وما أن رقدنا على الأرض حتى أشاروا لنا بأن نستمر فى الزحف. كانت هناك أجساد ميتة فى كل مكان، وكان الذباب يتجمع على الدم المتخثر عليها. بعد أن وصلنا إلى الجانب الآخر رأينا أنه كان هناك متمردون يقومون بالحراسة فى برج صغير عند المرفأ كان يكشف المنطقة. كانت المجموعة التالية تتكون من جونيور واثنين آخرين. وبينما كانوا يعبرون، وقع شىء من جيب أحدهم على علبة ألمونيوم كانت على الأرض. كان الصوت مرتفعًا لدرجة جذبت انتباه المتمردين الذين فى نوبة الحراسة، فوجهوا أسلحتهم نحو المكان الذى جاء منه الصوت. شعرت بوخز مؤلم فى قلبى وأنا أراقب أخى راقدًا على الأرض متظاهرًا بأنه أحد الأجساد الميتة. وسُمعت عدة طلقات

فى المدينة، فجذبت انتباه المتمردين وجعلتهم يلتفتون إلى الناحية الأخرى. واستطاع جونيور ومن معه العبور. كان وجهه متربًا وكانت ثمة بقايا من الوحل بين أسنانه. كان يتنفس بصعوبة وقد توترت قبضتاه. أحد الأولاد ضمن المجموعة الأخيرة كان بطيئًا جدًّا، لأنه كان يحمل حقيبة كبيرة من الأشياء التى جمعها من منزله. ونتيجة لذلك رآه المتمردان اللذان كانا فى برج الحراسة الصغير، وفتحا النار. وبدأ بعض المتمردين الذين كانوا تحت البرج يركضون ويطلقون النار نحونا. همسنا إلى الصبى «اترك الحقيبة وأسرع. المتمردون قادمون، هيا». لكنه لم يستمع لنا. ووقعت الحقيبة من على كتفه بعد أن عبر المنطقة المكشوفة، وبينما كنا نجرى، رأيته يشد الحقيبة، والتى انحشرت بين أغصان الأشجار. جرينا بأسرع ما نستطيع حتى فقد المتمردون أثرنا. كان الوقت فى الغروب، فسرنا بهدوء باتجاه الشمس الحمراء الكبيرة والسماء التى كانت ساكنة بانتظار الظلام. ولم يستطع الصبى الذى تسبب فى انتباه المتمردين إلينا أن يصل إلى أول قرية مزدحمة وصلنا إليها.

فى تلك الليلة كنا نشعر ببعض السعادة المؤقتة لأن معنا تلك النقود القليلة، وكنا نأمل أن نشترى بعض الأرز المطهو وأوراق الكاسافا أو البطاطس للغداء. ورحنا نتبادل صفق الأيدى مع بعضنا ونحن نقترب من سوق القرية، وقد راحت بطوننا تعوى عندما وصلت إلينا رائحة زيت النخيل متصاعدة من أكواخ الطهى. ولكن عندما وصلنا إلى أكشاك بيع الطعام المطهو، خاب رجاؤنا عندما وجدنا أن من كانوا يبيعون أوراق الكسافا، وحساء البامية، وأوراق البطاطس، كلها مطهوة بالسمك المجفف وزيت النخيل الغنى وتقدم مع الأرز، قد توقفوا عن بيعها. كان بعضهم يوفر طعامه تحسبًا لأحوال أسوأ، والبعض الآخر كانوا فقط غير راغبين فى بيع أى شىء لأسباب غير واضحة.

بعد كل التعب والمخاطر التى خضناها لإحضار النقود، أصبحت بلا قيمة. ولو بقينا لكان جوعنا أقل، بدلاً من السير أميالاً إلى ماترو يونج ذهابًا وإيابًا. أردت أن ألوم أحدًا على هذا المأزق بخاصة، لكن لم يكن هناك من يُلام. لقد اتخذنا قرارًا منطقيًّا، ولكنه انتهى إلى هذه النتيجة. وتلك حالة نموذجية من أحوال الحرب. فالأشياء تتغير بسرعة فى خلال ثوان، ولا أحد لديه قدرة على التحكم فى أى شىء. ولا يزال أمامنا أن نتعلم هذه الأشياء ونطبق تكتيكات البقاء على قيد الحياة، وهو ما انحدرت إليه الأحوال. فى تلك الليلة وصل بنا الجوع لدرجة أننا سرقنا طعام الناس وهم نائمون. كانت هذه هى الطريقة الوحيدة التى نستطيع بها أن نعبر الليل.

(٥)

كنا فى حالة من الجوع الشديد لدرجة أن شرب الماء كان مؤلمًا، وشعرنا بتقلصات فى أمعائنا. وشعرنا كأن هناك شيئًا يأكل بطوننا من الداخل. جفت شفاهنا وضعفت مفاصلنا وأصبحت موجعة. بدأت أشعر بأضلعى عندما ألمس جنبى. لم نكن نعرف من أين نأتى بطعام. مزرعة الكاسافا الوحيدة التى نسطو عليها لم تستمر طويلاً. والطيور والحيوانات مثل الأرانب لم يكن لها أثر. أصبحنا شديدى التوتر وجلسنا بعيدًا عن بعضنا البعض، وكأن جلوسنا معًا يزيدنا جوعًا.

فى إحدى الأمسيات طاردنا صبيًّا صغيرًا كان يأكل كوزين من الذرة المغلية وحده. كان فى حوالى الخامسة من عمره وكان يستمتع بالذرة التى كان يحملها بكلتى يديه، ويأخذ «قضمة» من كل كوز بالتبادل. لم نقل كلمة أو حتى ننظر إلى بعضنا البعض. ولكننا اندفعنا جميعًا إلى الصبى فى نفس الوقت، وقبل أن يعرف ماذا يحدث، كنا قد أخذنا الذرة منه. اقتسمناها بيننا نحن الستة، وأكل كل منا نصيبه الصغير، بينما كان الصبى يبكى وجرى إلى والديه. لم يواجهنا والدا الصبى بشىء حول هذا الحدث. أظن أنهما عرفا أن ستة صبية لن يقفزوا على ابنهما من أجل كوزين من الذرة إلا إذا كانوا فى حالة جوع مفزعة. وفى وقت متأخر من المساء، أعطت أم الصبى كوز ذرة

لكل واحد منا. شعرت بالذنب للحظات قليلة، ولكن فى حالتنا، لم يكن لدينا الكثير من الوقت للندم.

لا أعرف اسم القرية التى كنا فيها، ولم نتجشم مشقة السؤال، حيث إننى كنت مشغولاً بمحاولة اجتياز عقبات الحياة اليومية. لم نكن نعلم أسماء البلدات والقرى الأخرى، ولا كيف نذهب إليها. ومن ثم فقد ساقنا الجوع مرة أخرى إلى ماترو يونج. كان هذا خطيرًا، ولكن الجوع جعلنا لا نأبه كثيرًا. كان الوقت صيفًا، وهو فصل الجفاف، وقد تحول لون الأرض المعشوشبة إلى الاصفرار. وأحاطت بها غابة خضراء نضرة.

* * *

كنا نسير فى طابور واحد وسط الأرض المعشوشبة، قمصاننا على أكتافنا أو رءوسنا، عندما ظهر المتمردون فجأة من خلف الحشائش الجافة، ووجهوا بنادقهم إلى جبريلا، الذى كان فى المقدمة. ردّوا زناد بنادقهم إلى وضع التصويب، ووضع واحد منهم طرف بندقيته تحت ذقن جبريلا. وقال لأصحابه ضاحكًا: «إنه مرعوب مثل قرد منقوع». وبينما عبرنى الآخران فى سيرهما، تجنبت التقاء نظراتنا بتوجيه رأسى لأسفل. رفع أصغر المتمردين رأسى بحربته، والتى كانت لا تزال فى غمدها. بينما كان ينظر إلى بقسوة، أخرج الحربة من الغمد ووضعها فى مقدمة بندقيته. ارتعدت مفاصلى بشدة وارتعشت شفتاى. افترت شفتاه عن ابتسامة فاترة. لم يكن أحد هؤلاء المتمردين يزيد على واحد وعشرين عامًا، وبدأوا يسيرون بنا عائدين إلى قرية كنا قد عبرناها. كان أحدهم يرتدى قميص جيش بلا أكمام وبنطلون جينز، وكانت رأسه مربوطة بقماش أحمر. وكان الآخران يرتديان بنطلونات وجاكيتات جينز، ويضعون قبعات البيسبول وقد وجهوها للخلف، وفى أقدامهما حذاءان «أديداس» جديدان. وكان كل منهم يضع بضع ساعات

بالغة الأناقة فى رسغه. كل هذه الأشياء أُخذت من الناس بالقوة، أو نُهبت من المنازل والمحلات.

قال المتمردون الكثير من الأشياء ونحن نمشى. وأيًّا كان ما قالوه، فهو لم يكن يبدو ودودًا. لم أستطع سماع كلماتهم، لأن كل ما استطعت أن أفكر فيه هو الموت. وجاهدت لأتفادى أن أفقد الوعى.

عندما اقتربنا من القرية، سبق اثنان من المتمردين. وفكرت فى نفسى، نحن ستة ومتمرد واحد. لكن كانت معه بندقية نصف آلية، وحزام طويل من الطلقات ملفوف حول وسطه. جعلنا نسير فى صفين، ثلاثة فى كل صف، أيدينا فوق رءوسنا. كان خلفنا، يصوب بندقيته إلى رءوسنا، وعند نقطة معينة قال: «إذا تحرك واحد منكم حركة واحدة فسوف أقتلكم جميعًا. فلا تتنفسوا بقوة وإلا كان هذا آخر حياتكم». وضحك، ورن صوته فى الغابة البعيدة. دعوت ألا يقوم أى من أصدقائى أو أخى بأية حركة مفاجئة أو حتى يحاول أن يهرش. كنت أشعر بسخونة فى رأسى من الخلف، وكأنما أتوقع طلقة فى أية لحظة.

عندما وصلنا إلى القرية، كان المتمردان اللذان سبقانا قد جمعا كل من كان هناك. كان هناك أكثر من خمسة عشر شخصًا، أغلبهم فتيان، وبعض البنات، وعدد قليل من البالغين. جعلونا جميعًا نقف فى فناء منزل كان قريبًا من الأجمة. كانت الدنيا تظلم. وأخرج المتمردون كشافاتهم الكبيرة ووضعوها فوق هاون لطحن الأرز، لكى يتمكنوا من رؤية الجميع. وبينما وقفنا هناك تحت البنادق المصوبة، سمعنا صرير الجسر الخشبى القديم تحت وقع أقدام رجل عجوز كان قد هرب من ماترو يونج ويعبر الجسر متجهًا إلى القرية. وبينما كنا نراقبه، سار أصغر المتمردين نحوه، وانتظره عند طرف الجسر. وصوب إليه البندقية بمجرد عبوره وأحضره أمامنا. كان الرجل فى

ستينياته تقريبًا، ولكنه بدا ضعيفًا. كان وجهه مجعدًا من الجوع والخوف. دفع المتمرد الرجل العجوز فوقع على الأرض، ووضع فوهة البندقية على رأسه، وأمره أن يقوم. استطاع الرجل العجوز أن يقف وركبتاه ترتعدان. ضحك المتمردون عليه، وجعلونا نضحك معهم بتصويب بنادقهم إلينا. ضحكت بصوت عالٍ لكنى كنت أبكى فى داخلى، وكانت الرعدة تسرى فى أطرافى. كورت قبضتى، لكن هذا جعل الرعدة أسوأ. وقف الأسرى جميعًا تحت البنادق المصوبة ينتظرون، بينما استمر المتمردون يستجوبون الرجل العجوز.

سأل أحدهم وهو يفحص حربته: «لماذا تركت ماترو يونج؟» وقاس طول السكين بأصابعه ثم وضعها على رقبة الرجل العجوز.

«يبدو أنها مناسبة تمامًا». وحرك الحربة على رقبة الرجل العجوز.

«هل ستجيب عن سؤالى الآن؟» نفرت العروق فى جبينه بينما كانت عيناه المحمرتان القاسيتان تراقبان الوجه المرتعد للرجل العجوز، والذى كان جفناه يرتعشان بشكل لاإرادى. قبل الحرب لم يكن يجرؤ شاب على التحدث إلى أى شخص كبير بمثل هذه الطريقة الوقحة. لقد نشأنا فى ثقافة تتطلب من الجميع أن يسلكوا سلوكًا حسنًا، وخاصة من الصغار. كان مطلوبًا من الصغار أن يحترموا كبارهم وكل شخص آخر فى المجتمع.

قال الرجل بصوت مذعور وقد استطاع أن يلتقط أنفاسه: «تركت المدينة للبحث عن عائلتى». كان المتمرد صاحب البندقية نصف الآلية يقف مستندًا على شجرة يدخن سيجارة، فسار بغضب نحو الرجل العجوز مصوبًا بندقيته بين رجلى الرجل.

«لقد تركت ماترو يونج لأنك لا تحبنا». ووضع بندقيته على مقدمة رأس الرجل وأكمل: «لقد رحلت لأنك ضد قضيتنا كمحاربين من أجل الحرية، أليس كذلك؟»

أغلق الرجل العجوز عينيه بشدة، وبدأ ينهنه.

فكرت فى نفسى، أية قضية؟ استخدمت الحرية الوحيدة المتاحة لى: أفكارى، فهم لا يستطيعون رؤيتها. بينما استمر الاستجواب، رسم أحد المتمردين الحروف الأولى من اسم الجبهة على كل جدران المنازل فى القرية. كان أسوأ رسام رأيته فى حياتى. لا أظن أنه كان يعرف حتى حروف اللغة التى يكتبها. ولكنه كان يعرف فقط أشكال هذه الحروف الثلاثة بالتقريب. وعندما انتهى من الرسم، سار إلى الرجل العجوز وصوب بندقيته إلى رأسه.

«هل لديك كلمات أخيرة تقولها؟» عند هذا الحد لم يكن الرجل العجوز قادرًا على الكلام. ارتعشت شفتاه، لكنه لم يستطع أن يخرج كلمة واحدة من فمه. جذب المتمرد الزناد، ومثل البرق، رأيت ومضة النار التى خرجت من الفوهة. أدرت وجهى إلى الأرض. واصطكت ركبتاى وتسارعت دقات قلبى وعلا صوتها. وعندما نظرت مرة أخرى، كان الرجل العجوز متكورًا ككلب يحاول أن يمسك بذبابة على ذيله. وظل يصرخ: «رأسى! مخى!»، والمتمردون يضحكون عليه. أخيرًا توقف ورفع يديه ببطء وكأنه شخص متردد فى النظر إلى المرآة. وصرخ: «أستطيع أن أرى! أستطيع أن أسمع!»، وأغمى عليه. وظهر أن المتمرد لم يطلق النار عليه مباشرة، ولكنه أطلق على مسافة قريبة جدًّا من رأسه. وكانوا مسرورين جدًّا برد فعل الرجل.

ثم توجه المتمردون إلينا وأعلنوا أنهم سوف يختارون بعض الناس منا لتجنيدهم، فهذا هو السبب الوحيد فى خروج دوريتهم. أمروا الجميع أن يقفوا صفًا، رجالاً ونساء، وحتى أطفالاً أصغر منى. ساروا أمامنا جيئة وذهابًا محاولين أن تلتقى عيونهم بعيون الناس. فى البداية اختاروا خليلو، ثم اختارونى، وآخرين قليلين. وطلبوا من كل شخص اختاروه أن يقف

فى صف آخر مواجه للصف الأول. لم يتم اختيار جونيور، ووقفت أواجهه على الجانب الآخر من الحشد، فى طريقى لأن أصبح متمردًا. نظرت إليه، لكنه تفادى تلاقى أعيننا، ووجه نظره لأسفل. وبدا وكأن عالمينا أصبحا مختلفين، وأن علاقتنا كانت تنفصم. ولحسن الحظ، لسبب ما قرر المتمردون أن يقوموا باختيار آخر. أحدهم قال إنهم أخطأوا الاختيار، حيث إن معظم المختارين كانوا يرتعشون، ومعنى ذلك أننا جبناء.

«إننا نريد مجندين أقوياء، لا ضعفاء». ودفعنا المتمرد لنعود إلى الجانب الآخر من الحشد. انحرف جونيور ليكون إلى جوارى. لكزنى لكزة ناعمة. نظرت إليه، فأومأ وربت على رأسى.

صرخ أحد المتمردين قائلاً: «قفوا ساكنين للاختيار النهائى». توقف جونيور عن ربت رأسى. وأثناء الاختيار الثانى، تم اختيار جونيور. وكانت بقيتنا لا حاجة إليها، ومن ثم فقد اقتادونا إلى النهر وتبعهم المختارون.

رفع أحد المتمردين ذراعه مشيرًا فى اتجاهنا، وأعلن: «سوف (ندشنكم) بقتل هؤلاء الناس أمامكم. لابد أن نفعل ذلك لتروا الدماء وتقوى قلوبكم. لن تروا أيًا من هؤلاء الناس مرة أخرى، إلا إن كنتم تعتقدون فى الحياة بعد الموت». ودق صدره بقبضته وضحك.

درت ونظرت إلى جونيور، الذى كانت عيناه حمراوين لأنه كان يحاول أن يمنع دموعه، وقد ضم قبضتيه ليحفظ يديه من الارتعاد. بدأت أبكى بهدوء، وفجأة شعرت بدوار. وتقيأ أحد الأولاد المختارين. دفعه أحد المتمردين ليلحق بنا بضربه فى وجهه بكعب بندقيته. كان وجه الفتى ينزف ونحن نستمر فى السير.

علق متمرد آخر قائلاً: «لا تقلقوا يا رفاق، القتل التالى سيكون بأيديكم»، وضحك.

عند النهر جعلونا نركع ونضع أيدينا خلف رءوسنا. فجأة ترددت أصوات طلقات بنادق غير بعيدة عن القرية. ركض اثنان من المتمردين للاحتماء خلف الأشجار القريبة؛ ورقد الثالث منبطحًا على الأرض وهو يصوب بندقيته ناحية اتجاه الصوت.

«هل تظنون أنهم....». لم يكمل المتمرد الراقد على الأرض كلامه بسبب المزيد من طلقات البنادق. بدأ المتمردون يطلقون بنادقهم ردًّا. وتفرق الجميع، راكضين للنجاة بحياتهم نحو الشجيرات. لاحظ المتمردون ما جرى وأطلقوا النار نحونا. جريت بأسرع ما أستطيع داخل الأحراش ورقدت منبطحًا على الأرض خلف لوح خشبى. كنت أسمع أصوات طلقات البنادق تقترب، ومن ثم بدأت أزحف مبتعدًا بين الشجيرات. ضربت طلقة شجرة فوق رأسى مباشرة، ووقعت إلى الأرض بجانبى. توقفت وأمسكت أنفاسى. ومن مرقدى، رأيت الطلقات الحمراء تتطاير داخل الغابة وتغيب فى الظلام. كنت أسمع دقات قلبى وبدأت أتنفس بصعوبة، فغطيت أنفى محاولاً التحكم فى تنفسى.

بعض الناس وقعوا فى أيدى المتمردين مرة أخرى، وسمعتهم يصرخون من الألم بسبب ما كانوا يتعرضون له. ملأت الغابة صرخة حادة خشنة لامرأة، وشعرت بالخوف فى صوتها ينغرز فى عروقى، ويتسبب فى طعم مرير بين أسنانى بشكل ما. زحفت أكثر داخل الأحراش، ووجدت مكانًا تحت شجرة، حيث رقدت ساعات دون حركة. كان المتمردون لا يزالون فى القرية، يلعنون غاضبين ويطلقون بنادقهم. وفى لحظة معينة تظاهروا بأنهم ذهبوا، فعاد أحد الهاربين إلى القرية، فأمسكوه، وسمعتهم يضربونه. وبعد دقائق قليلة، سمعت طلقات بنادق أخرى، وتبعها دخان كثيف ارتفع نحو السماء. وأضاءت الغابة بسبب النار التى اشتعلت فى القرية.

* * *

مرت حوالى ساعة وتناقصت طلقات بنادق المتمردين تدريجيًا. وأنا أرقد تحت إحدى الأشجار أفكر ماذا سأفعل بعد هذا، سمعت همسًا خلفى. فى البداية خفت، لكنى بعد لحظة بدأت أتعرف على الأصوات. كان جونيور وأصدقائى. لقد اتجهوا بشكل ما إلى نفس الاتجاه. ترددت قليلاً فى أن أناديهم، وانتظرت لكى أتأكد بما لا يدع مجالاً للشك. سمعت جونيور يهمس: «أظن أنهم ذهبوا». وهنا كنت متأكدًا جدًا لدرجة أن صوتى خرج منى دون وعى: «جونيور، تالوى، كالوكو، جبريلا، خليلو. أهو أنتم؟» قلت ذلك بسرعة، فعادوا إلى الصمت. ناديت مرة أخرى: «جونيور، هل تسمعنى؟» أجاب: «نعم، نحن هنا إلى جوار جذع الشجرة المتعطن». وأرشدونى نحوهم. ثم زحفنا مقتربين من القرية لنصل إلى الطريق. وما أن وجدنا الطريق حتى بدأنا نسير عائدين إلى القرية التى قضينا فيها معظم أيام جوعنا. تبادلت نظرة أنا وجونيور، وأجابنى بتلك الابتسامة التى كانت قد غابت عن وجهه عندما كنت على وشك مواجهة الموت.

كانت رحلتنا فى تلك الليلة هادئة جدًا. لم يتكلم أحد منا. كنت أعرف أننا سائرون، لكنى لم أكن أشعر بقدمى تلمسان الأرض.

عندما عدنا إلى القرية جلسنا حول النار حتى الفجر. لم ينطق أحدنا بكلمة واحدة. كل واحد بدا فى عالم مختلف، أو يتأمل فى شىء ما. فى الصباح التالى بدأنا نتكلم مع بعضنا وكأننا استيقظنا من كابوس أو حلم أعطانا تجربة مختلفة حول الحياة والوضع الذى نحن فيه. قررنا أن نترك القرية فى اليوم التالى ونذهب إلى مكان أكثر أمانًا، مكان بعيد عن هذا المكان. لم تكن لدينا فكرة أين يمكن أن نذهب أو حتى كيف نصل إلى مكان آمن، لكننا كنا قد قررنا أن نجد واحدًا. وأثناء ذلك اليوم غسلنا ثيابنا. لم يكن لدينا صابون، ومن ثم نقعناها ثم وضعناها فى الشمس لتجف بينما جلسنا عراة محتمين بأجمة مجاورة منتظرين أن تصبح جاهزة. واتفقنا على الرحيل مبكرًا فى صباح اليوم التالى.

(٦)

لم يكن وجودنا فى مجموعة من ستة أولاد فى صالحنا. لكننا كنا بحاجة للبقاء سويًّا لأن ذلك منحنا فرصة أفضل لمواجهة المتاعب اليومية التى تمر بنا. كان الناس يخشون الصبية من سننا. بعضهم سمع شائعات بأن المتمردين يجبرون الصبية الصغار على قتل عائلاتهم وحرق قراهم. وكان هؤلاء الأطفال الآن يخرجون فى دوريات فى وحدات خاصة تقوم بقتل المدنيين وتشويههم. كان هناك بعض ضحايا تلك الأعمال الإرهابية يحملون آثار جراح حديثة تظهر صدق ما يقولون. وهكذا، فأينما كان الناس يروننا، كنا نذكرهم بالمذابح، وينبعث الخوف فى قلوبهم ثانية. بعض الناس حاولوا إيذاءنا لحماية أنفسهم، وعائلاتهم وجماعاتهم. وبسبب هذه الأشياء، قررنا أن نعبر القرى بالسير داخل أحراش الشجيرات الكثيفة القريبة منها. وبهذه الطريقة سوف نكون فى أمان ونتجنب التسبب فى أى تشوش. كان هذا إحدى عواقب الحرب الأهلية. توقف الناس عن الثقة ببعضهم البعض، وكل غريب أصبح عدوًّا. حتى الناس الذين كانوا يعرفونك أصبحوا شديدى الحذر فى كلامهم معك.

فى صباح أحد الأيام، بمجرد أن تركنا منطقة الغابات التابعة لإحدى القرى التى عبرناها، انبثقت فجأة من بين الشجيرات مجموعة من الرجال

الضخام ذوى العضلات، إلى عرض الطريق أمامنا. رفعوا بندقياتهم وآليات القناصة التى يحملونها، وأمرونا بالتوقف. كان الرجال متطوعين لحراسة قريتهم، وطلب منهم رئيسهم أن يحضرونا.

تجمع حشد كبير فى فناء الزعيم بانتظار وصولنا. دفعنا الرجال الضخام إلى الأرض أمامهم وقيدوا أقدامنا بحبال قوية. ثم قيدوا أيادينا وراء ظهورنا حتى تلامست الكيعان، مما جعل صدورنا تضيق من الضغط. بكيت من الألم، وحاولت أن ألف ظهرى لكن هذا جعل الأمر أسوأ.

خبط الزعيم بهراوته على الأرض، وقال: «هل أنتم متمردون أم جواسيس؟»

ارتعشت أصواتنا: «لا».

بدا الغضب الشديد على الزعيم، وقال: «إن لم تقولوا الى الحقيقة، فسوف أجعل هؤلاء الرجال يربطون حجارة إلى أجسامكم ويلقونكم فى النهر».

أخبرناه أننا كنا طلبة، وأن هذا سوء فهم كبير.

زعق الحشد: «أغرقوا المتمردين».

سار الحرس إلى داخل الدائرة، وبدأوا يفتشون جيوبنا. وجد أحدهم أحد أشرطة موسيقى الراب فى جيبى، وأعطاه للزعيم. فطلب أن يتم تشغيله.

إنك لا تهتمين بخصوصية الآخرين (نعم، وأنت تعرفيننى)

إنك لا تهتمين بخصوصية الآخرين (نعم وأنت تعرفيننى)

إنك لا تأبهين لخصوصية الآخرين (نعم وأنت تعرفيننى)

من الذى لا يأبه لخصوصية الآخرين (كل شخصية تلتصق بالبيت)(١)

---

(١) من أشهر أغانى مجموعة Naughty By Nature، وهى من أشهر المجموعات التى تغنى على موسيقى الراب.

أوقف الزعيم الموسيقى. ومسح على ذقنه مفكرًا.

قال وهو يلتفت إلىّ: «قل لى، كيف حصلت على هذه الموسيقى الأجنبية؟»

أخبرته أننا نغنى أغانى الراب. لم يكن يعرف ما هى موسيقى الراب، ومن ثم فقد حاولت قدر استطاعتى أن أشرحها له. وقلت فى النهاية باختصار: «إنها أشبه برواية الحواديت، ولكن بلغة الرجل الأبيض». وأخبرته أيضًا أننا كنا راقصين، وكنا نكون فرقة تؤدى الرقص والغناء فى ماترو يونج، حيث كنا نذهب إلى المدرسة هناك.

سأل: «ماترو يونج؟» وطلب شابًا كان من تلك القرية. أُحضر الشاب أمامه، وسأله لو كان يعرفنا وإن كان قد سمعنا أبدًا نروى الحواديت بلغة الرجل الأبيض. كان الصبى يعرف اسمى، واسم أخى، وأسماء أصدقائى. وكان يذكر مشاهدتنا فى العروض التى قمنا بها. لم يكن أحدنا يعرفه، ولا حتى نعرف شكله، لكننا ابتسمنا بحرارة وكأننا نعرفه أيضًا، لقد أنقذ حياتنا.

تم فك وثاقنا، وقدمت لنا كاسافا وسمك مدخن. أكلنا، وشكرنا أهل القرية، وبدأنا نستعد للرحيل فى طريقنا. عرض الزعيم وبعض الرجال الذين قيدوا أرجلنا علينا مكانًا لنبقى فى القرية. شكرناهم على كرمهم، وغادرنا. كنا نعرف أن المتمردين سوف يأتون إلى تلك القرية فى النهاية.

وببطء سرنا على طريق يمر خلال غابة كثيفة. كانت الأشجار تميل بفعل الرياح الهادئة. وبدت السماء وكأنها مليئة بالدخان، دخان رمادى لا ينتهى جعل الشمس غائمة. وعند اقتراب الغروب وصلنا إلى قرية مهجورة بها ستة بيوت من الطوب اللبن. جلسنا على الأرض فى شرفة أحد المنازل. نظرت إلى جونيور، الذى كان وجهه يتصبب عرقًا. كان قد

أصبح شديد الهدوء فى الفترة الأخيرة. نظر إلىّ وابتسم قليلاً قبل أن يعود وجهه إلى تجهمه. قام وسار خارجًا إلى الفناء، وظل واقفًا بلا حركة يحدق فى السماء حتى اختفت الشمس. وفى طريقه عائدًا للجلوس فى الشرفة التقط حجرًا وظل يلعب به طيلة المساء. ظللت أنظر إليه، بأمل أن تلتقى أعيننا مرة أخرى، وربما حينئذ قد يقول شيئًا عما يدور فى رأسه. لكنه لم يرفع عينه. راح يلعب بالحجر فى يده، ويحدق فى الأرض.

فى يوم من الأيام، علمنى جونيور كيف أجعل حجرًا ينزلق على سطح النهر. كنا ذاهبين لجلب الماء، وقال لى إنه تعلم لعبة سحرية جديدة تجعله قادرًا على جعل الحجارة تسير فوق الماء. مال بجسده جانبًا، وألقى أحجارًا إلى الماء، وكل حجر منها كان يسير على سطح الماء مسافة أطول من السابق عليه. قال لى أن أحاول، لكنى لم أستطع أن أفعل ذلك. وعدنى أن يعلمنى هذا السحر فى وقت آخر. وبينما كنا نسير إلى البيت حاملين دلاء الماء فى أيدينا، انزلقت ووقعت، واندلق الماء. أعطانى جونيور دلوه، وأخذ دلوى الفارغ، وعاد إلى النهر. وعندما وصل البيت، كان أول ما فعله هو أن يسألنى إن كنت بخير ولم ينلنى أذى بسبب الوقوع. قلت له: إننى بخير، لكنه فحص ركبتىّ ومرفقىّ، وعندما انتهى، دغدغنى. فى ذلك المساء، بينما كنت أنظر إليه ونحن جالسون فى شرفة بيت فى قرية لا نعرفها، كنت أتمنى أن يسألنى هل أنا بخير.

كان جبريلا وتالوى وكالوكو وخليلو كلهم ينظرون إلى قمة الغابة التى تحيط بالقرية. وارتعش أنف جبريلا وهو جالس واضعًا ذقنه على ركبته. وعندما أطلق زفرة، تحرك جسده كله. كان تالوى ينقر بقدمه على الأرض باستمرار، وكأنما يحاول أن ينتزع نفسه من التفكير فى الحاضر. وكان كالوكو قلقًا. لم يستطع أن يجلس ساكنًا، وظل يغير وضع جلوسه، ويتنهد فى كل مرة يفعل هذا. وجلس خليلو هادئًا. لم يظهر على وجهه أى

تعبير، وبدا أن روحه تهيم بعيدًا عن جسده. كنت أريد أن أعرف مشاعر جونيور، لكنى لم أستطع أن أجد اللحظة المناسبة لكى أكسر صمت ذلك المساء. وليتنى فعلت.

فى الصباح التالى، عبرت القرية مجموعة كبيرة من الناس. ومن بين المسافرين كانت امرأة تعرف جبريلا. أخبرته أن خالته فى قرية تبعد حوالى ثلاثين ميلاً من المكان الذى كنا فيه. وشرحت لنا الطريق. ملأنا جيوبنا ببرتقال غير ناضج، كان شديد المرارة ومن الصعب أكله، لكنه كان مصدر الطعام الوحيد الذى أتيح لنا، وانطلقنا فى طريقنا.

* * *

كانت قرية كاماتور بعيدة جدًّا عن ماترو يونج، والتى كان المتمردون لا يزالون يسيطرون عليها، لكن أهل قرية كاماتور كانوا يحرسونها، وعلى استعداد للحركة فى أى وقت. ومقابل الحصول على طعام ومبيت، جعلونا نقوم بدور الملاحظة. كان هناك تل كبير على بعد ثلاثة أميال من القرية. ومن قمته يمكن للمرء أن يرى مسافة تصل إلى ميل أسفل الطريق القادم إلى القرية. وقفنا على قمة هذا التل نلاحظ منذ الصباح الباكر حتى دخول الليل. فعلنا ذلك لمدة تقرب من شهر، ولم يحدث شىء. ومع ذلك، كانت معرفتنا بالمتمردين تكفى لجعلنا على يقين من أنهم قادمون. ولكننا فقدنا تدريجيًّا الإحساس بمرور الوقت.

كان موسم الزراعة يقترب. سقطت أول موجة من الأمطار، وجعلت التربة ناعمة. وبدأت الطيور تبنى أعشاشها على أشجار المانجو. وكان الندى ينزل كل صباح فيبلل الأوراق ويتخلل التربة. كانت رائحة التربة المشربة بالندى قوية بشكل لا يُقاوم فى وسط النهار، وتثير رغبتى فى التدحرج على الأرض. كان أحد أعمامى يمزح بأنه يتمنى أن يموت

فى هذا الوقت من السنة. كانت الشمس تشرق مبكرًا عن المعتاد وتكون شديدة السطوع فى السماء الزرقاء الخالية تقريبًا من السحب. وكان العشب على جانب الطريق نصف جاف ونصف أخضر. ويمكن رؤية النمل على الأرض حاملاً الطعام إلى أوكاره. ازداد القرويون اقتناعًا بأن المتمردين لن يأتوا، رغم أننا حاولنا إقناعهم بالعكس، ومن ثم أمرونا بترك مواقع المراقبة والخروج إلى الحقول. لم يكن ذلك سهلاً.

كنت طوال حياتى مجرد متفرج بالنسبة لأعمال الزراعة، ونتيجة لذلك لم أعرف أبدًا مدى صعوبتها حتى تلك الأشهر القليلة من حياتى فى ١٩٩٣، والتى قضيتها أساعد فى زراعة قرية كاماتور. كان جميع أهل القرية مزارعين، ومن ثم لم يكن ثمة سبيل لتجنب هذا المصير.

قبل الحرب، عندما كنت أزور جدتى أثناء موسم الحصاد، كان الشىء الوحيد الذى تسمح لى به هو صب النبيذ على الأرض حول المزرعة قبل أن يبدأ الحصاد، كجزء من طقوس الشكر للأسلاف والآلهة التى أمدتنا بتربة خصبة، وأرز جيد، وسنة زراعية ناجحة.

كانت المهمة الأولى التى أسندت إلينا هى إخلاء قطعة أرض فى مساحة ملعب كرة القدم. وعندما ذهبنا لنرى الأجمة التى كان يفترض قطعها، عرفت أن أمامنا أيامًا صعبة. كانت الأجمة شديدة الكثافة، وكان هناك الكثير من النخيل، كل منها محاطة بأشجار تشابكت أفرعها معًا. كان من الصعب اللف حولها وقطعها. كانت الأرض مغطاة بالأوراق المتحللة التى غيرت لون سطح الأرض من البنى إلى لون غامق. وكان يمكن سماع حركة النمل الأبيض تحت الأوراق المتعفنة. كل يوم كنا ننحنى ونقف مرات عديدة تحت الشجيرات، ونحن نضرب بالمناجل والفئوس الأشجار والنخيل التى كان لابد من قطعها تحت مستوى الأرض لكى لا

تنمو بسرعة مرة أخرى وتعطل ما سوف يزرع من محصول. أحيانًا عندما كنا نؤرجح المناجل والفئوس، كان وزنها يتسبب فى جعلنا نقفز إلى الأعلى ونقع على الشجيرات، حيث نرقد قليلاً ونربت أكتافنا الموجعة. كان عم جبريلا يهز رأسه ويقول: «يا لكم من كسالى يا أولاد المدينة».

فى أول يوم للقيام بعملية الإخلاء، خصص عم جبريلا لكل منا جزءًا من الأجمة لقطعه. وقضينا ثلاثة أيام ليكمل كل منا نصيبه من العمل. أما هو فقد أنجز عمله فى أقل من ثلاث ساعات.

وعندما أمسكت بالمنجل فى يدى لأبدأ فى ضرب الأجمة، لم يستطع عم جبريلا أن يمسك نفسه، فقد انفجر فى الضحك، ثم أرانى كيف أمسك به بالطريقة الصحيحة. قضيت دقائق أؤرجح المنجل بلا هوادة لأنزل بكل قوتى على أشجار كان يقطعها بضربة واحدة.

كان الأسبوعان الأولان مؤلمين للغاية. عانيت من آلام فى ظهرى وتقلصات فى العضلات. وأسوأ شىء أن طبقة اللحم فى كفى تقشرت، وتورمت، وتقرحت، فلم أكن قد استخدمت يدىّ قبلاً لحمل منجل أو فأس. بعد الانتهاء من عملية الإخلاء، تُركت أعشاب الدغل لتجف. وفيما بعد، عندما جفت الأعشاب المقطوعة، حرقناها وراقبنا الدخان يرتفع إلى سماء الصيف الزرقاء.

بعد ذلك كان علينا أن نزرع الكاسافا. ولنفعل ذلك، حفرنا حفرًا صغيرة فى الأرض باستخدام المعازق. ولكى نرتاح قليلاً من هذه المهمة، التى كانت تتطلب أن نثنى الجزء الأعلى من أجسامنا نحو الأرض لساعات، كنا نحضر عيدان الكاسافا، ونقطعها إلى قطع أقصر، ونضعها فى الحفر. وأثناء قيامنا بهذا العمل، كانت الأصوات الوحيدة التى نسمعها

هى همهمة الأنغام التى يسلى بها المزارعون الخبراء أنفسهم، وبين حين وآخر رفرفة طائر، وتقصف فروع الأشجار التى تنكسر فى الغابة القريبة، وتحيات جيران يسيرون على الطريق إما ذاهبين إلى حقولهم أو عائدين إلى القرية. وفى نهاية اليوم، كنت أحيانًا أجلس على جذع شجرة فى ساحة القرية، وأرقب الصبيان الأصغر منى يلعبون ألعاب المصارعة. كان أحد الصبية فى حوالى السابعة من عمره، دائمًا ما يبدأ بالشجار، وكانت أمه تجذبه بعيدًا من أذنه. ورأيت نفسى فيه. كنت دائمًا ولدًا مشاكسًا مثله، ودائمًا أدخل فى مشاجرات فى المدرسة وعلى ضفة النهر. أحيانًا كنت أقذف الأولاد الذين لا أستطيع ضربهم بالحجارة. ولأن أمنا لم تكن بالبيت، فقد كنت أنا وجونيور دائمًا غير قادرين على الانسجام فى مجتمعنا. ترك انفصال أبوينا علينا علامات كانت مرئية للأطفال الصغار فى بلدتنا. وأصبحنا موضع النميمة المسائية.

قد يقول بعضهم: «هذان الولدان المسكينان».

ويقول آخرون بقلق ونحن نمر: «لن يتمكنا من الحصول على أى تربية كاملة صحيحة».

كانت الطريقة التى يظهرون بها رثاءهم تغضبنى حتى إننى كنت أحيانًا أتعمد ضرب أطفالهم من الخلف فى المدرسة، خاصة أولئك الذين تقول نظراتهم لى: «والداى يتحدثان عنكما كثيرًا».

قمنا بالزراعة لمدة ثلاثة أشهر فى كاماتور، ولم أتعود عليها أبدًا. كانت الأوقات الوحيدة التى استمتعت بها هى فترات راحة ما بعد الظهر، عندما كنا نذهب للسباحة فى النهر. هناك كنت أجلس على القاع الرملى للنهر الصافى، وأترك التيار يأخذنى فى اتجاه مجرى النهر، حيث أعود وأطفو،

وأخرج من النهر، وأرتدى ثيابى القذرة، ثم أعود إلى المزرعة. كان الشىء المحزن فى كل هذا العمل الصعب هو أن كل شىء فى النهاية انتهى إلى التدمير، لأن المتمردين جاءوا فى النهاية، وهرب الجميع تاركين مزارعهم لتغطيها الحشائش وتلتهمها الحيوانات.

كان أثناء ذلك الهجوم على قرية كاماتور أن افترقنا أنا وأصدقائى. وكانت المرة الأخيرة التى رأيت فيها جونيور، أخى الأكبر.

(٧)

حدث الهجوم ذات ليلة بشكل غير متوقع. لم يكن هناك حتى أية إشاعات بوجود المتمردين فى مكان حتى مسافة خمسين ميلاً من كاماتور. لقد دخلوا القرية فجأة من حيث لا نعلم.

كانت الساعة حوالى الثامنة مساء، عندما كان الناس يؤدون صلاة العشاء. كان الإمام غافلاً عما يجرى حوله حتى فات الأوان كثيرًا. كان يقف أمام الجميع، مواجهًا الشرق، يتلو بحماس سورة قرآنية طويلة، وما أن تبدأ الصلاة، لم يكن مسموحًا لأحد أن يقول شيئًا لا علاقة له بأداء الصلاة. لم أذهب إلى المسجد فى تلك الليلة، لكن كالوكو ذهب. وقال إنه بمجرد أن تحقق الناس من أن المتمردين فى القرية، ترك الجميع المسجد بسرعة وبصمت، واحدًا واحدًا، حتى أصبح الإمام وحده واقفًا فى مكانه يقود الصلاة. حاول البعض أن يهمسوا له، لكنه تجاهلهم. أمسك به المتمردون وطلبوا أن يعرفوا منه فى أى جزء من الغابة يختبئ الناس، لكن الإمام رفض أن يقول لهم. ربطوا يديه وقدميه بالأسلاك، وربطوه فى عمود حديدى، وأشعلوا النار فى جسده. ولم يحرقوه كاملاً، لكن النار قتلته. وظلت بقاياه نصف المحترقة فى ساحة القرية. قال كالوكو إنه رأى ذلك من المكان الذى اختبأ فيه، داخل أكمة قريبة.

فى لحظة الهجوم، كان جونيور فى غرفة الشرفة حيث كنا ننام نحن الخمسة. وكنت أنا بالخارج، جالسًا على الدرجات. لم يكن لدى وقت للبحث عنه، حيث إن الهجوم كان مباغتًا، واضطررت إلى الجرى إلى الأحراش وحدى. فى تلك الليلة نمت وحدى، مستندًا إلى شجرة. فى الصباح وجدت كالوكو، وعدنا إلى القرية معًا. كان جسد الإمام نصف المحترق، كما وصفه كالوكو، لا يزال فى ساحة القرية. واستطعت أن أدرك الألم الذى شعر به عندما رأيت أسنانه العارية. كانت البيوت كلها محترقة. ولم يكن ثمة ما يدل على أى حياة فى أى مكان. بحثنا فى الغابة الكثيفة عن جونيور وأصدقائنا، لكننا لم نجدهم فى أى مكان. وصادفنا عائلة كنا نعرفها، فسمحوا لنا بالاختباء معهم فى الأحراش بجوار المستنقع. بقينا معهم لمدة أسبوعين، أسبوعين شعرت بأنهما شهور. كان كل يوم يمر بطيئًا وأنا أشغل نفسى بالتفكير فى الاحتمالات الأخرى التى تنتظرنى. هل هناك نهاية لهذا الجنون؟ وهل هناك أى مستقبل لى وراء هذه الأحراش؟ فكرت فى جونيور، وجبريلا، وتالوى، وخليلو. هل استطاعوا الهروب من الهجوم؟ لقد كنت أفقد الجميع، عائلتى، وأصدقائى. وتذكرت عندما انتقلت عائلتى إلى موجبويمو. أقام أبى احتفالاً لمباركة بيتنا الجديد. فدعا جيراننا الجدد، ووقف أبى أثناء الاحتفال وقال: «أدعو الآلهة والأسلاف أن تبقى عائلتى دائمًا سويًّا». ونظر إلينا، أمى تحمل أخى الصغير، وأنا وجونيور نقف متجاورين نضع حلوى فى أفواهنا.

وقف أحد الكبار، وأضاف إلى ما قاله أبى: أدعو الآلهة والأسلاف أن تبقى عائلتك دائمًا سويًّا، حتى عندما يعبر أحدكم إلى عالم الأرواح. فلتحل البركة على العائلة والجماعة». ورفع الرجل العجوز يديه المفتوحتين فى الهواء. جاء أبى ووقف بجوار أمى وأشار إلينا أنا وجونيور أن نقترب. اقتربنا، ووضع أبى ذراعيه حولنا. صفق الجميع، وأخذ أحد المصورين بعض اللقطات لنا.

ضغطت بأصابعى على جفنيّ لأمسك دموعى من السقوط، وتمنيت لو أستطيع أن أكون مع عائلتى سويًّا مرة أخرى.

* * *

كل ثلاثة أيام كنا نعود إلى كاماتور لنرى إن كان الناس قد عادوا، لكن كل زيارة كانت بلا فائدة، فلم يكن هناك أى علامة على وجود شىء حى. كان الصمت فى القرية مثيرًا للرعب. وكنت أفزع عندما تهب الريح، وتهز الأسقف القشية، وشعرت كما لو أنى خرجت من جسدى وأهيم فى مكان ما. لم تكن هناك آثار أقدام من أى نوع. حتى السحالى لم تجرؤ على الزحف فى القرية. وتوقفت الطيور والجداجد عن الزقزقة. كنت أسمع صوت خطواتى أعلى من دقات قلبى. وأثناء تلك الزيارات، كنا نحضر معنا مقشات لكى نمحو آثار أقدامنا ونحن عائدون إلى مكان اختبائنا لكى لا يتبعنا أحد. فى المرة الأخيرة التى زرنا فيها القرية أنا وكالوكو، كانت الكلاب تأكل من البقايا المحترقة لجسد الإمام. كان أحد الكلاب يمسك بذراعه، والآخر برجله. وفى الأعلى، تجمعت النسور، تستعد للنزول إلى الجسد أيضًا.

* * *

أصابنى العيش فى حالة خوف بالإحباط. شعرت كأننى كنت طوال الوقت أنتظر أن يأتينى الموت، وهكذا قررت أن أذهب إلى مكان آخر حيث أجد بعض السلام على الأقل. كان كالوكو يخشى المغادرة. كان يظن أننا بمغادرة الأحراش نسير إلى الموت. فقرر أن يبقى فى المستنقع.

لم يكن معى ما أحمله، فملأت جيوبى بالبرتقال، وربطت أشرطة حذائى الرياضى الممزق، وأصبحت على استعداد للرحيل. ودعت الجميع،

واتجهت إلى الغرب. وبمجرد أن تركت منطقة الاختباء وأصبحت على الطريق، شعرت كما لو كنت ملفوفًا فى رداء من الأحزان. غمرتنى تلك الأحزان فى الحال، وبدأت أبكى، لم أكن أعرف لماذا، ربما لأننى كنت خائفًا مما ينتظرنى. جلست على جانب الطريق فترة حتى جفت دموعى، ثم استكملت طريقى.

سرت طوال اليوم، ولم ألتق بشخص واحد على طريق أو فى القرى التى عبرتها. لم تكن هناك آثار أقدام يمكن رؤيتها، والأصوات الوحيدة التى سمعتها كانت أصوات تنفسى وأصوات خطواتى.

خمسة أيام أسير من الفجر إلى الغروب، دون أن ألتقى بأى كائن بشرى. فى الليل كنت أنام فى قرى مهجورة. وكل صباح كنت أقرر مصيرى عندما أقرر أى طريق أسلكه. كان هدفى هو اجتناب السير فى الاتجاه الذى جئت منه. انتهى البرتقال الذى كان معى فى اليوم الأول، لكنى جمعت البعض منه فى كل قرية نمت فيها. أحيانًا كنت أمر بمزرعة كاسافا، فأشد بعضها من التربة وآكلها نيئة. كان الطعام الآخر المتاح فى معظم القرى هو جوز الهند. لكننى لم أكن أعرف كيف أتسلق نخيله. حاولت، لكن كان ذلك مستحيلاً، حتى جاء يوم كنت فيه شديد الجوع والعطش. وصلت إلى قرية لم يكن فيها أى شىء آكله إلا جوز الهند الذى تدلى بكسل من الأشجار، وكأنه يغيظنى، ويتحدانى أن أقطفه. ومن الصعب أن أشرح كيف حدث هذا، لكنى تسلقت شجرة جوز الهند بسرعة وبلا مقدمات. وعندما انتبهت إلى ما أفعله، وفكرت فى قلة خبرتى بهذا العمل خاصة، كنت بالفعل على قمة النخلة أقطف ثمار جوز الهند. نزلت بنفس السرعة ونظرت حولى بحثًا عن شىء أكسرها به. ولحسن الحظ وجدت منجلاً قديمًا وبدأت أعمل على كسر قشرة جوز الهند. وبعد أن انتهيت من وجبتى، بحثت عن أرجوحة شبكية معلقة بين الأشجار واسترحت لفترة من الوقت.

استيقظت فى حالة ارتياح تام، وفكرت أن لدى الآن طاقة تكفى لأن أتسلق وأقطف المزيد من أجل الطريق. لكن ذلك كان مستحيلاً. لم أستطع حتى أن أصل إلى منتصف الجذع. جربت المرة تلو المرة، لكن كل محاولة كانت أسوأ من التى سبقتها. لم أكن قد ضحكت منذ فترة طويلة، لكن هذا جعلنى لا أستطيع أن أمسك نفسى من الضحك. كان يمكننى كتابة ورقة علمية حول هذه التجربة.

* * *

فى اليوم السادس التقيت بالبشر. كنت قد تركت لتوى قرية كنت أنام فيها فى الليلة الماضية، وكنت فى طريقى للبحث عن أخرى عندما سمعت أصواتًا أمامى، تعلو وتخبو عندما تغير الريح اتجاهها. خرجت من الطريق وسرت بحرص، محاذرًا من الوطء على الأوراق الجافة فى الغابة لأتفادى إصدار أى صوت. وقفت خلف الشجيرات أراقب الناس الذين سمعت أصواتهم. كانوا ثمانية هناك عند النهر، أربعة صبية فى مثل سنى - فى الثانية عشرة من العمر - وفتاتين، ورجلا وامرأة. كانوا يسبحون. بعد أن راقبتهم لبرهة وقررت أنه لا خطورة منهم، قررت أن أنزل إلى النهر لأسبح أنا أيضًا. ولكى أتجنب إخافتهم، سرت عائدًا إلى الطرق ثم اتجهت ناحيتهم.

كان أول من رآنى هو الرجل، حييته «كوشيه - أو.... كيف حالك يا سيدى؟». تفحصت عيناه وجهى المبتسم. ولم يقل أى شىء، وقلت لنفسى ربما لا يتحدث لغة الكريو، ومن ثم حييته بلغة المندى، لغة قبيلتى.

«بو واه. بى جا وين بيه نا». لكنه لم يرد أيضًا. خلعت ثيابى وغصت فى النهر. وعندما صعدت إلى السطح، كانوا جميعًا قد توقفوا عن السباحة وإن ظلوا فى الماء. وسألنى الرجل، الذى لابد أنه كان الأب: «من أين أنت، وإلى أين تتجه؟» كان يتحدث المندى، كما كان يفهم الكريو أيضًا جيدًا.

«أنا من ماترو يونج، ولا أعرف إلى أين أذهب». مسحت الماء من على وجهى، وأكملت: «إلى أين أنت وعائلتك ذاهبون؟» تجاهل سؤالى متظاهرًا أنه لم يسمعنى. تقدمت أسأله إن كان يعرف أقرب طريق إلى «بونثيه»، وهى جزيرة فى جنوب سيراليون، وأحد أكثر الأماكن أمانًا فى ذلك الوقت، وفقًا لما كنت أسمعه. فأخبرنى أننى إن ثابرت على السير فى اتجاه البحر، فقد ألتقى فى النهاية بأناس يمكن أن تكون لديهم فكرة أفضل عن الطريق إلى بونثيه. كان واضحًا من لهجته أنه لم يكن يريد وجودى بالقرب منهم، وأنه لا يثق بى. نظرت إلى الوجوه القلقة المليئة بالارتياب للأطفال والمرأة. كنت سعيدًا برؤية وجوه أخرى، وفى نفس الوقت خاب رجائى لأن الحرب دمرت الاستمتاع بتجربة اللقاء بين الناس. حتى صبى فى الثانية عشرة من العمر لم يعد من الممكن الثقة به. خرجت من المياه، وشكرت الرجل، وسرت فى طريقى، متجهًا إلى الوجهة التى قال إنها تقود إلى البحر.

ومن المؤسف أننى لا أعرف أسماء معظم القرى التى لجأت إليها وأمدتنى بالطعام فى تلك الأوقات. لم يكن هناك من أسأله، وفى تلك الأجزاء من البلاد لم تكن ثمة لافتات مكتوب عليها اسم هذه القرية أو تلك.

(٨)

سرت لمدة يومين كاملين دون نوم. لم أكن أتوقف إلا عند الجداول لأشرب الماء. وشعرت كأن هناك شخصًا يلاحقنى. كان ظلى غالبًا ما يخيفنى ويتسبب فى أن أجرى لأميال. كل شىء كان شديد القسوة والجفاء. حتى الهواء بدا لى أنه يريد أن يهاجمنى ويكسر عنقى. كنت أعرف أننى جائع، لكنى لم أكن أشعر بشهية للأكل أو قوة للبحث عن طعام. مررت بقرى محترقة فيها جثث ميتة لرجال ونساء وأطفال من كل الأعمار متناثرة كأوراق الأشجار على الأرض بعد العاصفة. عيونهم لا تزال مليئة بالرعب، وكأن الموت لم يحررهم من الجنون الذى استمر يستشرى وينتشر. رأيت رءوسًا مقطوعة بالمناجل، ومحطمة بقوالب الطوب الأسمنتى، وأنهارًا امتلأت بدم كثير حتى توقفت المياه عن التدفق. وكلما تكرر مرور تلك الصور فى عقلى، كنت أسرع من خطوى. أحيانًا كنت أغلق عينىّ بقوة لأتجنب التفكير، لكن عقلى كانت داخله عين رفضت أن تنغلق، واستمرت تهاجمنى بالصور. كان جسدى ينتفض خوفًا، وأصبحت أشعر بالدوار. كنت أرى الأوراق على الأشجار تتأرجح، لكنى لم أكن أشعر بالرياح.

* * *

فى اليوم الثالث وجدت نفسى وسط غابة كثيفة، أقف تحت أشجار عملاقة أوراقها وفروعها تعوق رؤية السماء. لم أتذكر كيف وصلت إلى هنا. كان الليل يقترب، ومن ثم فقد بحثت عن شجرة مناسبة لا يصعب تسلقها؛ كانت لها أفرع متشابكة مع بعضها وتشكل ما يشبه الفراش المعلق. قضيت الليلة فى حضن تلك الأفرع، بين الأرض والسماء.

فى الصباح التالى قررت أن أجد الطريق خارج الغابة، رغم أن ظهرى كان يؤلمنى بشدة من نومى على الشجرة. وفى طريقى وصلت إلى جدول يجرى تحت صخرة عملاقة. جلست على جانبه لأستريح، وهنا التقت عيناى بحية ضخمة داكنة اللون تراجعت خلف الدغل. ووجدت عصا طويلة لحمايتى وأنا أجلس ألعب بالأوراق الموجودة على الأرض لأتجنب الأفكار التى تحتل عقلى. لكن عقلى استمر يعذبنى، وكل محاولة لمحو الأفكار المرعبة كانت هباء. ومن ثم قررت أن أسير، مع دق الأرض بالعصا التى أحملها. سرت طوال الصباح حتى الغروب، لكن فى النهاية وجدت نفسى فى نفس المكان الذى نمت فيه فى الليلة السابقة. وهنا أخيرًا تقبلت فكرة أننى تائه، وأن الخروج من هذا المكان سوف يأخذ وقتًا. قررت أن أجعل بيتى الجديد أكثر راحة بإضافة بعض الأوراق إلى الأفرع المتشابكة لأجعلها أكثر نعومة للنوم عليها.

سرت حول المكان لأعتاد بيئتى الجديدة. وبينما كنت أحاول التعرف على موطنى الجديد، أزلت الأوراق الجافة، ثم أخذت عصا ورسمت خطوطًا على الأرض من مكان نومى حتى الجدول حيث التقيت بجارى الجديد، الثعبان. كان هناك ثعبان آخر يشرب الماء، وتجمد فى مكانه عندما رآنى. وعندما مضيت فى أداء شأنى، سمعته يزحف مبتعدًا. رسمت خطوطًا بتفريق الأوراق الجافة على الأرض. هذه الخطوط ساعدتنى على ألا أضل الطريق بين الجدول ومكان نومى. وبعد أن انتهيت من التعرف

على المنطقة، جلست وحاولت أن أفكر فى كيفية الخروج من الغابة. لكن هذا التفكير لم يساعدنى، حيث إننى كنت خائفًا من التفكير. وفى النهاية قررت أنه ربما يكون من الأفضل أن أبقى حيث أنا. فرغم أننى تائه ووحيد، فهو أكثر أمانًا فى الوقت الحالى.

* * *

على جانبى الجدول كانت عدة أشجار عليها ثمار ناضجة لم أر مثلها من قبل. كانت الطيور تأتى لتأكل من هذه الثمار الغريبة كل صباح. قررت أن أجرب بعضها، حيث إنها كانت الشىء الوحيد القابل للأكل حولى. كان الخيار الوحيد أمامى هو إما أن أجرب حظى وآكل من هذه الثمار التى يمكن أن تكون سامة بالنسبة لى، أو أموت من الجوع. وقررت أن آكل الثمار. وفكرت أنه ما دامت الطيور تأكل منها وتعيش، فلربما أستطيع أنا أيضًا نفس الشىء. كانت الفاكهة تشبه الليمون، ولها طبقة خارجية ذات ألوان مختلطة من الأصفر والأحمر. وداخلها كان جزء فاكهى مقرمش ورطب، به بذرة صغيرة جدًّا. كانت رائحتها مزيج من رائحة المانجو الناضجة، والبرتقال، وشىء آخر حتى إنها كانت تبدو شهية جدًّا. فتحت واحدة وأخذت قضمة مترددًا. ولم يكن طعمها فى نفس جودة رائحتها، لكنها كانت كافية. ولابد أننى تناولت حوالى اثنتى عشرة منها. بعد ذلك شربت بعض الماء وجلست أنتظر النتيجة.

فكرت فى الوقت الذى كنت أزور فيه كاباتى مع جونيور ونخرج فى جولات مع جدنا على الطرقات الضيقة التى تحيط بمزارع البن المجاورة للقرية. كان يشير إلى بعض الأوراق الطبية، والأشجار التى يستخرج من لحائها أدوية مهمة. وفى كل زيارة، كان جدى يعطينا دائمًا دواء خاصًّا من المفترض أنه يعزز من قدرة المخ على تشرب المعرفة والاحتفاظ بها. كان

يصنع لنا هذا الدواء بكتابة دعاء باللغة العربية على لوح من الإردواز بحبر مصنوع من دواء آخر. بعد ذلك كانت الكتابة تغسل من على لوح الإردواز، وتوضع المياه التى غسلت بها، ويسمونها «نسى»، فى قنينة. وكنا نأخذها معنا، وكان المفروض أن نحتفظ بها سرًّا ونشربها قبل المذاكرة للامتحانات. وكان هذا الدواء مؤثرًا. أثناء سنوات دراستى فى المدرسة الأولية وبعض سنوات المدرسة الثانوية كنت أستطيع أن أحتفظ دائمًا بكل ما تعلمته. أحيانًا كان الدواء شديد التأثير لدرجة أننى أثناء الامتحانات كنت أستطيع تصور مذكراتى وكل ما كان مكتوبًا على كل صفحة من صفحات الكتاب المدرسى. وكأنما قد طُبعت تلك الكتب داخل رأسى. هذه الأعجوبة كانت واحدة بين أشياء كثيرة فى طفولتى. وحتى اليوم، لدى ذاكرة فوتوغرافية ممتازة تمكننى من تذكر تفاصيل لحظات حياتى اليومية، بدون لحظة نسيان.

بحثت حولى فى الغابة عن أحد أنواع الأوراق الطبية التى قال جدى إنها تزيل السم من الجسد، ربما أحتاجها لو كانت الثمار التى أكلتها سامة. لكننى لم أجد النبات.

مرت ساعتان ولم يحدث لى شىء، ومن ثم قررت أن آخذ حمامًا. لم يُتح لى وقت لأخذ حمام منذ فترة. كانت ملابسى قذرة، وحذائى متعفنًا، وجسمى لزجًا من القذارة. وعندما ألقيت الماء على جسمى لأول وهلة، أصبح جلدى موحلاً. لم يكن هناك صابون، لكن فى الغابة كان هناك مكان به نوع من الحشائش يمكن استخدامها بدلاً من الصابون. عرفت هذه الحشائش فى إحدى زياراتى الصيفية لجدتى. عندما عصرت مجموعة من تلك الحشائش معًا أخرجت رغوة أمدت جسدى برائحة منعشة. وبعد أن انتهيت من حمامى، غسلت ملابسى، أو على الأصح، بللتها ونشرتها على الحشائش لتجف. وجلست عاريًا، أنظف أسنانى بخلة. مر غزال

وتوقف يتأملنى مرتابًا قبل أن يذهب إلى شأنه. وقاومت التفكير بالاستماع إلى أصوات الغابة، حيث امتزجت زقزقة الطيور بصيحات القرود وثرثرة حيوانات البابون.

فى المساء كانت ملابسى لا تزال ندية، فارتديتها حتى تجف من حرارة جسدى فى وقت أسرع قبل أن يهبط الليل. كنت لا أزال حيًّا، رغم أكل تلك الثمار التى بلا اسم، ومن ثم أكلت المزيد كعشاء. وفى الصباح التالى أكلت بعضها أيضًا للإفطار، ثم على الغداء والعشاء مرة أخرى. أصبحت هذه الفاكهة التى لا اسم لها هى مصدر غذائى الوحيد. كانت الفاكهة كثيرة، لكننى عرفت أنه إن عاجلاً أو آجلاً لن يكون هناك المزيد. وأحيانًا كنت أشعر أن الطيور تنظر لى نظرات غاضبة لأننى أكلت كثيرًا من طعامها.

* * *

كان أصعب شيء لوجودى فى الغابة هو الشعور بالوحدة، والذى أصبحت أقل احتمالاً له كل يوم. فمن مساوئ الوحدة أنها تجعلك تفكر كثيرًا، خاصة عندما لا يكون لديك الكثير لتفعله. لم أكن أحب ذلك، وحاولت أن أمنع نفسى من التفكير، لكن لم تكن ثمة وسيلة مؤثرة. قررت أن أتجاهل كل فكرة تأتى إلى رأسى لأنها كانت تجلب الكثير من الحزن. وفيما عدا الأكل وشرب الماء، وأخذ حمام كل يومين، قضيت معظم وقتى فى صراع ذهنى لكى أتجنب التفكير فيما رأيته أو محاولة استشفاف إلى أين تسير حياتى، وأين عائلتى وأصدقائى. وكلما قاومت التفكير، أصبحت الأيام أطول، وشعرت أن رأسى يصبح أثقل بمرور الأيام. وأصبحت قلقًا وخائفًا من النوم خشية أن تظهر أفكارى المكبوتة فى أحلامى.

وبينما كنت أبحث فى الغابة عن مزيد من الطعام ولكى أجد طريقًا للخروج، كنت أخشى أن ألتقى بحيوانات متوحشة مثل الفهود أو

الأسود أو الخنازير البرية؛ لذا حرصت على البقاء قريبًا من الأشجار التى أستطيع تسلقها بسهولة للاختباء من تلك الحيوانات. وسرت بأسرع ما أستطيع، لكن كلما سرت، بدا أننى أدخل فى أعماق الغابة أكثر. وكلما حاولت أن أخرج، أصبحت الأشجار أكبر وأعلى. كانت تلك مشكلة، لأنه أصبح من الصعب أن أجد شجرة يسهل تسلقها وبها أفرع مناسبة للنوم عليها.

* * *

ذات مساء كنت أبحث عن شجرة ذات أفرع متشابكة لأنام عليها، وسمعت خوارًا. لم أكن متأكدًا أى نوع من الحيوانات يصدر تلك الأصوات المزعجة، لكنها أصبحت أقرب، تسلقت شجرة لأكون فى أمان. وبمجرد أن جلست فوقها، ظهر قطيع من الخنازير البرية تجرى. كانت أول مرة أرى فيها الخنازير البرية. وكانت ضخمة، كلها، فإذا وقف الواحد منها على قائمتيه الخلفيتين سيكون أطول منى قامة. وكان لكل منها أسنان كالحراب تمتد خارج فكيه. وبينما كانت تعبر تحتى، وقف واحد من أكبرها، وتشمم الهواء فى كل الاتجاهات. ولابد أنه شعر بوجودى. لكن الحيوانات ذهبت، فنزلت من فوق الشجرة، وفجأة إذا باثنين من الخنازير الضخمة يجريان نحوى. ظلا يطاردانني لحوالى نصف ميل وأنا أبحث عن شجرة لأتسلقها. ومن حسن حظى وجدت واحدة استطعت أن أطلع عليها بقفزة واحدة. توقف الخنزيران وبدآ يهاجمان جذع الشجرة. كانا يخوران عاليا، وعاد باقى القطيع. وبدأت جميعًا تهاجم الشجرة وتحاول قضم الجذع الأسفل. تسلقت إلى أعلى وأعلى. مر بعض الوقت، ثم يئست الحيوانات، وذهبت، فى اللحظة التى بدأ فيها جدجد ينادى الليل ليهبط.

ذات مرة حكت لى جدتى قصة عن صياد خنازير سيئ السمعة كان

يستخدم السحر لتحويل نفسه إلى خنزير برى. وحينئذ يقود القطيع إلى منطقة مكشوفة من الغابة حيث يحول نفسه إلى إنسان مرة أخرى، ويوقع الخنازير فى الفخاخ ويطلق عليها النار. ذات يوم، بينما كان يقوم بخدعته، رأى خنزير صغير الصياد يقضم نباتًا يمكنه من العودة إلى شكله الآدمى. أخبر الخنزير كل رفاقه بما رآه. بحث القطيع فى الغابة عن النبات السحرى ودمروا كل نبتة منه. فى اليوم التالى حول الصياد نفسه إلى خنزير، وقاد القطيع إلى منطقة مكشوفة، لكنه لم يجد النبات الذى يحوله إنسانًا مرة أخرى. وقطعته الخنازير إربًا. ومنذ ذلك اليوم، أصبحت الخنازير البرية لا تثق بكل الناس، وعندما ترى شخصًا فى الغابة، تظن أنه أتى للثأر للصياد.

بعد أن ذهبت الخنازير قمت بمسح المنطقة، نزلت من على الشجرة وأكملت سيرى. كنت أريد أن أبتعد عن المنطقة قبل الفجر، حيث إننى خشيت إن بقيت فيها أن ألتقى بقطيع الخنازير البرية مرة أخرى. سرت طوال الليل وخلال النهار. عند بداية الليلة التالية، رأيت طيور البوم تخرج من مكامنها، تقدح عيونها، وتنشر أجنحتها للتآلف مع البيئة حولها والاستعداد لليل. كنت أسير بسرعة شديدة ولكن بهدوء تام، وفجأة خطوت مصادفة على ذيل ثعبان. بدأ الثعبان يهس وينقض نحوى. جريت بأسرع ما أستطيع لوقت طويل. عندما كنت فى السادسة، أدخل جدى فى جلدى دواء يحمينى من لدغ الثعابين ويمكننى من السيطرة عليها. ولكن ما أن بدأت الذهاب إلى المدرسة، حتى ساورنى الشك فى مدى فاعلية هذا الدواء. وبعد ذلك لم أعد قادرًا على إيقاف الثعابين فى مكانها حتى أمر.

عندما كنت صغيرًا جدًا، كان أبى يقول: «ما دمت حيًّا، فهناك أمل فى يوم أفضل وأن يحدث شىء طيب. فإن لم يكن ثمة شىء طيب باقٍ فى قدر الإنسان، فإنه سوف يموت». فكرت فى هذه الكلمات أثناء رحلتى، وقد

أعطتنى القوة على الحركة حتى عندما كنت لا أعرف إلى أين أنا ذاهب. تلك الكلمات أصبحت القوة الدافعة التى قادت روحى إلى الأمام وأمدتنى بالقدرة على البقاء حيًّا.

كنت قد قضيت أكثر من شهر فى الغابة عندما التقيت بأناس مرة أخرى، أخيرًا. كانت الكائنات الحية التى لقيتها طوال هذا الوقت هى القرود، والثعابين، والخنازير البرية، والغزلان، وكلها لا أستطيع أن أتبادل حديثًا معها. أحيانًا كنت أرقب القرود الصغيرة تتدرب على القفز من شجرة إلى شجرة، أو أراقب العيون القلقة لغزال شعر بوجودى. وأصبحت أصوات أفرع الأشجار التى تطقطق على الأشجار هى موسيقاى. كانت هناك أيام معينة يحدث فيها تكسر أغصان الأشجار إيقاعًا منسجمًا كنت أستمتع به كثيرًا، وكان رجع الصوت يتردد فى الصدى لفترة، ثم يخفت تدريجيًّا ويتلاشى فى أعماق الغابة.

كنت أسير ببطء، أعانى من الجوع وآلام الظهر، والإجهاد، عندما التقيت ببعض الصبية من سنى فى مكان يلتقى فيه طريقان ليصبحا طريقًا واحدًا. كنت أرتدى سروالاً وجدته قبل قليل معلقًا على عمود فى إحدى القرى المهجورة. وكان كبيرًا جدًّا علىّ، ومن ثم فقد ربطته بحبل لكى لا يقع وأنا أسير. وصلنا جميعًا إلى ملتقى الطرق فى نفس الوقت، وما أن رأينا بعضنا حتى تجمدنا من الخوف. وبينما أقف، غير قادر على الجرى، استطعت أن أتعرف على بعض الوجوه وابتسمت لأكسر التوتر والشعور بالارتياب. كانوا ستة صبية، وكان ثلاثة منهم، الحاجى وموسى وكاناى قد سبق لهم حضور الحفل المئوى للمدرسة الثانوية معى فى ماترو يونج. لم يكونوا من أصدقائى المقربين، لكننا نحن الأربعة كنا قد تلقينا عقابًا معًا لأننا رددنا على مدير المدرسة. وكنا نومئ برءوسنا لبعضنا البعض عندما

نلتقى بعد ذلك العقاب الذى كنا متفقين على أنه لم يكن ضروريًا. تبادلنا المصافحة أنا وهم.

* * *

كنت أستطيع معرفة قبيلة كل واحد عن طريق ملامحهم والعلامات على خدودهم. كان الحاجى وسيدو من قبيلة «تِمْنِى»، وكان كاناى وجوما وموسى، وموريبا من «المندى». أخبرونى أنهم يتجهون إلى قرية تسمى «يالى» فى مقاطعة «بونثيه»، والتى سمعوا أنها آمنة لأنها محتلة من قبل القوات المسلحة السيراليونية.

تبعتهم بهدوء وأنا أحاول أن أتذكر كل أسمائهم، خاصة أسماء الوجوه التى أعرفها بينهم. سرت فى الخلف، جاعلاً مسافة قليلة بيننا. وبدأت أدرك إلى أى مدى أشعر بعدم الارتياح فى وجود بشر آخرين. سألنى كاناى، والذى كان أكبر قليلاً، ربما فى السادسة عشرة، أين كنت. ابتسمت ولم أجب. فربت على كتفى وكأنه يعرف ما مررت به. وقال: «سوف تتغير الظروف، وسيكون كل شىء على ما يرام، فقط احتمل أكثر قليلاً»، وربت على كتفى مرة أخرى وأومأ برأسه. رددت عليه بابتسامة.

مرة أخرى وجدت نفسى مع مجموعة من الصبية، وهذه المرة كنا سبعة. كنت أعرف أن هذا سيكون مشكلة، لكنى لم أرد أن أكون وحدى مرة أخرى. لقد حل الخوف محل براءتنا، وأصبحنا وحوشًا. لم يكن هناك ما نستطيع فعله إزاء ذلك. أحيانًا كنا نجرى خلف الناس صائحين أننا لسنا ما يظنون، لكن هذا كان يجعلهم أكثر ذعرًا. كنا نتمنى أن نسأل الناس عن الاتجاهات. ولكن هذا كان مستحيلاً.

كنا قد سرنا لأكثر من ستة أيام عندما التقينا برجل عجوز للغاية يسير

بالكاد. كان جالسًا فى شرفة بيت فى وسط القرية. وكان وجهه شديد التغضن حتى تَعْجَبَ أنه لا يزال حيًّا، إلا أن بشرته السوداء كانت لامعة، وكان يتحدث ببطء، ويزدرد الكلمات بين فكيه قبل أن يتركها تخرج. وبينما كان يتحدث، كانت العروق فى مقدمة رأسه تنفر تحت الجلد.

قال: «هرب الجميع عندما سمعوا أن «سبعة أولاد فى الطريق إلى هنا. لكنى لم أستطع الجرى. فتركونى. لم يكن أحد مستعدًا لحملى، ولم أكن أريد أن أكون عبئًا عليهم».

شرحنا له من أين نحن وأين نريد الذهاب. سألنا أن نبقى قليلاً فى صحبته.

وقال: «لابد أنكم جائعون يا شباب. يوجد بعض البطاطا فى الكوخ الذى هناك. هل يمكنكم أن تطهوا بعضها لى ولكم؟». وعندما كدنا ننتهى من أكل البطاطا، قال ببطء: «يا أولادى، هذا البلد فقد قلبه الطيب. الناس لم يعودوا يثقون ببعضهم. منذ سنوات، كان يمكن أن تجدوا ترحيبًا حارًا فى هذه القرية. أتمنى أن تستطيعوا أن تجدوا الأمان قبل أن يتسبب هذا الخوف والارتياب فى دفع أحد إلى إيذائكم».

ورسم خريطة على الأرض بعصاه. وقال: «هذا هو الطريق إلى «يالى».

سأل كاناى الرجل العجوز: «ما اسمك؟»

ابتسم وكأنه كان يعرف أن أحدنا سوف يسأل هذا السؤال. «لا حاجة بكم لمعرفة اسمى. فقط اذكرونى، عند وصولكم إلى القرية التالية، بالرجل العجوز الذى تركه الناس وهربوا». كان ينظر إلى وجوهنا ويتحدث بنعومة، ولم يكن فى صوته رنة حزن.

«لن أعيش حتى أرى نهاية هذه الحرب. ولهذا فلن أخبركم باسمى،

حتى توفروا مكانًا فى ذاكرتكم لأشياء أخرى. فإن كنتم أحياء عند نهاية هذه الحرب، اذكرونى فقط بأننى الرجل العجوز الذى التقيتم به. هيا يا شباب، آن الأوان لتتابعوا طريقكم». وأشار بعصاه نحو الطريق الممتد أمامنا. وبينما سرنا مبتعدين، محا الخريطة بقدمه، ولوح لنا برفع يده اليمنى وإيماءة. وقبل أن تختفى القرية عن أنظارنا، التفت حولى لألقى نظرة أخيرة على الرجل العجوز، كانت رأسه محنيَّة ويداه مستندتان على عصاه. وأدركت أنه كان يعرف أن أيامه شارفت على نهايتها، وأنه لم يكن يأبه لنفسه، لكنه كان يخشى علينا.

* * *

أطلق أحدهم إشاعة عن «الأولاد السبعة»، نحن. أثناء رحلتنا كثيرًا ما وجدنا أنفسنا محاطين برجال أشداء يحملون مناجل وعلى وشك أن يقتلونا قبل أن يكتشفوا أننا مجرد أولاد هاربين من الحرب. أحيانًا كنت أنظر إلى شفرات المناجل وأفكر كم يكون مؤلمًا لو قطعنى أحدها. وفى أحيان أخرى كنت جائعًا وتعبًا حتى أكاد لا أبالى. فى القرى المزدحمة التى كنا أحيانًا نتوقف فيها لقضاء الليل، كان الرجال يظلون ساهرين لكى يراقبونا. وعندما كنا نذهب إلى النهر لغسل وجوهنا، كانت الأمهات يمسكن بأطفالهن، ويجرون إلى البيت.

(٩)

ذات صباح، بمجرد أن تجاوزنا قرية مهجورة، بدأنا فى سماع صوت يشبه هدير محركات ضخمة ودحرجة طبول معدنية على طريق أسفلتى، ودوى أشبه بالرعد، يقرع المرة تلو المرة. وصلت كل تلك الأصوات إلى آذاننا فى وقت واحد. أسرعنا بالانحراف عن الطريق ونحن نجرى نحو الأحراش، وانبطحنا أرضًا. نظر كل منا إلى الآخرين، لعلنا نجد تفسيرًا لهذا الصوت الغريب. حتى كاناى، الذى كنا أحيانًا نجد لديه بعض الإجابات، لم يستطع أن يخبرنا ماذا نسمع. نظرنا جميعًا إليه، وكانت قسمات وجهه تنم عن الحيرة.

همس كاناى: «يجب أن نكتشف مصدر هذا الصوت، وإلا فلن نستطيع أن نمضى إلى «يالى»، وبدأ فى الزحف ببطء نحو الصوت. وتبعناه ونحن نجر أجسادنا فوق أوراق النباتات المعطنة. ولما اقتربنا، اشتد الصوت، وهبت رياح شديدة هزت الأشجار من فوقنا. واستطعنا أن نرى بوضوح السماء الزرقاء ولا شىء آخر. جلس كاناى متحيرًا على كعبيه، وألقى نظرة عامة على المنطقة.

«لا أرى سوى مياه، الكثير جدًّا منها، ورمال، الكثير جدًّا منها»، كان كاناى لا يزال ينظر، وسأل الحاجى: «ما الذى يُحدث الضجيج إذن؟»

أجاب كاناى: «كل ما أستطيع أن أراه هو المياه والرمال». ثم لوح إلينا بيده لنقترب وننظر. جلسنا على كعوبنا للحظة ننظر فى اتجاهات مختلفة، محاولين أن نكتشف مصدر الصوت. وزحف كاناى دون أن يقول لنا شيئًا خارج الشجيرات، وبدأ فى المشى على الرمال متجهًا إلى المياه.

كان ذلك هو المحيط الأطلنطى. وكان ما سمعناه هو أصوات تلك الأمواج ترتطم بالشاطئ، كنت قد رأيت أجزاء من المحيط ولكنى لم أقف أبدًا على شاطئ بهذا الاتساع، كان يمتد متجاوزًا أقصى ما يمكن أن يصل إليه بصرى. كانت السماء أكثر زرقة بكثير، وبدا كأنها تنحنى إلى أسفل وتلتقى بالمحيط عند الأفق. اتسعت عيناى وارتسمت ابتسامة على وجهى. حتى فى وسط الجنون لا يزال هناك هذا الجمال الطبيعى والحقيقى، والذى سلب عقلى وأبعده عن حالتى الراهنة وأنا أقف مذهولاً أمام هذا المنظر الخلاب.

اقتربنا وجلسنا على حافة الرمال، ورحنا نُحدِّق إلى المحيط متعجبين من حركة الموج المتعاقبة. كانت الأمواج تأتى فى ثلاث طيات، الأولى صغيرة، ولكنها قوية بما يكفى لجعل شخص يتعثر. وكانت الثانية عالية وأكثر قوة من الأولى. وكانت الثالثة باهرة. فهى تلتف وترتفع عاليًا وهى تتقدم نحو حافة الشاطئ. جرينا بعيدًا عن المكان الذى كنا نجلس فيه، فقد ضربت الموجة الشاطئ بشدة جعلت الرمال تتطاير عاليًا فى الهواء. ثم عدنا لننظر إلى الأمواج فوجدناها ألقت بعض المخلفات على الشاطئ. كان بينها بعض سرطانات البحر الكبيرة، التى أظن أنها لم تكن لديها القوة الكافية لتلتصق بقاع المحيط، ولكنها كانت لا تزال حية.

كان السير هادئًا فوق الرمال. حيث لم نكن نتوقع أن نواجه متاعب فى هذا الجزء من البلاد. تصارعنا وطارد بعضنا البعض فوق الرمال،

ومارسنا ألعاب الشقلبة والجرى. حتى إننا كورنا قميص الحاجى القديم وربطنا حوله حبلاً لنلعب به كرة القدم. ثم لعبنا مباراة، وكلما سجل أحدنا هدفًا، كان يحتفل برقصة السوكو[1]. كنا نصيح ونضحك ونغنى الأغانى التى تعلمناها فى المدرسة الثانوية.

بدأنا السير فوق الشاطئ الرملى فى الصباح الباكر وشاهدنا شروق الشمس. وفى الظهيرة رأينا مجموعة من الأكواخ أمامنا، وتسابقنا نحوها. ولما وصلنا إلى هناك أصابنا القلق فجأة. لم يكن هناك أحد فى القرية. كانت هناك عدة هاونات فوق الرمال، يتناثر منها الأرز وصفائح يتسرب منها الماء. وتُركت نيران الطهى تحت سقيفة أكواخ الطهى بلا خدمة. ظننا فى البداية أنه ربما كان المتمردون هنا. وقبل أن نفكر فى أى شىء آخر وثب من خلف الأكواخ صيادو سمك يحملون المناجل ورماح الصيد والشباك فى أيديهم. أصبنا بصدمة عنيفة من جراء هذا الضجيج المفاجئ، جعلتنا غير قادرين على الجرى. وبدلاً من ذلك صحنا: «نرجوكم، لا أذى منا، كنا مارين فحسب»، وبكل اللغات المحلية الثمانية عشرة التى يعرفها كل منا. إلا أن الصيادين لطمونا بالحواف غير الحادة لأسلحتهم حتى سقطنا على الأرض. ثم جلسوا فوقنا وربطوا أيادينا واقتادونا إلى زعيمهم.

كان القرويون قد سمعوا إشاعة تقول إن بعض الشباب الذين يُعتقد أنهم من المتمردين فى الطريق إليهم. وحين سمعوا ذلك، سلحوا أنفسهم واختبأوا منتظرين للدفاع عن مساكنهم وحماية عائلاتهم. ولم يكن ينبغى أن يمثل ذلك صدمة كبيرة لنا، ولكننا لم نتوقع أن يحدث ذلك هنا، حيث

---

(١) نشأت موسيقى السوكو soukous فى الكونغو فى سنوات ١٩٣٠ و١٩٤٠ من أصول موسيقية شعبية أفريقية، وانتشرت فى السبعينيات والثمانينيات فى شرق أفريقيا، واتصلت بها رقصة خاصة عرفت برقصة السوكو، وأحيانًا كانت تسمى الرومبا الأفريقية [المترجمة].

كنا نعتقد أننا بعيدون تمامًا عن الضرر. سألونا عدة أسئلة تدور حول من أين نحن؟ وإلى أين كنا ذاهبين؟ ولماذا اخترنا هذا الاتجاه؟ حاول الحاجى ـ أطول شخص بيننا وأحيانًا يُظن أنه الأكبر سنًا ـ أن يشرح للزعيم أننا كنا فقط مارين بالمكان. وفيما بعد نزع الرجال الأحذية البالية من حول أقدامنا، وحلوا وثاقنا وطردونا خارج قريتهم، ملوحين بحرابهم ومناجلهم وهم يصرخون من خلفنا.

لم نكن ندرك نوع العقاب الذى أنزله بنا الصيادون حتى توقفنا عن الجرى بعيدًا عن قريتهم. كانت الشمس فى منتصف السماء، وكانت درجة الحرارة تزيد على ٤٨ درجة مئوية، وكنا حفاة الأقدام. كانت الرطوبة بجوار البحر أقل منها بالداخل، ولكن نظرًا لأنه لم تكن هناك أشجار تمد ظلالها على الأرض، فقد تخللت الشمس الرمال فجعلتها ساخنة وغير ثابتة. كان السير بأقدام حافية فوق الرمال مثل السير فوق طريق أسفلتى ساخن. كانت الوسيلة الوحيدة للفرار من الآلام هى أن نواصل السير ونأمل فى حدوث معجزة. لم نكن نستطيع السير فى المياه أو الرمال المبتلة بالقرب من حافتها. حيث كان هناك عمق كبير بين المكان الذى نسير فيه وبين منطقة التقاء المياه باليابسة، وكانت الأمواج تشكل خطورة. وبعد أن ظللت أبكى لعدة ساعات تخدرت قدماى وفقدت الحس. واصلت السير ولكنى لم أكن أشعر بباطن قدمى.

* * *

سرنا فوق الرمال الحارة الحارقة حتى الغروب. لم أشعر فى حياتى بالتوق لانتهاء يوم مثلما كنت ذلك اليوم. وكنت أظن أن الوصول إلى لحظة الغروب سوف يشفى آلامى. ولكن فى الوقت الذى خمدت فيه الحرارة، انتهت أيضًا حالة التخدر التى كانت فى قدمىّ، فكلما رفعت إحداهما من

فوق الأرض ضاقت فيها العروق وشعرت بحبيبات الرمل تحفر أخمص قدميّ الداميتين. كانت الأميال القليلة التالية طويلة جدًّا حتى اعتقدت أننى لن أكون قادرًا على اجتيازها. تصببت عرقًا وارتجف جسدى من الألم. فى النهاية وصلنا إلى كوخ كان فوق الرمال. لم يكن أى منا قادرًا على الكلام. دخلنا الكوخ وجلسنا على عروق خشبية حول مستوقد نار. كانت عيناى بهما دموع، ولكنى لم أكن قادرًا على البكاء أو إصدار أى صوت بسبب شدة الظمأ. نظرت حولى لأرى وجوه رفقاء رحلتى. كانوا أيضًا يبكون، بدون صوت. نظرت مترددًا تحت قدمى، كانت قطع اللحم المتقشرة متدلية وكتل من الدم المتخثر وحبيبات الرمل ملتصقة بكل قطعة معلقة من الجلد. وبدا وكأن شخصًا استخدم مشرطًا لقطع لحم باطن قدميّ من الكعب وحتى الأصابع. نظرت إلى السماء محبطًا من خلال ثقب ضيق فى السقف القشى، محاولاً عدم التفكير فى قدميّ. وأثناء جلوسنا فى صمت حضر الرجل مالك الكوخ الذى كنا نحتله. وقف عند الباب، وكان على وشك الالتفاف والعودة عندما لاحظ معاناتنا. التقت عيناه بوجوهنا الخائفة. وكان موسى قد رفع قدمه توًّا محاولاً إزالة الرمال من لحمه. وكان بقيتنا يمسك بركبتيه حتى لا تلمس أقدامنا الأرض. أشار الرجل لموسى أن يتوقف عما كان يوشك أن يفعله وهز رأسه وانصرف.

بعد دقائق قليلة عاد، حاملاً سلة مليئة بنوع من الأعشاب. وبهدوء أشعل نارًا وسخن الأعشاب ثم وضعها أسفل كل قدم من أقدامنا. تصاعد البخار من الأعشاب إلى أسفل أقدامنا، وتناقص الألم تدريجيًّا. وانصرف الرجل دون أن يقول شيئًا.

وعاد فيما بعد ومعه حساء وسمك مقلى وأرز ودلو ماء. وضع الطعام أمامنا مشيرًا إلينا لنأكل. ثم اختفى مرة أخرى، وعاد بعد دقائق وعلى وجهه هذه المرة ابتسامة عريضة، وكان يحمل فوق كتفه شبكة صيد وزوجًا من المجاديف وكشافًا كهربائيًّا.

«لابد وأنكم تشعرون بتحسن»، ولم ينتظر سماع ما إذا كنا نشعر بتحسن أو لا، بل واصل كلامه ليخبرنا أين نجد حصيرًا للنوم، وأنه سيذهب للصيد ويعود فى الصباح. ولم يزعج نفسه بالسؤال عن أسمائنا. وظننت أنه اعتقد أن ذلك لم يكن ضروريًّا أو مهمًّا فى تلك اللحظة. وقبل أن يذهب أعطانا مرهمًا لوضعه على أقدامنا، وشدد على ضرورة وضعه قبل النوم. قضينا تلك الليلة فى هدوء تام، لم ينبس أحدنا بكلمة واحدة.

فى الصباح التالى جاء مضيفنا الذى لم نعرف اسمه يحمل طعامًا وابتسامة على وجهه. وقال إنه مسرور لأننا أفضل حالاً. لم نكن نستطيع أن نمشى جيدًا. لذلك كنا بالكاد نعرج حول الكوخ ونمازح بعضنا البعض حتى لا نشعر بالضجر.

تباهى كاناى بأنه كان لاعب كرة قدم ماهر. وقذفه موسى بقشرة فول سودانى، وحرك كاناى قدمه ليركلها، ولكنه أدرك أنها ستؤلمه فأعادها على نحو مفاجئ فاحتكت بحجر. وراح ينفخ فيها متألمًا.

قال موسى وهو يضحك: «أى نوع من لاعبى كرة القدم تأمل أن تكون إذا كنت خائفًا أن تركل قشرة فول سودانى؟» وتدريجيًّا بدأنا نضحك جميعًا.

كان لموسى وجه مستدير، وكان قصيرًا وبدينًا، وله أذنان صغيرتان جدًّا ومستديرتان تلائمان وجهه. وكانت عيناه كبيرتين تبدوان وكأنهما تريدان ترك وجهه، وكلما أراد أن يقنعنا بشيء كانت عيناه تلمعان.

وكان لكاناى وجه طويل هادئ، وعلى عكس موسى كان نحيفًا وله شعر قصير شديد السواد كان يحظى بنصيب عظيم من اهتمامه كل صباح، أو كلما توقفنا عند نهر أو مجرى مائى، كان يضع الماء على رأسه ويأخذ الوقت الكافى للعناية به وتنظيمه. وكان الحاجى يسأله وهو يقهقه: «هل

أنت ذاهب لمقابلة فتاة فى مكان ما؟!» وكان كاناى بصوته الناعم والواثق فى نفس الوقت يبدو أنه يعرف ما يقول دائمًا، وكيف يتعامل فى مواقف معينة أفضل من بقيتنا.

كلما تحدث الحاجى كان يستخدم إيماءات متقنة. وكأنه كان يريد أن تمتد يداه الطويلتان بالفعل لتصلا إلى من يحدثه، أيًا كان. وكان طويلاً وهزيل الجسم. وكان وجوما صديقين. كانا دائمًا يسيران متجاورين. وكان جوما دائمًا يومئ برأسه موافقًا على ما يقوله له الحاجى ونحن سائرون. كان جوما يستخدم رأسه للإيماء أكثر من يديه. وكلما تحدث لوَّح برأسه يُمنة ويُسرة. وكان يضع يديه متقاطعتين خلف ظهره معظم الوقت، مثل رجل عجوز.

كان سيدو وموريبا فى مثل هدوئى، تقريبًا. وكانا دائمًا يجلسان متجاورين، بعيدًا عن المجموعة. كان سيدو يلهث بشدة ونحن نسير، وكانت أذناه كبيرتين، وعندما ينصت تقفان مثل أذنى الغزال. وكان موريبا دائمًا يقول له إنه لابد يتمتع بقدرة سمع إضافية. وكان موريبا فى أغلب الوقت يلعب بيديه متفحصًا الخطوط الموجودة على راحة يده، ويفرك أصابعه وهو يهمس لنفسه.

كنت أنا لا أتحدث إلا لمامًا.

كنت أعرف الحاجى وكاناى وموسى من مدرستى الثانوية السابقة. ولم نتبادل الحديث كثيرًا عن ماضى حياتنا، وعلى الأخص عن عائلاتنا. وكانت المحادثات القليلة التى تجرى بيننا ولا تتعلق برحلتنا غالبًا ما تدور حول كرة القدم والمدرسة قبل أن نستأنف صمتنا.

* * *

فى الليلة الرابعة خمدت الآلام الشديدة فى أقدامنا. وخرجنا للتمشية

حول الكوخ، وأثناء الجولة اكتشفت أن الكوخ على بعد نحو نصف ميل فقط من القرية الأم؛ وفى الليل استطعنا رؤية الدخان يتصاعد من أكواخ الطهى الصغيرة بالقرية.

بقينا فى الكوخ أسبوعًا، كان مضيفنا يحضر لنا ماء وطعامًا كل صباح ومساء. كانت له أسنان بيضاء ناصعة لم أر لها مثيلاً، وكان لا يرتدى قميصًا طول الوقت. وأحيانًا عندما كان يأتى ليتفحصنا فى الصباح كان يمضغ النسغ فى فمه. سألته ذات صباح عن اسمه، فضحك برقة وقال: «ليس ضروريًّا، وبهذه الطريقة سنكون جميعًا آمنين».

فى الليلة التالية قرر مضيفنا أن يصحبنا إلى المنطقة القريبة من المحيط الأطلنطى. وأثناء سيرنا معه جرت محادثة بيننا. وعلمنا أنه من قبيلة «شيربرو»، إحدى القبائل العديدة فى سيراليون. وعندما سمع قصصنا، وكيف سرنا من ماترو يونج، لم يستطع أن يصدق. قال إنه سمع عن الحرب، ولكنه لا يزال يجد صعوبة فى تصديق أن الناس يمكن أن يفعلوا الأشياء التى سمع عنها. وُلد مضيفنا فى القرية الأم ولم يغادرها أبدًا. كان التجار يأتون إلى قريته بالملابس والأرز، ومواد الطهى الأخرى ويقايضونها مقابل الملح والسمك، لذلك لم يكن بحاجة للذهاب إلى أى مكان. وأظن أنه كان فى أوائل العشرينيات من عمره، إن كان لى أن أخمن. قال إنه سيتزوج فى الشهر التالى وأنه يتطلع بشدة إلى هذا الزواج. سألته لماذا كان كوخه بعيدًا عن القرية، فشرح أنه كوخ الصيد الخاص به، والذى يحتفظ فيه بشباكه وأدوات الصيد الأخرى، ويقوم فيه بتجفيف الأسماك خلال موسم الأمطار.

عندما وصلنا إلى المحيط سرنا إلى خليج صغير لم تكن المياه فيه عنيفة. جلسنا على الشاطئ، قال لنا: «ضعوا أقدامكم فى المياه وبللوها بالمياه

المالحة»، وشرح أن المياه المالحة طيبة لشفاء الألم وتحول دون الإصابة بالتيتانوس. وجلس مضيفنا جانبًا ينظر إلينا، وكلما نظرت إليه كان يبتسم وتظهر أسنانه البيضاء الناصعة متباينة مع وجهه الداكن. كان النسيم الجاف القادم من المناطق الداخلية والمصحوب بهواء المحيط البارد لطيفًا جدًّا. كانت لدى رغبة جامحة لمعرفة اسمه، ولكنى كبحت نفسى.

قال: «يجب عليكم أيها الأولاد أن تأتوا إلى هنا كل ليلة لوضع أقدامكم فى المحيط، وبذلك يمكنكم أن تبرأوا تمامًا خلال أقل من أسبوع».

نظر إلى السماء حيث بدأت النجوم تختفى خلف سحب كثيفة سريعة الحركة. وقال: «لابد أن أذهب لأعتنى بزورقى، فسرعان ما تمطر السماء، ولذلك لابد أن تعودوا إلى الكوخ». وبدأ يجرى فوق الرمال نحو القرية الأم.

قال الحاجى: «أتمنى لو كنت ذلك الرجل، إنه فقط سعيد ومطمئن وراضٍ عن حياته».

وقال كاناى برقة: «إنه لطيف جدًّا، إنى أريد حقًّا أن أعرف اسمه».

«نعم، نعم». وافقنا جميعًا على رأى كاناى، ثم تاه كل منا فى أفكاره الخاصة، والتى قطعها سقوط مفاجئ لأمطار غزيرة. لم ننصت إلى نصيحة مضيفنا، فلم ننصرف عندما قال لنا ذلك. أسرعنا إلى الكوخ، وهناك جلسنا حول النار لتجفيف أنفسنا وتناولنا السمك المجفف.

* * *

أمضينا مع مضيفنا أسبوعين، وكنا نشعر بتحسن عندما جاءت سيدة عجوز إلى الكوخ ذات صباح فى ساعة مبكرة جدًّا. وأيقظتنا وطلبت منا أن ننصرف فورًا. وقالت إنها أم مضيفنا، وأن الأهالى فى القرية اكتشفوا

وجودنا وهم فى طريقهم لأسرنا. ومن الطريقة التى تحدثت بها أدركت أنها كانت تعلم عنا كل شىء. أحضرت معها سمكًا مجففًا وماء عذبًا لنأخذه معنا فى رحلتنا. لم يكن لدينا وقت لنشكرها أو لنعبر عن شكرنا لابنها على ضيافته الكريمة. إلا أنه كان واضحًا مما قالته أنها كانت تعلم مدى الامتنان الذى نشعر به، ولكنها كانت مهتمة بسلامتنا أكثر من أى شىء آخر.

«يجب أن تسرعوا الآن يا أولادى، أدعو الله أن يحفظكم»، كان صوتها مرتجفًا وحزينًا. ومسحت وجهها الحزين قبل أن تتوارى خلف الكوخ فى طريقها عائدة إلى القرية.

ولم نكن بالسرعة الكافية التى تمكننا من الفرار من هؤلاء الرجال. فقد جرى اثنا عشر رجلاً منهم خلفنا نحن السبعة، ودفعونا إلى الرمال وأوثقوا أيدينا.

والواقع أننى عندما أدركت أنهم سيمسكون بى فى النهاية، توقفت عن الجرى وقدمت لهم يدى ليوثقوها. فوجئ الرجل الذى كان يتعقبنى. فاقترب منى فى حذر وأشار إلى رجل آخر كان يمشى خلفى بعصاه ومديته ليكون على حذر. وأثناء قيام الرجل بتقييد يدى، تبادلنا نظرة لثوان قليلة. فتحت عينى على اتساعهما، فى محاولة منى لأن يفهم أنى مجرد صبى فى الثانية عشرة من عمره. ولكن شيئًا ما فى عينيه أكد لى أن سلامتى لا تعنيه، ولكن ما يعنيه هو سلامته وسلامة قريته.

اقتادنا الرجال إلى قريتهم، وأجلسونا على الرمال أمام زعيمهم. لقد مررت بمثل هذا الموقف من قبل، وتساءلت فى نفسى إن كانت تلك تجربة جديدة بالنسبة لرفاقى الحاليين. كانوا جميعًا يلهثون وهم يحاولون كبح أنفسهم عن البكاء. بدأت أقلق، لأن آخر مرة وجدت شخصًا بالقرية كان يذهب معنا إلى المدرسة وأنقذنا. وهذه المرة كنا بعيدين جدًّا عن ماترو يونج، مسافة طويلة قطعناها.

كان معظم الرجال لا يرتدون قمصانًا، ولكن الزعيم كان رداؤه أنيقًا. كان يرتدى ملابس قطنية تقليدية ذات تصميم معقد على الياقة من الخيوط الصفراء والبنية، تتعرج عموديًّا حتى صدره. وبدا نعله الجلدى البنى جديدًا. وكان يحمل عصا نقشت عليها طيور وزوارق وكل أنواع الحيوانات، وعلى مقبضها رأس أسد. تفحصنا الزعيم للحظة، وعندما التقت عيناه بعينىّ ابتسمت له نصف ابتسامة، والتى قابلها ببصق جوزة الكولا التى كان يمضغها من فمه. كان أجش الصوت.

«لقد أصبحتم أيها الغلمان شياطين صغيرة، ولكنكم أخطأتم حين جئتم إلى هذه القرية». كان يستخدم عصاه للإيماء بدلاً من يديه. «حسنًا، هذه نهاية الطريق لشياطين أمثالكم. هناك فى المحيط، حيث لا يستطيع أحد البقاء على قيد الحياة، حتى أنتم أيها الأوغاد.»

قال بلهجة آمرة للرجال الذين كانوا يمسكون بنا: «جردوهم من ملابسهم». كنت أرتعد من الخوف، ولكنى لم أستطع البكاء. حاول الحاجى الذى كان يتلعثم من الرعب أن يقول شيئًا ما، ولكن الزعيم ركل بقدمه جانب الكرسى الذى كان يجلس عليه وقال: «لا أريد أن أسمع أى كلمة من أى شيطان منكم».

كان مضيفنا الذى لم نكن نعلم اسمه وأمه واقفين بين الحشد. كانت أمه تضغط على يده فى كل مرة ينادينا الزعيم فيها بالشياطين أو يصرخ فى وجوهنا، وأثناء تجريدى من ملابسى سقطت من جيوبى شرائط الكاسيت التى تحمل موسيقى الراب. فالتقطها الرجل الذى كان ينزع ملابسى وسلمها إلى الزعيم. نظر الزعيم عن قرب إلى الأوجه التى كانت على أغلفة علب شرائط الكاسيت، وتفحص بعناية غلاف شريط «نوتى باى ناتشور(Naugthy By Nature)» (مشاكس بالفطرة) عدة مرات، ناظرًا إلى

وقفة المحارب والتعبير الصارم على وجوه الفتيان الثلاثة الواقفين فوق صخور مكسورة، وصورة عمود إنارة فى الخلفية، متحيرًا من أوضاعهم. وطلب إحضار آلة تشغيل شرائط. وقال أحد الرجال للزعيم إن الوسيلة الوحيدة التى يمكن أن نحوز بها مثل تلك الشرائط الأجنبية هى إما أن نكون قد استولينا عليها، أو نكون مرتزقة. ومن المحتمل أن يكون الزعيم قد اقتنع بالرأى الأول، ولكنه لم يوافق على الرأى الثانى، حيث إنها كانت فكرة غبية تمامًا.

«هؤلاء الفتيان ليسوا مرتزقة، انظر إليهم».

عاد الزعيم إلى معاينة الشرائط. سررت قليلاً لأنه دعانا «فتيان» وتراجع عن كلمة «شياطين». ولكنى كنت غير مستريح على الإطلاق وأنا أجلس عاريًا على الرمال. لم تكن تجربة سارة. كان مجرد التفكير فيها يحدث كافيًا لإثارة اضطرابى. وجاهدت نفسى بصعوبة لجعل وجهى يبدى عكس ما أشعر. كانت عضلات وجهى تنتفض ونحن فى انتظار أن يهبنا الزعيم الحياة أو الموت.

وعندما أحضر جهاز الكاسيت، وضع الزعيم فيه شريطًا وضغط على مفتاح التشغيل.

«أو بى بى»، كيف يمكننى أن أشرح

سوف نأخذكم صورة صورة، حتى نفهمها

لأجعلكم جميعًا تقفزون راقصين، سوف نغنيها

«أو» تعنى الآخر، «بى» تعنى الناس....

أنصت الجميع بانتباه، وقد رفعوا حواجبهم دهشة، وانتصبت رءوسهم انتباهًا وهم يحاولون فهم أى نوع من الموسيقى هذه. أوقف الزعيم

الموسيقى على نحو مفاجئ. كان بعض القرويين متكئين أمام أكواخهم الطينية المستديرة. وجلس البعض الآخر على الأرض أو على الهاونات. وشمَّر الرجال سيقان سراويلهم القطنية، وعدلت النساء دثاراتهن، بينما راح الأطفال يحدقون فينا وهم يضعون أيديهم فى جيوبهم أو فى أنوفهم المرتشحة.

أصدر الزعيم أوامره: «أوقفوه وأحضروه إلى هنا».

وعندما تم إحضارى بالقرب منه سألنى من أين حصلت على هذا النوع من الموسيقى، وما الغرض من امتلاكها؟ شرحت له أنها تسمى موسيقى الراب، وأننى وأخى وأصدقائى ـ ليس هؤلاء الذين معى ـ تعودنا أن نستمع إلى هذه الموسيقى ونغنى هذه الأغانى ونحن نرقص فى حفلات استعراض المواهب. ويبدو أنه وجد ذلك شيئًا شيقًا، حيث بدأ وجهه يسترخى. طلب من الرجال فك وثاقى وأعطانى سروالى.

وقال الزعيم: «والآن أرنى كيف كنت تفعل ذلك أنت وأخوك وأصدقاؤك».

قمت بتشغيل المسجل، ثم بدأت فى الغناء والرقص على أغنية «أو بى بى»، حافى القدمين على الرمال. لم أشعر باستمتاع بأدائها هذه المرة، فلأول مرة وجدت نفسى أفكر فى كلمات الأغنية، وأحاول الاستماع إلى الآلات التى تعزف مع الإيقاع. ولم أفعل مثل ذلك من قبل لأننى كنت أحفظ الكلمات عن ظهر قلب وأشعر بدوى الإيقاع. لكنى لم أشعر به هذه المرة. فبينما كنت أقفز إلى أعلى وأسفل وأنحنى وأرفع ذراعىّ وقدمىّ مع الموسيقى، كنت أفكر فى أننا سيتم إلقاؤنا فى المحيط وفى أنه من الصعب للغاية أن نكون على يقين بأن الموت حتمى. بدأت الغضون على وجه الزعيم تنبسط، لكنه لم يبتسم، وإنما تنهد بطريقة توضح أنه عرف أننى

مجرد طفل. وعند نهاية الأغنية فرك لحيته وقال إنه تأثر برقصى، ووجد الغناء «ممتعًا». وطلب تشغيل الشريط الثانى. كان شريطًا للمغنى ل.ل. كول جى. وقمت بالرقص والغناء مع أغنية «أحتاج حبًّا».

عندما أكون بمفردى فى غرفتى أحملق أحيانًا فى الجدار.

وفى أعماق عقلى، أسمع نداء الضمير.

كان الزعيم يحول رأسه من جانب إلى آخر وكأنه يحاول أن يفهم ماذا أقول. وكنت أراقبه لأرى ما إذا كان وجهه سيتغير إلى الأسوأ، ولكن بدا على وجهه شعور فكه، للحظات. ثم أمر بحل وثاق كل أصدقائى وإعطائهم ملابسهم. وشرح الزعيم للجميع أنه كان هناك سوء فهم، وأننا مجرد أطفال نبحث عن الأمان. وأراد أن يعرف إذا كنا قد مكثنا فى الكوخ من أنفسنا أو أن المالك كان يعرف. قلت له إننا مكثنا هناك من أنفسنا وإننا لم نتصل بأحد حتى ذلك الصباح. وقال لنا الزعيم إنه سيدعنا نذهب، ولكن لابد أن نترك المنطقة فورًا. وأعاد إلىّ شرائطى، وانطلقنا فى طريقنا. وأثناء مسيرنا كنا نتفحص العلامات التى تركتها الحبال على معاصمنا ونضحك مما حدث، حتى نتفادى أن ننفجر فى البكاء.

(١٠)

من الأشياء التى أشعرتنى فى رحلتى بالقلق والاضطراب عقليًّا وبدنيًّا وعاطفيًّا أننى لم أكن متأكدًا متى وأين تنتهى. لم أكن أعلم ماذا سأفعل بحياتى. شعرت أن حياتى تبدأ من جديد مرارًا وتكرارًا. دائماً فى حالة انتقال، دائماً ذاهب إلى مكان ما. كنت أحيانًا أتلكأ أثناء سيرنا، متفكرًا فى هذه الأشياء. كان هدفى فى الحياة هو البقاء حيًّا فى كل يوم يمر. وفى القرى التى استطعنا أن نجد فيها بعض السعادة بسبب حصولنا على طعام أو ماء، كنت أعلم أن هذا الوضع مؤقت، وأننا مجرد عابرى سبيل. ولذلك لم أستطع أن أشعر بسعادة كاملة. كان البقاء فى حالة حزن أسهل كثيرًا من الانتقال ذهابًا وإيابًا بين الانفعالات المتباينة، وكان هذا يعطينى العزم الذى أحتاجه لمواصلة الحركة. لم أشعر أبدًا بخيبة الأمل، حيث كنت دائماً أتوقع حدوث الأسوأ. مرت علينا ليالٍ لم أستطع فيها النوم، وكنت أحدق فى الظلام حتى تستطيع عيناى أن ترى بوضوح خلاله. كنت أفكر أين كانت عائلتى وما إذا كانوا لا يزالون أحياء.

* * *

فى إحدى الليالى، بينما كنت جالسًا فى ساحة إحدى القرى أفكر فى كم كنت بعيدًا عن بلدتى، وماذا يمكن أن يحدث فى المستقبل، نظرت إلى

السماء، ورأيت كيف كانت السحب الكثيفة مستمرة فى محاولاتها لإخفاء القمر، لكن القمر كان يعاود الظهور المرة بعد المرة ليضىء الليل كله. وكانت رحلتى تشبه بطريقة ما رحلة ذلك القمر ـ على الرغم من أن سحبًا أكثر كثافة كانت تعترض طريقى لتجعل عزيمتى تفتر. تذكرت شيئًا قاله سيدو ذات ليلة بعد نجاتنا من هجوم آخر لرجال يحملون فئوسًا وحرابًا. كان جوما وموريبا وموسى نائمين فى الشرفة التى نشغلها. وكنت أنا والحاجى وكاناى وسيدو مستيقظين نستمع فى هدوء إلى سكون الليل. وكان تنفس سيدو الثقيل يجعل الصمت لا يحتمل. وبعد مرور عدة ساعات تكلم سيدو بصوت عميق كأن شخصًا آخر يتحدث من خلاله، قال متسائلاً: «كم مرة أخرى سوف نضطر لمواجهة الموت قبل أن نجد الأمان؟»

وانتظر دقائق قليلة، ولكن لم يقل أحد منا نحن الثلاثة شيئًا. فواصل قائلاً: «فى كل مرة يأتى أناس إلينا وهم عازمون على قتلنا كنت أغلق عينى وأنتظر الموت. ورغم أننى لا زلت حيًّا، أشعر فى كل مرة أسلم فيها للموت وكأن جزءًا منى يموت. وسرعان ما سوف أموت تمامًا وكل ما سوف يبقى هو جسدى الفارغ يسير معكم. سوف يكون أكثر هدوءًا منى». ثم نفخ سيدو فى راحتى يديه ليدفئهما، ورقد على الأرض. أصبح تنفسه الثقيل أكثر حدة، وعرفت أنه راح فى النوم. وتدريجيًّا راح كاناى ثم الحاجى فى سُبات. كنت أجلس على دكة خشبية فى مواجهة الجدار، وأفكر فى كلمات سيدو. اغرورقت عيناى بالدموع وشعرت بجبينى دافئًا وأنا أفكر فيما قاله سيدو. حاولت أن أنزع من ذهنى الاعتقاد بأنى كنت أيضًا أموت ببطء وأنا فى طريقى لأجد الأمان. لم أستطع النوم فى تلك الليلة إلا عندما هبت النسمات الأخيرة من الصباح حاملة معها رغبة لا تقاوم فى النوم، فأنقذتنى من عقلى الشارد.

ورغم أن رحلتنا كانت صعبة، فبين الحين والآخر كان باستطاعتنا أن

نفعل شيئًا ما طبيعيًّا يجعلنا سعداء للحظات قصيرة. ذات صباح وصلنا إلى إحدى القرى، وكان الرجال يستعدون للخروج للصيد. فدعونا لمشاركتهم. وفى نهاية رحلة الصيد صرخ أحد الرجال العجائز وهو يشير إلينا: «سوف نتناول وليمة الليلة، والغرباء مدعوون، مرحبًا بهم». صفق الآخرون وبدأوا فى السير عائدين إلى القرية ونحن نسير خلفهم. كانوا يغنون حاملين فوق أكتافهم شباكهم والحيوانات التى اصطادوها، والتى كان أغلبها من حيوانات الشيهم والغزلان.

ولدى وصولنا القرية، صفقت النساء والأطفال للترحيب بنا. كان الوقت قد تخطى منتصف النهار، السماء زرقاء والرياح قد بدأت تنشط. قام بعض الرجال بتقسيم اللحوم بين عدة أسر، وأعطى الباقى للنساء لطهى الوليمة. وقمنا نحن بالتسكع فى القرية وجلب الماء للنساء اللائى كن يقمن بإعداد الطعام. وعاد معظم الرجال للعمل فى المزارع.

تجولت فى القرية بمفردى، فوجدت أرجوحة شبكية فى إحدى الشرفات. رقدت عليها متأرجحًا ببطء تاركًا العنان لأفكارى. بدأت التفكير فى الأوقات التى كنت أزور فيها جدتى وكنت أرقد فى الأرجوحة الشبكية هناك فى المزرعة. كنت أستيقظ فأجدنى أحدق إلى عينيها وهى تلعب فى شعرى. تدغدغنى، ثم تعطينى خيارة لآكلها. كنت وجونيور نتعارك أحيانًا من أجل الأرجوحة، فإذا حصل هو عليها، كنت أدبر له مقلبًا بفك أربطتها، فيسقط على الأرض بمجرد جلوسه عليها. كان ذلك يثبط من همته فيذهب إلى المزرعة ليفعل شيئًا آخر. كانت جدتى تعلم المقالب التى أقوم بها، وتهزأ منى، وتسمينى «كارسيلوى»، والتى تعنى عنكبوت. وفى كثير من قصص قبيلة «مندى»، كان العنكبوت هو الشخصية التى تخدع حيوانات أخرى للحصول على ما تريد، ولكن خدعه دائمًا ما تنقلب عليه.

وبينما كنت أفكر فى تلك الأشياء، سقطت من فوق الأرجوحة. وكنت أشعر بتكاسل شديد فلم أنهض، وظللت جالسًا على الأرض، وفكرت فى أخويّ وأبى وأمى وجدتى. تمنيت لو كنت معهم.

وضعت يديَّ خلف رأسى ورقدت على ظهرى، محاولاً مواصلة جلب الذكريات حول عائلتى. بدت وجوههم بعيدة فى مكان ما فى عقلى، ولابد لاستحضارها أن أجلب معها ذكريات مؤلمة. كنت أتوق ليدىْ جدتى الرقيقتين السمراوين اللامعتين، ولعناق أمى القوى أثناء زياراتى لها، وكأنها تخبئنى وتحمينى من شىء ما، ولضحك أبى عندما نلعب سويًّا كرة القدم، وعندما كان أحيانًا يطاردنى فى المساء بإناء ملىء بالماء البارد ليجعلنى آخذ حمامًا؛ وعندما كان أخى الأكبر يحيطنى بذراعه ونحن نسير إلى المدرسة، وعندما كان أحيانًا يلكزنى بكوعه لأتوقف عن قول أشياء قد أندم عليها؛ ولأخى الصغير الذى يشبهنى تمامًا، والذى كان أحيانًا يقول للناس إن اسمه إشمائيل عندما يفعل شيئًا خطأ. تعبت فى محاولة استحضار تلك الذكريات، وعندما غامرت بالدخول إليها فى النهاية أصبحت حزينًا للغاية، حتى شعرت بعظامى توجعنى. ذهبت إلى النهر وغطست فى المياه، وجلست فى القاع، ولكن أفكارى تبعتنى.

* * *

فى المساء بعد أن عاد الجميع إلى القرية، تم إحضار الطعام إلى ساحة القرية، كان موزعًا فى صحون كبيرة، وجلس كل سبعة أشخاص حول صحن، وبعد تناول الطعام بدأ القرويون يدقون الطبول، ورقصنا جميعًا متشابكى الأيدى فى دوائر تحت ضوء القمر. وبعد عدة أغان، أثناء إحدى الفترات الفاصلة، أعلن أحد الرجال أنه عندما ينتهى الرقص تمامًا، «مهما كان الوقت» ـ قال ذلك مازحًا ـ «فإن الغرباء سيقصون علينا من أين

جاءوا». ثم رفع يديه مشيرًا إلى الطبول لتستمر فى دقاتها. وخلال الاحتفال تذكرت أكبر احتفال تعودنا إقامته فى بلدتنا فى نهاية كل عام. كانت النساء يتناولن فى غنائهن كل ما حدث خلال ذلك العام من إشاعات وقصص ومعارك، وكل شىء.

فكرت، هل سيكون بمقدورهن الغناء حول كل ما يحدث مع نهاية هذه الحرب؟

كنت متحيرًا قليلاً مما يجعل هؤلاء القرويين ودودين معنا إلى هذه الدرجة، ولكنى لم أمعن التفكير فى هذا الأمر، لأنى كنت أرغب فى قضاء وقت ممتع. لم ينته الرقص أبدًا تلك الليلة، وكان لابد أن نرحل مبكرًا فى اليوم التالى، لذلك فقد غادرنا القرية ومعظم الأهالى نائمون. حملنا معنا جالونًا من البلاستيك مليئًا بالمياه، وبعض اللحم المدخن الذى أعطوه لنا، ولوح لنا العجائز الذين مررنا عليهم بأيديهم وهم جالسون فى شرفاتهم ينتظرون دفء شمس الصباح، وقالوا: «صاحبتكم روح الأسلاف أيها الصغار».

ولما سرنا، استدرت لأرى القرية مرة أخيرة. كانت تبدو وكأنها تولد من جديد فى ذلك اليوم. صاح ديك قاطعًا بذلك ما تبقى من الليل، وموجهًا رسالة للجداجد بأنه غير مسموح لها بالاستمرار فى صريرها بانقضاء الليل. كانت الشمس تشرق ببطء، ولكنها كانت بالفعل قد بدأت فى إلقاء ظلال على الأكواخ والمنازل. كنت لا أزال أسمع صدى الطبول يتردد فى رأسى منذ الليلة الماضية. ولكنى لم أستطع أن أسمح لنفسى بالسعادة. وعندما أعطيت ظهرى للقرية، كان رفقاء الرحلة يرقصون فى الرمال مقلدين الرقصات التى رأيناها.

«أرنا ماذا فى جعبتك». قالوا ذلك وهم يصفقون ويتحلقون حولى. لم أستطع الرفض، بدأت ألف سيقانى على وقع التصفيق، وشاركونى

الرقص. وضعنا أذرعنا فوق أكتاف بعضنا البعض وسرنا إلى الأمام، راقصين على الأنغام التى نصدرها بأفواهنا. كنت أحمل اللحم المدخن فى شنطة بلاستيك صغيرة أهزها فى الهواء لزيادة السرعة التى نحرك بها أقدامنا من جانب إلى آخر. رقصنا وضحكنا حتى الصباح. ولكننا توقفنا تدريجيًّا. وكأننا كنا جميعًا نعلم أننا لا يمكن أن نكون سعداء إلا لفترة وجيزة. لم نكن على عجلة من أمرنا. لذلك فقد سرنا ببطء وبهدوء بعد أن توقفنا عن الرقص، وفى نهاية اليوم كنا قد انتهينا من شرب كل الماء الذى نحمله.

وصلنا مع حلول الظلام إلى قرية غريبة جدًّا. لم أكن فى الحقيقة متأكدًا إن كانت قرية. كان هناك بيت واحد كبير، ومطبخ واحد يبعد عن البيت بأقل من كيلومتر. كانت القدور عفنة، وكان هناك مخزن صغير. لم يكن المكان مستقرًا وسط منطقة ما.

قال جوما ضاحكًا: «والآن هذه قرية من السهل استيلاء الثوار عليها».

تجولنا هنا وهناك محاولين أن نعثر على علامة تدل على وجود شخص ما. كان هناك ما يدل على أنه كان يجرى هنا فى وقت ما نوع من الإنتاج لاستخراج زيت النخيل، وكانت بقايا بذور التمر فى كل مكان. وعلى شاطئ النهر يرسو زورق نمت فوقه طحالب الأسبيروجيرا. ولما عدنا إلى المنزل القديم تناقشنا حول المكان الذى يمكننا النوم فيه. جلسنا على عروق خشبية بالخارج أمام الشرفة. وعرض موسى أن يحكى لنا حكاية عن العنكبوت «برا».

قلنا محتجين: «لا» ـ كنا جميعًا نعرفها جيدًا جدًّا ـ ولكنه استمر يحكى. قال موسى: «حكايات العنكبوت «برا» جيدة دائمًا، ولا يهم كم مرة سمعتموها، قالت لى أمى: «إنه متى حُكيت حكاية فإنها تستحق أن

نستمع إليها، فمن فضلكم استمعوا، سوف أحكيها سريعًا»، ثم سعل وبدأ يحكى.

«عاش العنكبوت «برا» فى قرية كانت محاطة بالعديد من القرى الأخرى. وفى نهاية موسم الحصاد، كانت كل القرى تقيم ولائم احتفالاً بموسم الحصاد الناجح. كانت هناك وفرة من الطعام والخمر. ويأكل الناس حتى يمكنهم أن يروا انعكاسات وجوههم على كروش بعضهم البعض».

«ماذا؟» قلنا جميعًا ذلك وقد فاجأتنا تلك التفصيلة الإضافية التى أضافها موسى إلى القصة.

وقف موسى قائلاً: «أنا الذى أحكى الحكاية، لذلك يمكن أن أحكيها بطريقتى. انتظروا دوركم».

وبدأنا الإنصات بانتباه لنرى إن كان سيزخرف القصة بمزيد من التفاصيل اللافتة للنظر. ثم جلس واستأنف الرواية.

«كانت كل قرية متخصصة فى إعداد طبق واحد. كانت قرية العنكبوت «برا» تصنع حساء البامية بزيت النخيل والسمك. مم.. مم.. مم، كانت القرى الأخرى تصنع أوراق الكاسافا مع اللحم، وأوراق البطاطس، وهلم جرا. وكانت كل قرية تتباهى بمدى جودة الوجبة التى تعدها. وأعلنت كل القرى أن الدعوة مفتوحة إلى ولائمها. ولكن العنكبوت «برا» أخذ الأمر بصورة متطرفة، أراد أن يحضر كل الولائم. وكان لابد أن يدبر خطة لتحقيق ذلك. بدأ فى جمع حبال من حول قريته، وراح يجدلها لعدة أشهر قبل الاحتفال. وبينما كان الناس يحملون مكاييل الأرز، وحزم الخشب إلى الساحة، وبينما ظلت النساء يضربن الأرز فى الهاونات الضخمة لفصل القشر عن الحبوب، كان العنكبوت «برا» يجدل الحبال ويمدها فى

شرفته، ويقيس أطوالها. وحينما كان الرجال يذهبون للصيد، كان مشغولاً بطرح حباله على الطرق الموصلة بين قريته وكل القرى المحيطة بها. وأعطى نهايات حباله إلى الزعماء الذين ربطوها إلى أقرب الأشجار من ساحات قراهم، وقال لكل زعيم فى صوت كان يخرج من أنفه، :«مُر رجالك بجذب الحبل عندما تكون وجبتهم جاهزة». واستعدادًا لذلك اليوم، جوّع العنكبوت «برا» نفسه أسبوعًا. وعندما جاء أخيرًا يوم الاحتفال استيقظ مبكرًا قبل أى شخص آخر، وجلس فى شرفته وربط كل الحبال بصورة محكمة فى وسطه. كان يهتز ويسيل لعابه من فمه وهو يشم رائحة اللحم المدخن والسمك المجفف وروائح الأطعمة المتعددة والمتنوعة وهى تنبعث من أكواخ الطهى.

«ولسوء حظ العنكبوت «برا»، بدأت كل الاحتفالات فى نفس الوقت، وأمر الزعماء بجذب الحبال فى نفس الوقت. فإذا به معلق فى الهواء فوق قريته، مشدود بالحبال من جميع الاتجاهات. صرخ العنكبوت «برا» لطلب النجدة، ولكن أصوات الطبول والأغانى الصادرة من ساحة قريته حجبت صوته. ورأى الناس يتجمعون حول صحون الطعام ويلعقون أصابعهم بعد انتهائهم من الطعام. وسار الأطفال عبر القرية فى طريقهم للنهر وهم يمضغون قطع الدجاج المطهوة، ولحوم الماعز والغزلان. وكلما حاول العنكبوت «برا» فك الحبال كانت القرى تجذب الحبل بصورة أشد، فقد كانوا يظنون أن محاولة الفك التى يبذلها هى مجرد إشارة تعبر عن أنه مستعد لحضور الوليمة. وفى نهاية الاحتفال فى قرية العنكبوت «برا»، رآه أحد الفتيان، واستدعى كبار القرية، الذين قطعوا الحبال وأنزلوا العنكبوت «برا». وفى صوت لا يكاد يُسمع طلب بعض الطعام، ولكن لم يكن قد تبقى شىء منه. لقد انتهت الولائم فى كل مكان، وبقى العنكبوت «برا» جائعًا، ولأن الحبال حول وسطه شُدت طويلاً وبقوة، أصبح للعناكب ذلك الخصر النحيل».

قال الحاجى وهو يتمطى بظهره: «كل هذا الطعام فى الحكاية جعلنى أشعر بالجوع، قصة طيبة، رغم أننى لم أسمعها هكذا أبدًا من قبل». ضحكنا جميعًا، فقد كنا نعلم أنه كان يسخر من موسى لإضافته بعض التفاصيل إلى القصة.

بمجرد أن انتهى موسى من حكايته، كان الليل قد حل على القرية. تبدلت السماء بسرعة من الإشراق إلى الظلمة، فجلبت معها النوم لرفاقى. وضعنا اللحم المدخن وجالون المياه عند باب الغرفة التى شغلناها. وبقيت فى الغرفة مع أصدقائى رغم أننى لم أنم حتى الساعات الأخيرة من الليل. تذكرت الليالى التى قضيتها جالسًا مع جدتى بالقرب من النار. «إنك تنمو بسرعة كبيرة. يبدو لى عندما حضرت مراسم تسميتك وكأنه كان بالأمس». كانت تنظر إلىّ ويضىء وجهها اللامع، قبل أن تقص علىّ قصة مراسم تسميتى. كنت قد حضرت العديد من تلك المراسم، ولكن جدتى دائمًا تحكى لى عن مراسم تسميتى أنا.

كان كل أفراد القبيلة حاضرين. وقبل أن يبدأ الاحتفال، تم إعداد طعام وفير بمعاونة الجميع. فى الصباح الباكر ذبح الرجال شاة، وسلخوها، ثم قسموا اللحم بين أمهر النساء فى الطهى، لكى تطهو كل واحدة منهن أفضل ما تتقنه من الطعام من أجل المناسبة. وبينما كانت النساء يطهين، وقف الرجال فى الساحة مرحبين يصافحون بعضهم البعض بقوة، ضاحكين، وكل رجل يتنحنح بأعلى ما يمكنه من صوت ليجلو حنجرته قبل أن يبدأ الحديث. أما الأولاد الذين كانوا يتسكعون ويسترقون السمع على أحاديث الرجال، فكانوا تتم دعوتهم لإنجاز مهام معينة، كذبح الدجاج خلف أكواخ الطهى، وتجهيز الحطب اللازم للطهى.

بالقرب من أكواخ الطهى المسقوفة بالقش، تغنى النساء وهن يضربن

الأرز فى الهاونات. ويقمن بألعاب بهلوانية بأيدى الهون، كقلبها فى الهواء، والتصفيق عدة مرات قبل التقاطها، ثم يواصلن الضرب والغناء. وكانت النساء الأكبر سنًّا والأكثر خبرة لا يصفقن فحسب عدة مرات قبل التقاطهن أيادى الهون، ولكن أيضًا يؤدين إشارات تحية متقنة ومنسجمة مع الأغانى التى يترنمن بها. وداخل الأكواخ جلست فتيات على الأرض يروحن على الفحم المتوهج بمراوح مصنوعة من خشب البامبو أو بصحن قديم، أو بمجرد النفخ لإشعاله تحت حلل ضخمة.

وبحلول التاسعة صباحًا كان الطعام جاهزًا. ارتدى كل شخص أفضل ما عنده من ثياب. وكانت النساء بصورة خاصة متأنقات فى تنوراتهن وقمصانهن وأثوابهن القطنية المزينة الجميلة والشالات القطنية الطويلة التى تلتف حول خصورهن وعقالات الرأس المفرطة فى الزينة. كان كل فرد فى حالة مزاجية عالية، وجاهزًا لبدء الاحتفال الذى سيستمر حتى الظهيرة.

قالت جدتى: «وصل الإمام متأخرًا»، ووُضعت صينية معدنية كبيرة تحتوى على حلوى الأرز وجوز الكولا إلى جانبه، وسُلمت له قرعة مملوءة بالماء، وبعد أن استقر جالسًا على مقعد فى وسط الفناء، قام بتشمير أكمام ردائه الأبيض، وقلّب عجينة الأرز ووزعها بعناية إلى عدة حصص على هيئة قوالب، ووضع فوق كل منها جوزة كولا. ثم شرع الإمام عندئذ فى قراءة عدة سور من القرآن. وبعد الدعاء قام برش بعض الماء على الأرض لدعوة أرواح الأسلاف.

أشار الإمام لأمى، كى تحضرنى إليه. كانت أول مرة أخرج فيها إلى مكان مفتوح. ركعت أمى أمام الإمام وقدمتنى له، فأخذ بعض الماء من القرعة وقام بتدليك جبهتى به وهو يتلو المزيد من الصلوات، التى أتبعها

بإعلان اسمى. «سوف يُدعى إسماعيل»، قال ذلك فصفق جميع الحاضرين. وبدأت النساء الغناء والرقص. ثم قامت أمى بتسليمى إلى أبى الذى رفعنى عاليًا فوق الحشد المتجمع قبل أن يتناقلنى كل الحاضرين. وبذلك أصبحت عضوًا فى مجتمع القبيلة، أنتمى إلى الجميع، وألقى رعاية واهتمامًا من الجميع.

تم إحضار الطعام فى أطباق ضخمة. بدأ الكبار أولاً فى تناول الطعام، فأكلوا كلهم من طبق واحد. ثم فعل الرجال نفس الشىء، ثم الفتيان، قبل أن تحصل النساء والفتيات على حصتهن. وأعقب الوليمة غناء ورقص. وبينما كانت البهجة مستمرة، تم تسليمى إلى النساء العجائز - اللائى لم يعدن قادرات على الرقص - لأحظى باهتمامهن، فحملننى وابتسمن لى، وهن يدعوننى: «أيها الزوج الصغير». وبدأن يحكين لى حكايات عن القبيلة. وحينما كنت أبتسم لهن، يقلن: «إنه يعشق الحكايات، حسنًا، لقد جئت إلى المكان الصحيح».

ابتسمت قليلاً، فقد استطعت أن أتصور وجه جدتى تعلوه الفرحة فى نهاية هذه الحكاية. كان بعض رفاقى فى الرحلة يغطون فى النوم، وتسللت نسمات الليل الأخيرة إلى عينىّ فأثقلت جفونى.

عندما استيقظنا فى الصباح التالى وجدنا أن اللحم المدخن قد اختفى كله. بدأنا فى لوم بعضنا البعض. تفحص كاناى شفتى موسى الذى غضب من ذلك، وبدأ فى تبادل الاتهامات. وكنت على وشك التفريق بينهما، عندما أشار سيدو إلى شنطة ممزقة على حافة الشرفة.

«هذه هى الحقيبة، أليس كذلك؟» قال ذلك مشيرًا إلى حوافها الممزقة، «هذا العمل ليس من صنع أحد منا، فالحقيبة لا تزال مربوطة»، قال ذلك وهو يرينا إياها... «شىء آخر أكل اللحم، وأيًا كان آكل هذا اللحم فهو

لا يزال قريبًا فى المنطقة». ثم التقط عصا وبدأ فى المشى نحو الشجيرات الموجودة فى منطقة الأحراش.

قال موسى وهو يدفع كاناى من طريقه: «أرأيت أنه لم يكن أنا؟»، وذهب مع سيدو.

قال موريبا متفحصًا آثار الأقدام الموجودة على الأرض: «إنه حيوان من نوع ما». بحث بعضنا فى أنحاء القرية، بينما تتبع آخرون آثار الأقدام التى اتجهت إلى النهر، وكنا على وشك أن ندع البحث عندما صاح سيدو من خلف المخزن فى القرية: «رأيت اللص، وهو فى حالة غضب».

جرينا لنعرف ماذا يكون هذا اللص. كان كلبًا يمضغ آخر قطعة من اللحم المدخن. وعندما رآنا بدأ فى النباح وهو يحرس قطعة اللحم بقدميه الخلفيتين.

«إنك كلب شرير، هذه ملكنا»، أخذ الحاجى العصا من سيدو وبدأ يطارد الحيوان. ظل الكلب ممسكًا بآخر قطعة من اللحم وهو يبتعد ليختفى بين الشجيرات. هز سيدو رأسه والتقط جالون الماء وبدأ فى العودة. وتبعناه جميعًا، ولا يزال الحاجى ممسكًا بالعصا.

بعد ظهيرة اليوم بدأنا ننقب الشجيرات بحثًا عن أى نوع من الفاكهة يصلح للأكل، ولم نتبادل الكثير من الكلام ونحن سائرون.

وفى المساء توقفنا لنستريح عبر الطريق.

قال الحاجى: «كان يجب أن أقتل ذلك الكلب»، قال ذلك ببطء وهو يعتدل ليرقد على ظهره.

سألته: «لماذا؟»

قال موريبا وهو يجلس: «نعم، لماذا؟ وما الفائدة التى ستعود من وراء ذلك؟»

أجاب الحاجى بغضب: «كنت أريد أن أقتله لأنه أكل الطعام الذى ليس لدينا سواه».

قال موسى: «ربما كان يصبح لحمًا صالحًا للأكل».

التفت إلى موسى، الذى كان راقدًا على ظهره بالقرب منى، وقلت: «لا أعتقد ذلك، بالإضافة إلى أنه سيكون من الصعب إعداده على أية حال».

بصق جوما قائلاً: «إنكم تصيبوننى بالغثيان يا شباب لمجرد التفكير فى مثل هذا الشىء».

هب موسى واقفًا وهو يقول: «حسنًا»..

قال الحاجى متنهدًا: «يبدو أنه سيقص علينا قصة أخرى...».

التفت موسى إلى الحاجى، وقال: «نعم، حسنًا، ليست حكاية بالضبط»، وتوقف برهة، ثم قال: «اعتاد أبى أن يعمل لدى هؤلاء الماليزيين، وقد أخبرنى أنهم يأكلون الكلاب. لذلك إذا قتل الحاجى ذلك الكلب فسوف أحب أن أجرب بعضه. وعندئذ عندما أرى أبى مرة أخرى فسوف أخبره عن طعمه. ولن يكون غاضبًا منى لأن لدى عذرًا وجيهًا لأكل لحم كلب».

لجأنا جميعًا إلى الصمت، وأخذنا نفكر فى عائلاتنا. لقد قدح موسى فينا جميعًا ما كنا نخشى أن نفكر فيه.

* * *

كان موسى مع والده بالمنزل فى ماترو يونج عندما حدث الهجوم. كانت أمه قد ذهبت إلى السوق لشراء سمك لوجبة المساء. جرى هو ووالده فى اتجاه السوق وعثرا على أمه، ولكن أثناء هروبهم من البلدة

تخلفت أمه بطريقة ما. لم يدركا أنها لم تكن معهم إلا عندما توقفا لأخذ راحة فى أول قرية وصلا إليها. بكى والده وطلب من موسى أن ينتظر هناك بينما سيذهب هو للبحث عن زوجته. فقال موسى لوالده إنه يريد أن يذهب معه. فقال: «لا يا بنى، ابق هنا وسوف أذهب أنا لإعادة أمك». وبمجرد ذهاب والده هوجمت هذه القرية أيضًا، وجرى موسى هاربًا، ومنذ ذلك الحين وهو مستمر فى الهروب.

كان الحاجى عند النهر يجلب ماء عندما هجم المتمردون. فجرى إلى المنزل، ليقف فى مواجهة المنزل الفارغ يصيح مناديًا على أبويه وأخويه وأخته.

أما كاناى فقد فرّ مع أبويه، ولكنهم فقدوا أختيه وإخوته الثلاثة خلال الفوضى. قفز هو ووالداه فى زورق مع آخرين لعبور نهر يونج. وعندما وصل الزورق إلى منتصف النهر بدأ المتمردون يطلقون النار من الشاطئ على من فى المركب، فأصيب الجميع بالذعر، مما تسبب فى انقلاب الزورق. وسبح كاناى إلى الجانب الآخر من النهر بأسرع ما يمكن. وعندما وصل إلى الشاطئ رأى الناس وهم يغرقون فى الماء ويصرخون وهم يقاتلون للبقاء فوق سطح الماء. ضحك المتمردون على الناس وهم يغرقون أمام أعينهم. ظل كاناى يبكى طوال الليل وهو يسير خلف الناجين، الذين توجهوا إلى قرية جنوب النهر. وهناك قال بعضهم لكاناى إن والديه عبرا النهر. وجعله الأمل فى العثور على والديه يظل متنقلاً على مدى أشهر.

أما جوما وموريبا، اللذان كانا يعيشان متجاورين، فقد دمرت مدافع الـ «آر بى جى» منزليهما خلال الهجوم، فجريا نحو المرفأ للبحث عن والديهما اللذين كانا يعملان تاجرين بالميناء، ولكنهما لم يعثرا عليهما فى أى مكان. فجريا إلى الغابة حيث اختبأت عائلتا هما هناك فى وقت سابق، ولكنهما لم يعثرا على أى منهم أيضًا.

أما عائلة سيدو فلم تكن قادرة على ترك البلدة خلال الهجوم. واختبأ مع أبويه وأخواته الثلاث، اللائى كن فى التاسعة عشرة والسابعة عشرة والخامسة عشرة، تحت السرير خلال الليل. وفى الصباح اقتحم المتمردون المنزل، ووجدوا أبويه وأخواته. وكان سيدو قد صعد إلى الغرفة العلوية لجلب الأرز المتبقى هناك لرحلتهم، وأثناء ذلك اقتحم الثوار المنزل، فظل فى العليّة كاتمًا أنفاسه منصتًا إلى عويل أخواته والمتمردون يغتصبونهن. وكان أبوه يصرخ فيهم فضربه أحد الثوار بمؤخرة البندقية. وكانت أم سيدو تبكى وتعتذر لبناتها لأنها جاءت بهن إلى هذا العالم ليصبحن ضحايا لمثل هذا الجنون. وبعد أن اغتصب الثوار الأخوات مرارًا، قاموا بجمع ممتلكات العائلة، وجعلوا الأب والأم يحملانها. وأخذوا البنات الثلاث معهم.

«إلى يومنا هذا أشعر بالآلام التى شعرت بها أخواتى وأبواى. وعندما نزلت بعد أن رحل المتمردون لم أستطع الوقوف على قدمىّ وتجمدت الدموع فى عينىّ، وشعرت أن عروقى تنخلع بقسوة من جسدى. ولازلت أشعر بنفس الشعور طوال الوقت، حيث لا أستطيع التوقف عن التفكير فى ذلك حتى اليوم. ماذا فعلت أخواتى فى حق أى شخص؟» قال سيدو ذلك بعد أن قص علينا حكايته ذات ليلة فى إحدى القرى المهجورة. شعرت بمرارة فى حلقى وأنا أستمع إلى حكايته، وعلمت عندئذ لماذا كان صامتًا طوال الوقت.

* * *

قال كاناى بأسى وهو ينفض التراب عن سرواله: «يجب أن نواصل المسير». اتفقنا على السير ليلاً، وخلال النهار نبحث عن طعام وقسمنا أنفسنا إلى دوريات للنوم. فى الليل بدا وكأننا نسير مع القمر. كان يتبعنا

من وراء سحب كثيفة وينتظرنا فى نهاية طرق الغابة المظلمة. كان يختفى مع شروق الشمس ولكنه يعود مرة أخرى فى الليلة التالية، متأرجحًا فوق طريقنا. أصبح لمعانه باهتًا مع مرور الليالى، وفى بعض الليالى كانت السماء تبكى، وتقطر دموعها نجومًا سرعان ما تخبو وتختفى فى الظلام قبل أن تلتقى معها أمنياتنا. تحت هذه النجوم وتلك السماء اعتدت أن أسمع الحكايات، ولكن الآن يبدو وكأن السماء هى التى تحكى لنا الحكايات بينما تسقط نجومها، تتصادم بعنف مع بعضها البعض. والقمر يختبئ خلف السحب ليتجنب رؤية ما كان يحدث.

خلال اليوم أبت الشمس أن تشرق تدريجيًّا كما كانت تفعل من قبل. فكانت تسطع بشدة منذ لحظة ظهورها من خلف السحب. كانت إشعاعاتها الذهبية تغشى عينىّ. وسارت السحب فى السماء الزرقاء بعنف تحطم تشكيلات بعضها البعض.

ذات يوم بعد الظهيرة، بينما كنا نبحث عن طعام بإحدى القرى المهجورة، سقط غراب من السماء. لم يكن ميتًا، ولكنه لم يكن قادرًا على الطيران. كنا نعلم أن ذلك ليس من المعتاد، ولكننا كنا نحتاج طعامًا وأى شىء فى هذه الظروف سيؤدى الغرض. وأثناء تنظيف الطائر من الريش سأل موريبا: «أى يوم هذا؟». فكرنا جميعًا للحظة محاولين تذكر اسم آخر يوم كانت حياتنا فيه طبيعية. قطع كاناى الصمت. قال ضاحكًا: «هو يوم إجازة،... يمكنك أن تسميه كما تريد».

قال موسى: «ولكنه ليس مجرد يوم عادى، إنه يوم غريب.... لست أشعر بارتياح تجاهه، ربما يجب ألا نأكل هذا الطائر».

قال كاناى: «حسنًا، فى ظل الظروف الراهنة، إذا كان سقوط هذا الطائر علامة على لعنة ما أو حظ عاثر ففى الواقع نحن نعانى من كلا

الأمرين، لذلك فإننى سوف آكل كل جزء منه، ولكم مطلق الحرية فى فعل ما تشاءون»، وبدأ يدندن.

عندما توقف كاناى عن الدندنة شعرنا أن العالم أصبح شديد السكون. فالرياح والسحب توقفت عن الحركة، وبدت الأشجار ساكنة تمامًا وكأنها فى انتظار شىء لا يمكن تصوره.

أحيانًا يكون لليل طريقة يتحدث بها إلينا، ولكننا تقريبًا لم نكن ننصت له أبدًا. كان الليل بعد أن أكلنا الطائر شديد الظلمة. لم تكن هناك نجوم فى السماء، وبدا أن الظلمة تزداد عتامة ونحن سائرون. لم نكن نسير بأحد ممرات الغابة الكثيفة، ولكننا لم نكن نستطيع رؤية بعضنا البعض إلا بالكاد. أمسك كل منا بيد الآخر. وواصلنا المسير لأننا لم نكن نستطيع التوقف فى المكان، رغم أننا كنا نريد التوقف. وبعد ساعات من السير وصلنا إلى جسر مصنوع من العروق الخشبية. كان النهر تحته يتدفق فى هدوء وكأنه كان نائمًا. وبينما كنا على وشك أن نخطو بأقدامنا فوق الجسر، سمعنا وقع أقدام على الجانب الآخر، قادمة نحونا. ففككنا أيدينا واختبأنا وسط الشجيرات القريبة. كنت راقدًا مع الحاجى وجوما وسيدو.

كان هناك ثلاثة أشخاص يرتدون قمصانًا بيضاء. اثنان منهم كانا فى نفس الطول تقريبًا، والثالث كان أقصر. كانوا يحملون ملابس تحت أذرعهم. وكانوا هم أيضًا يمسكون بأيدى بعضهم البعض، وبعد أن عبروا الجسر ووصلوا إلى المكان الذى نرقد فيه توقفوا وكأنهم شعروا بوجودنا، وتمتموا بشىء ما. كان من الصعب أن نسمع ماذا يقولون لأن أصواتهم كانت كطنين النحل، وكأن شيئًا ما كان يسد أنوفهم. وبعد أن انتهت التمتمة بدأ الرجلان الطويلان يتجاذبان الرجل القصير. أراد أحدهم أن يذهبوا فى الطريق الذى نتجه إليه، وأصر الآخر أن يمضوا فى الاتجاه

المضاد. تسببت مشاجرتهم فى زيادة ضربات قلبى، وحاولت جاهدًا أن أتعرف على وجوههم، ولكن الظلام كان حالكًا. بعد حوالى دقيقة، قرروا مواصلة الذهاب فى الاتجاه الذى جئنا منه.

مرت عدة دقائق قبل أن نخرج من تحت الشجيرات، كنا جميعًا نلهث بشدة، ولم نستطع الكلام. بدأ كاناى يهمس بأسمائنا. وعندما نادى على سيدو لم يرد. بحثنا عنه بين الشجيرات. كان راقدًا هناك فى هدوء، هززناه بشدة ونحن ننا ديه، ولكنه كان صامتًا. بدأ الحاجى وجوما فى البكاء. قمت أنا وكاناى بجر سيدو على الطريق وجلسنا بجانبه. كان فقط راقدًا هناك. بدأت يداى ترتعشان بصورة يتعذر التحكم فيها ونحن جالسون هناك خلال الليل فى صمت. شعرت بثقل رأسى وأنا أفكر فيما سوف نفعله. لا أتذكر من كان يهمس من بيننا: «ربما كان ذلك الطائر الذى أكلناه». وبدأ معظم رفقائى فى الترحال يبكون، ولكننى لم أستطع. جلست فقط أحدق فى الليل وكأنى أبحث عن شىء ما.

* * *

لم يحدث التحول من الليل إلى النهار بصورة تدريجية. فقد انطوى الظلام بسرعة تاركًا السماء تشرق وتلقى علينا بضوئها. كنا جالسين جميعًا فى وسط الطريق. كان سيدو لا يزال ساكنًا، وعلى جبينه بقايا عرق، وفمه مفتوح قليلاً. وضعت يدى بالقرب من أنفه فقط لأعرف إن كان لا يزال يتنفس. ووقف الجميع، وعندما رفعت يدى كانوا ينظرون إلىّ، وكأنهم كانوا يتوقعون أن أقول شيئًا.

قلت: «لا أعلم!».

وضع الجميع أياديهم فوق رءوسهم. بدت وجوههم وكأنهم يريدون أن يسمعوا شيئًا آخر، شيئًا ما كنا نعلم أنه ممكن أن يحدث، ولكننا كنا نخشى أن نسلم به.

سأل موريبا: «ماذا نفعل الآن؟»

قال موسى: «إننا لا نستطيع الوقوف هنا إلى الأبد».

قال كاناى بتمهل: «علينا أن نحمله إلى القرية التالية، مهما كانت بعيدة». ثم استطرد: «ساعدونى لإيقافه».

قمنا بإيقاف سيدو، وحمله كاناى فوق ظهره عبر الجسر. كانت مياه النهر الهادئة قد بدأت فى التدفق بصوت مرتفع بين الصخور وسعف النخيل. وبمجرد عبورنا الجسر سعل سيدو. أجلسه كاناى وتجمعنا كلنا حوله. أخذ فى التقيؤ لعدة دقائق، ومسح فمه، ثم قال: «كانت تلك الأرواح الشريرة فى الليلة الماضية. إننى أعرفها».

وافقناه جميعًا على ذلك.

قال: «لابد وأننى أصبت بالإغماء بعد أن بدأوا يتحدثون»، كان يحاول أن ينهض، وساعدناه جميعًا.

فقال وهو يدفعنا بعيدًا: «إننى بخير، هيا بنا».

قال موسى: «لقد استيقظت من الموت متخذًا موقفا».

ضحكنا جميعًا وبدأنا المسير. بدأت يداى ترتعشان من جديد. لم أكن أعرف لماذا هذه المرة. كان يومًا كئيبًا. وظللنا نسأل سيدو طوال الطريق إلى القرية التالية ما إذا كان على ما يرام.

* * *

كان الوقت قد تعدى منتصف النهار عندما وصلنا إلى قرية مزدحمة. وأصبنا بصدمة من كم الضوضاء التى كانت موجودة فى مثل هذا الوقت الذى تشتعل فيه الحرب. كانت أكبر قرية زرناها حتى ذلك الوقت. وبدت

أشبه بالسوق فى ضوضائها وازدحامها. كان الناس يعزفون الموسيقى ويرقصون، والأطفال يجرون فى كل مكان. وكانت هناك تلك الرائحة الطيبة المألوفة لرغيف الكاسافا المطهو فى زيت النخيل الدسم.

وأثناء سيرنا فى القرية محاولين العثور على مكان نستريح فيه بعيدًا عن الزحام رأينا وجوهًا مألوفة، يلوحون لنا فى شىء من التردد. عثرنا على جذع تحت شجرة مانجو وجلسنا. فجاءت امرأة لم يكن وجهها من الوجوه المألوفة لدينا وجلست أمامنا.

وأشارت إلىّ قائلة: «أنت، إننى أعرفك».

لم أكن أعرف وجهها، ولكنها أصرت على أنها تعرف عائلتى وتعرفنى. أخبرتنى أن جونيور جاء إلى القرية منذ بضعة أسابيع يبحث عنى، وأنها أيضًا رأت أمى وأبى وأخى الصغير فى القرية التالية التى كانت على مسيرة يومين. وأخبرتنا عن الطريق إليها قائلة: «فى تلك القرية يوجد كثير من أهل ماترو يونج ومنطقة تعدين «سييرا روتايل». كلكم سوف تجدون عائلاتكم أو أخبارًا عنهم».

ثم نهضت المرأة وغادرت وهى ترقص على أنغام موسيقى السوكو التى كانت تُعزف آنذاك، وهو ما جعلنا جميعًا نضحك. أردت أن أذهب فورًا، ولكننا آثرنا أن نقضى الليلة فى القرية. وأيضًا أردنا أن يستريح سيدو، رغم أنه ظل يؤكد لنا أنه على ما يرام. كنت أشعر بفرحة غامرة لأن أمى وأبى وأخوىّ عثروا بطريقة ما على بعضهم البعض، وفكرت أنه ربما عاد أبى وأمى سويًا.

ذهبنا للسباحة فى النهر، وهناك لعبنا لعبة الأستغماية وألعاب السباحة والجرى بطول الضفة، وكنا نصرخ «كو كوو» لنبدأ اللعبة. كان الجميع يضحكون.

فى تلك الليلة سرقنا قدرًا مليئة بالأرز وأوراق الكسافا. وأكلنا تحت شجر البن عند حافة القرية. ثم قمنا بغسل القدر وأعدناها إلى مكانها. لم يكن لدينا مكان للنوم، فانتقينا شرفة بأحد المنازل بعد أن ذهب الجميع إلى الداخل.

لم أنم فى تلك الليلة، فقد بدأت يداى ترتعشان بمجرد أن شرع أصدقائى يغُطُّون. كنت أشعر أن شيئًا سيئًا سوف يحدث. بدأت الكلاب تعوى وتجرى من طرف القرية إلى الطرف الآخر.

استيقظ الحاجى وجلس بجانبى قائلاً: «لقد أيقظتنى الكلاب».

رددت: «أنا لم أستطع النوم أصلاً».

فابتسم قائلاً: «ربما فقط تشعر بالانفعال والشوق لرؤية عائلتك، وأنا أيضًا».

ثم وقف الحاجى وقال: «ألا تعتقد أن ذلك غريب؟... الطريقة التى تنبح بها الكلاب؟»

اقترب أحد الكلاب من الشرفة التى نجلس فيها وأخذ يعوى بشدة، ثم شاركته عدة كلاب أخرى، وانخلع قلبى لصياحها.

قلت: «نعم، إن ذلك يشبه عويل البشر!»

قال متثائبًا: «ذلك نفس الشيء الذى كنت أفكر فيه. أعتقد أن الكلاب ترى أشياء لا نراها. لابد أن هناك شيئًا غير طبيعى». ثم جلس.

سادنا السكون ونحن نحدق فى الليل، وظلت الكلاب تعوى طوال الليل عويلاً مستمرًا حتى ظهرت السماء واضحة. عندئذ بدأ يرتفع بكاء الأطفال الصغار. وبدأ أهل البيت يستيقظون، لذلك كان لابد أن نخلى الشرفة. بدأت والحاجى نوقظ أصدقاءنا. وعندما هزَّ سيدو، ظل ساكنًا.

«قم، لابد أن نذهب الآن»، أخذ يهزه بقوة، ونحن نسمع أصحاب المنزل الذين نمنا فى شرفتهم وهم يستعدون للخروج إلى الشرفة.

أخذ كاناى يلاطفه: «سيدو، سيدو، ربما أغمى عليه مرة أخرى».

خرج رجل وألقى إلينا التحية. كان يحمل دلوًا به ماء. وكانت على وجهه ابتسامة دلتنا على أنه كان يعلم طوال الوقت بوجودنا فى الشرفة.

قال: «هذا سوف يؤدى الغرض»، أخذ ينثر بعض الماء البارد من دلوه على سيدو.

ولكن سيدو لم يتحرك. كان فقط راقدًا على بطنه، ووجهه مغمور فى التراب، وكانت راحتا يديه مقلوبتين وشاحبتين. لفه الرجل وتحسس نبضه. كان جبين سيدو متسخًا ومتجعدًا. وفمه مفتوحًا قليلاً، وكانت هناك آثار جافة لدموع انحدرت من طرفى عينيه على وجنتيه.

سأل الرجل: «هل تعرفون أيها الغلمان أحدًا فى هذه القرية؟»

قلنا جميعًا: «لا» ونحن نهز رءوسنا. تنهد بشدة، ووضع الدلو جانبًا ووضع يديه فوق رأسه.

سأل وهو ينظر إلى الحاجى: «من أكبركم سنًّا؟»

رفع كاناى يده، فأخذه خارج الشرفة، وهمس الرجل بشىء فى أذنه، فبدأ كاناى يبكى على كتف الرجل. عندئذ سلمنا بأن سيدو قد تركنا. أخذ الجميع يبكون. ولكننى لم أستطع البكاء. شعرت بدوخة ودمعت عيناى. وبدأت يداى ترتعشان من جديد. شعرت بحرارة داخل بطنى، وكان قلبى ينبض ببطء، ولكن بمعدل ثقيل. سار الرجل مع كاناى بعيدًا وعندما عادا أحضرا معهما رجلين يحملان نقالة خشبية، ووضعوا سيدو عليها، وطلبوا منا أن نتبعهم.

تم تغسيل جسد سيدو وإعداده للدفن فى نفس اليوم، وتم لفه فى قماش من الكتان الأبيض، ووُضع فى تابوت خشبى، والذى تم إعداده ووضعه على طاولة فى غرفة معيشة الرجل الذى نمنا فى شرفته.

كان المسئول عن مراسم الدفن فى القرية رجلاً طويلاً ونحيفًا، ولكنه مفتول العضلات فى نفس الوقت، سألنا: «هل بينكم أحد أقاربه؟» أجبنا جميعًا بالنفى بهز رءوسنا. وشعرت كما لو كنا ننفى سيدو نفسه، صديقنا، ورفيق طريقنا. كنا قد أصبحنا عائلة واحدة. ولكن الرجل كان يريد عضوًا من عائلته الحقيقية يمكنه أن يجيز دفنه.

نظر الرجل إلينا وسأل: «هل يعرف أى منكم عائلته؟»

رفع كاناى يده وهو يقول: «أنا أعرف».

دعاه الرجل حيث وقف على الجانب الآخر من التابوت. وبدآ يتكلمان. حاولت أن أستكشف ماذا يقولان بقراءة الإيماءات المفصلة التى كان الرجل يؤديها بيده اليمنى، كانت يده اليسرى فوق كتف كاناى. وتحركت شفتا كاناى للحظة، ثم بدأ يومئ برأسه حتى انتهت المحادثة.

عاد كاناى وجلس معنا على المقاعد التى أمدونا بها من أجل الجنازة، التى لم يحضرها سوانا، بالإضافة إلى الرجل الذى تركنا سيدو فى شرفته. وجلس بقية أهل القرية هادئين فى شرفاتهم، ولكنهم وقفوا عندما بدأنا نسير مع الجنازة إلى مدفن القرية.

كنت لا أصدق أن سيدو قد تركنا فعلاً. تملكتنى فكرة أنه فاقد الوعى وليس غير، وسرعان ما سوف يستيقظ. كان يزعجنى أنه لن يستيقظ إلا بعد أن يوارى فى الحفرة. وسيكون فقط بالكفن. وبدأ الحفارون يغطونه بالتراب. لم يتبق منه سوى ذكرى. بدأت الغدتان الموجودتان فى رقبتى تؤلماننى. لم أكن أستطيع التنفس جيدًا؛ لذا فتحت فمى. وبدأ الرجل الذى

سألنا من قبل إن كان أحد منا من أقارب سيدو فى قراءة إحدى سور القرآن الكريم. عندئذ بدأت أبكى فى هدوء. تركت دموعى تتساقط على الأرض حيث امتصها تراب الصيف. وبدأ الرجال الذين حملوا سيدو فى وضع أحجار حول القبر لتثبيت كومة التراب فوقه.

بعد الدفن، كنا نحن فقط الباقين فى المدفن. كانت هناك قبور فى كل مكان. القليل منها يحمل لافتات مكتوب عليها شيء ما، والبقية مجهولة الهوية. انضم سيدو إلى هذه الفئة. جلسنا ساعات فى الجبانة وكأننا نتوقع شيئًا ما. ولكننا كنا صغارًا ـ كنا جميعًا فى الثالثة عشرة ما عدا كاناى الذى كان أكبر بثلاث سنوات ـ وكانت انفعالاتنا مشوشة. لم أستطع إدراك بماذا أو كيف كنت أشعر. هذا التشوش أصاب رأسى بالصداع وجعل بطنى تتوتر. تركنا الجبانة عندما اقترب الليل. كان الجو هادئًا فى القرية. جلسنا بالخارج فوق جذع الشجرة الذى جلسنا عليه من قبل عندما دخلنا القرية. لم يفكر أحد منا فى الذهاب للنوم بإحدى الشرفات. شرح كاناى لنا أن سيدو كان لابد وأن يتم دفنه، حيث إن العرف فى القرية كان يقول بعدم الإبقاء على ميت أثناء الليل. وكان علينا إما أن نفعل ذلك أو نأخذ سيدو خارج القرية. لم يعلق أحدنا على كلام كاناى، فتوقف عن الكلام. وبدأت الكلاب تعوى من جديد، واستمرت تعوى طوال الليل حتى أصابنا الأرق.

رحنا نسير فى القرية ذهابًا وإيابًا. لم يكن معظم أهل القرية نائمين، كان يمكننا سماعهم يهمسون عندما كانت الكلاب تتوقف أو تذهب للعواء فى الناحية الأخرى من القرية. تذكرت منذ عدة أسابيع عندما قال سيدو إن أجزاء منه تموت ببطء فى كل يوم يمر. وكلما واصلنا رحلتنا، كنت أفكر أنه ربما كان كله قد مات تلك الليلة عندما تحدث بذلك الصوت الغريب بعد نجاتنا من الهجوم الذى شنه علينا رجال بالمناجل والحراب والفئوس. بدأت يداى وقدماى ترتعش، واستمرت على هذه الحالة طوال الليل.

كنت قلقًا، وظللت أنادى على أصحابى، لكى لا يغطوا فى النوم. كنت أخشى إذا نام أى منهم أن يتركنا. وفى الصباح الباكر قال لنا كاناى إننا سنغادر القرية بعد شروق الشمس وسنتوجه إلى القرية التالية. وقال: «لا أستطيع أن أبقى ليلة أخرى أستمع إلى تلك الكلاب، إنها تروعنى».

فى ذلك الصباح شكرنا الرجال الذين ساعدونا فى دفن سيدو. قال واحد منهم: «ستعرفون دائمًا أين يرقد، إذا رغبتم فى زيارته». أومأت برأسى موافقًا، ولكنى كنت أعلم أن فرص العودة للقرية ضئيلة، كما أننا لا نملك أى قدرة على التحكم فى مستقبلنا. كنا نعرف فقط كيف نبقى على قيد الحياة.

أثناء مغادرتنا القرية اصطف الجميع لمشاهدتنا. كنت خائفًا، حيث ذكرنى ذلك بوقت سيرنا عبر القرية ونحن نحمل جسد سيدو. مررنا بالمدافن، التى كانت فى أطراف البلدة، ونحن ننطلق إلى الطريق الذى يقود إلى حيث كنا نأمل أن نجتمع مرة أخرى مع عائلاتنا. اخترقت أشعة الشمس ساحة المقبرة، وأثناء وقوفنا هناك هب نسيم خفيف أدى إلى تمايل الأشجار برشاقة حول القبور. شعرت بقشعريرة خلف رقبتى، وكأن شخصًا ما ينفخ عليها برفق. وكان خيط من الدخان يتصاعد من القرية يشق طريقه إلى السماء. راقبته حتى اختفى. كنا نبتعد تاركين صديقنا، أو كما كانت جدتى تقول: «لقد انتهت رحلته المؤقتة فى هذا العالم»، ونحن، من الناحية الأخرى، لابد أن نستمر.

عندما ابتعد بنا المسير، بدأنا جميعًا فى النشيج. تلاشى صياح الديكة، فازداد شعورنا بوطأة الصمت. ذلك الصمت الذى كان يحمل تساؤلاً عمن يكون التالى الذى سوف يتركنا؟ كان السؤال فى أعيننا ونحن ننظر إلى بعضنا البعض. مشينا بسرعة وكأننا نحاول أن نظل فى ضوء النهار. خائفين من هبوط الليل ليطوى صفحات حياتنا الملتبسة.

(١١)

كنا نسير فى صمت طوال الليل حتى توقفنا لننصت إلى شدو طيور الصباح تبعثر سكون اليوم. وعندما جلسنا على جانب الطريق، بدأ موريبا فى النحيب، كان يجلس بعيدًا عنا، عادة ما كان يفعل ذلك مع سيدو. أخذ يلعب بقطعة من غصن شجرة، محاولاً أن يلهى نفسه عما كان يشعر به. بدأ الجميع فيما عداى فى النشيج ثم الانتقال للجلوس بجوار موريبا، الذى أصبح يبكى بصوت عالٍ. جلست وحدى وأنا أغطى وجهى براحتى يدىّ لأكبح دموعى. وبعد دقائق قليلة توقف أصدقائى عن البكاء. وواصلنا المسير دون أن يلفظ أحدنا بأى كلمة. كنا جميعًا نعلم أننا لا نستطيع الاستسلام للحزن أكثر من فترة وجيزة لكى نستمر على قيد الحياة.

قال الحاجى: «إننى أتطلع للوصول إلى تلك القرية. آه، سوف أعانق أمى بشدة». ثم ابتسم وأضاف: «إنها دائمًا تشكو عندما أعانقها بشدة وتقول: إذا كنت تحبنى فتوقف عن الضغط على عظامى العجوزة حتى أستطيع أن أعيش مدة أطول. إنها خفيفة الدم».

قهقهنا جميعًا.

قال كاناى وهو يتمطع بيديه وكأنه يحاول إمساك الشمس: «لدى شعور بأننا سنعثر على عائلاتنا». ثم نظر إلى الحاجى الذى كان لا يستطيع

منع نفسه من الابتسام: «لقد سمعت أن لديك أختًا جميلة. وأنا لا زلت صديقك، أليس كذلك؟» بدأنا جميعًا نضحك. قفز الحاجى على ظهر كاناى وبدآ يتصارعان على الحشائش. ولما انتهيا تبعانا على الطريق وهما يغنيان إحدى أغنيات إس. إى. روجيى: «لا تنظر إلى بعين غاضبة، ولا تستهِن بى»، شاركناهما فى الغناء وكأننا كنا نعيش أمجد لحظات حياتنا. ولكِن تدريجيًّا عاد الصمت يخيم علينا.

كان جانب من السماء أزرق صافيًا، والجانب الآخر ملبدًا بالغيوم. وهبت رياح خفيفة جعلت الأغصان فى الغابة تطقطق. كان رجع صداها مثل البكاء، مثل العويل. لم أكن الوحيد الذى لاحظ ذلك. لأن أصدقائى توقفوا قليلاً وأنصتوا بانتباه. تزايدت سرعة الرياح، بدأت أوراق الأشجار تحتك ببعضها البعض وهى تقاوم الرياح. تزايد تقعقع الأغصان فى الغابة واشتد العويل. وبدا وكأن الأشجار تتألم. كانت تتمايل فى كل الاتجاهات وتلطم بعضها البعض بفروعها، وتدحرجت السحب لتغطى السماء الزرقاء فأصبحت معتمة، وتبع ذلك سقوط أمطار كثيفة صاحبها برق ورعد واستمر ذلك نحو خمس عشرة دقيقة. بعد ذلك عادت السماء إلى زرقتها. سرت مرتبكًا فى ملابسى المبتلة تحت الشمس. وأثناء الليل بدأت تمطر من جديد. تساقطت سيول الأمطار بصورة قاسية من السماء تضربنا بعنف. سرنا معظم الليل نمسح المياه عن وجوهنا لكى نرى طريقنا. وأصبح من المتعذر الاستمرار فى السير فجلسنا عند أقدام أشجار ضخمة وانتظرنا. وعندما كان البرق يضىء الغابة استطعت أن أرى أين يجلس كل شخص. كنا جميعًا جالسين وقد وضعنا رءوسنا فوق رُكبنا وأيادينا متشابكة أمامنا.

كانت الساعات الأخيرة من الليل طويلة. وعندما توقفت الأمطار، حل الضوء. كنا جميعًا نرتعش، أطراف أصابعنا شاحبة ومتجعدة.

قال موسى ضاحكًا ونحن نخرج من تحت الأشجار: «إننا نبدو مثل الدجاج المبلل».

وجدنا فتحة فى الغابة تنفذ منها أشعة الشمس فقمنا بعصر ونشر قمصاننا على قمم الشجيرات، وجلسنا تحت أشعة الشمس لتجفيف أنفسنا.

كان الوقت فى منتصف النهار تقريبًا عندما ارتدينا ملابسنا الرطبة، واستأنفنا المسير. بعد عدة ساعات سمعنا صياح ديك على مسافة بعيدة. فقفز موسى فى الهواء، وبدأنا جميعًا نضحك.

وأخيرًا اقتربنا من القرية التى كانت رؤية عائلاتنا فيها ممكنة بالفعل. لم أستطع أن أتوقف عن الابتسام. بدأت أشجار البن تحل محل الغابة، وظهرت آثار أقدام على الطريق. وسمعنا أصوات ضرب الأرز وهمسات فى الرياح. فأسرعنا الخطى حيث كانت تلك الأصوات تؤكد لنا أن الحياة أمامنا. وفى الجانب المقابل لمزرعة البن كانت هناك مزرعة موز صغيرة، وهناك التقينا برجل يقوم بتقطيع فروع الموز الناضج. لم نستطع رؤية وجهه، حيث كان رأسه مختفيًا خلف الأوراق.

قال كاناى: «مساء الخير».

نظر الرجل إلينا من خلف إحدى أوراق الموز. ومسح العرق عن جبهته ومشى نحونا. ولما اقترب ببطء وهو يشق طريقه عبر أوراق الموز الجافة محدثًا جلبة، أيقظت ملامح وجهه ذاكرتى.

كانت ملامح وجهه متغضنة قليلاً الآن، كما كان أكثر نحافة عن آخر مرة رأيته. كان اسمه جاسيمو، نجور جاسيمو[1]. وكان أحد العزاب

---

(١) نجور: لقب توقير يوضع قبل الاسم الأول للبالغين.

المشهورين فى بلدتى. وحينذاك كان كل شخص يتحدث عن أنه غير متزوج. وكان الكبار دائماً يقولون: «إنه كبير بما يكفى، ومسئول بما يكفى كى يعثر لنفسه على زوجة طيبة، ولكنه يحب أن يكون بمفرده، يحب تلك الحياة التى يتمتع فيها بالحرية». لم يكن هو يعلق بأى شىء على ذلك أو ينزعج مما يقولون. كان يطهو طعامه بنفسه، وعندما يكون متعبًا ولا يستطيع الطهى كان يأكل الجارى[1] مع العسل. جاء وقت استمر فيه يتناول الجارى مع العسل لأكثر من أسبوع. قررت أمى أن تعد له طبقًا كل مساء، وكانت تقول له: «إن ذلك الطعام غير صحى من أجلك»، وكان يبتسم وهو يفرك رأسه.

عندما اقترب جاسيمو من الطريق، توقف وتفحص وجوهنا. ثم ابتسم. وهنا أصبحت على يقين من أنه نجور جاسيمو الذى أعرفه. لأنه كان قد فقد إحدى أسنانه الأمامية.

«ألا ترغبون أيها الفتيان فى مساعدتى على حمل بعض الموز إلى القرية؟» وجه إلينا هذا الطلب بنفس الأسلوب الذى عادة ما ينتهجه الكبار عندما يطلبون شيئًا من الصغار، وهو أسلوب يعنى أنه لن يقبل منا أن نرفض.

قال: «تعالوا يا أولاد». وأشار إلينا لنتبعه إلى داخل مزرعة الموز. بدأنا جميعًا نتبعه داخلها وهو مستمر فى التلويح بيده وكأنه يشدنا بحبل غير مرئى. وعندما اقتربت منه وضع ذراعه فوق كتفى وفرك رأسى بيده.

قال وهو يجذب أنفى: «أما زلت مشاكسًا يا ولد؟»

قلت: «ليس هناك وقت لأكون مشاكسًا فى هذه الأيام».

«أرى أنك تبدو حزينًا جدًّا. فجبينك كان يتوقد بصورة طبيعية منذ

---

(١) طعام مجفف مصنوع من نبات الكسافا.

كنت طفلاً، وقد اعتدنا أنا ووالداك مناقشة كيف كان ذلك من غير المعتاد. كنا نعتقد أن السبب فى ذلك أنك كنت سعيدًا طوال الوقت. وكانت أمك تقول إنك تبتسم حتى أثناء نومك. ولكنك عندما بدأت شقاوتك وكنت تغضب، أصبح جبينك أكثر توقدًا. لم يكن لدينا أية تفسيرات لتوقد جبينك، وكيف يتصل ذلك بشخصيتك. وها أنت الآن لم تعد متألقًا كما كنت». توقف لحظة وهو ينظر إلىّ.

ثم ابتعد وبدأ يصدر تعليمات لرفاق رحلتى حول كيفية التقاط ذراع الموز وحملها على أكتافهم بدلاً من رءوسهم. وشرح قائلاً: «بهذه الطريقة لن تنكسر نصفين».

التقطت بعض الموز، وانتظرت جاسيمو حتى يحضر إبريق الماء الخاص به والمنجل وسباطة الموز الأخيرة. وبدأت الحديث: «ولكن كيف استطعت أن...»، ولكنه قاطعنى قائلاً: «سيكون أبواك وأخواك سعداء لرؤيتك. كانوا يتحدثون عنك كل يوم ويصلون من أجل سلامتك. أمك تبكى كل يوم وتتضرع إلى الله والأسلاف لإعادتك إليها. لقد رحل أخوك الأكبر للبحث عنك، لكنه عاد منذ أسبوع ووجهه ملىء بالحزن. أعتقد أنه يلوم نفسه لفقدك».

سقط ذراع الموز الذى كنت أحمله عندما بدأ يخبرنى بتلك الأنباء. استمر يمشى، لذا فقد التقطت الموز بسرعة وتبعته. «سوف يفاجأون حقًّا برؤيتك».

كان يمشى ببطء أمامى. وكانت أنفاسى تتلاحق، ولم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة. أردت أن ألقى الموز وأجرى بأسرع ما يمكننى إلى القرية. كانت جفونى ترتعش، وشعرت وكأن النسيم يمر من خلال رأسى، شعرت برأسى خفيفًا. جعلنى الانفعال والكآبة أشعر وكأن قلبى سينفجر

إذا انتظرت أطول من ذلك، ولكن فى مثل هذا الممر الضيق الذى كنا نسير فيه لم أستطع أن أعبر كل هؤلاء الذين يسيرون أمامى.

بعد عدة دقائق وصلنا إلى نهر، وكنت سعيدًا، لأنه يوجد نهر على أطراف معظم القرى، لذلك اعتقدت أننا سنكون هناك فى أية لحظة، ولكننا لم نكن قد وصلنا بعد.

قال جاسيمو: «القرية على الجانب الآخر من التل». كان تلاً طويلاً، وكانت الصخور على جانبى الممر، كما تركت فى وسطه بعض الصخور التى يصعب تحريكها. وكان الممر متعرجًا وصاعدًا إلى القمة، التى ما أن وصلنا إليها حتى وجد الجميع أنفسهم بحاجة إلى الراحة لدقائق قليلة. انتابنى الغضب بسبب اضطرارنا للراحة، فجلست على صخرة كبيرة بعيدًا عن المجموعة، وتتبعت عيناى الممر الترابى بنى اللون المستمر حتى أسفل التل، حيث الغابة الكثيفة، والتى لمحت من خلالها فى نظرة خاطفة سقوف القرية المصنوعة من القش والصفيح. كان جزء منى فى طريقه إلى القرية، وكان الجزء الآخر منتظرًا نافذ الصبر فوق التل. مرر جاسيمو بيننا إبريق الماء ولكننى رفضت الشرب. وعندما عاد إليه الإبريق، حملنا سبائط الموز وبدأنا النزول إلى القرية. وبدأت أنا السير قبل الآخرين جميعًا، حتى أستطيع السير بسرعة وأكون فى المقدمة.

أثناء نزولى من الهضبة سمعت صوت طلقات نارية ونباح كلاب، وأناسا يصرخون ويبكون. ألقينا الموز وبدأنا الجرى حتى نبتعد عن منحدر التل المكشوف. وبدأ دخان كثيف يتصاعد من القرية. وفى أعلى الدخان كانت شرارات اللهب تتطاير فى الهواء.

اختبأنا خلف الشجيرات القريبة، وأصغينا إلى أصوات طلقات البنادق وصرخات الرجال والنساء والأطفال. كان الأطفال ينتحبون

ويطلق الرجال صرخات عنيفة يخترق دويها الغابة وتغطى على صرخات النساء. وفى النهاية توقف إطلاق النار، وساد الكون هدوء شديد وكأنه ينصت. قلت لجاسيمو إننى أريد أن أذهب إلى القرية، فأمسكنى حتى لا أفعل، ولكننى دفعته إلى الشجيرات وعدوت هابطًا الممر بأسرع ما أستطيع. لم أكن أشعر بقدميّ. وعندما وصلت إلى القرية، كانت النيران مشتعلة فى جميع أنحائها والقذائف الفارغة تغطى الأرض مثل أوراق المانجو فى الصباح. لم أكن أعرف أين أبدأ البحث عن عائلتى. تبعنى جاسيمو وأصدقائى. ووقفنا جميعًا ننظر إلى القرية المشتعلة. كنت أتصبب عرقًا بسبب الحرارة، ولكنى لم أكن خائفًا من الجرى بين البيوت. كانت المسامير تقفز من الأسقف المصنوعة من الصفيح، فتطير فى الهواء لتهبط على الأسقف القريبة المصنوعة من القش فتؤدى إلى زيادة اضطرام النيران. وبينما وقفنا نراقب أحد الأسقف الصفيح الملتهبة وهو يطير فى الهواء، سمعنا أصوات صرخات وقرع شديد على بعد عدة بيوت. فجرينا خلف المنازل عند حافة أشجار البن، ووصلنا إلى المنزل الذى تصاعدت منه الصرخات. كان بالداخل أناس محبوسون. وكانت النيران شديدة بالفعل بالداخل، وكانت تظهر من خلال النوافذ والسقف. التقطنا أحد الهاونات، وضربنا الباب بعنف حتى انفتح، ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان. لم يخرج إلا شخصان، امرأة وطفل صغير. كانت تشتعل فيهما النيران، واندفعا كلاهما هنا وهناك وهما يرتطمان بأى شىء يقع فى طريقهما، فيجريان إلى الاتجاه المعاكس حتى يرتطما بشىء آخر. سقطت المرأة وتوقفت عن الحركة. وأطلق الطفل صرخة ألم عالية وجلس بجوار شجرة. وتوقف عن الحركة. حدث كل ذلك بسرعة كبيرة ونحن واقفون هناك متسمرين فى الأرض. ظل عويل الطفل يتردد صداه فى رأسى وكأنه اتخذ لنفسه حياة بداخلى.

كان جاسيمو يتجول بعيدًا عن المكان الذى كنت أقف فيه. وسمعناه يصرخ من الطرف الآخر للقرية. جرينا إليه. كان يرقد أكثر من عشرين شخصًا فى الأرض على وجوههم. كانوا جميعًا على صف واحد، ولا يزال الدم يندفع من مواضع إصاباتهم بالرصاص. وتدفقت سيول من الدماء على الأرض تشق طريقها تحت كل واحد منهم وكأنها توحد أجسادهم معًا. تعالى صوت نشيج جاسيمو وهو يلف كل شخص ويرى وجهه. كانت بعض أفواههم وعيونهم مفتوحة فى هيئات تكشف كم كانوا يتذللون وهم يترقبون إطلاق الرصاص من خلفهم. بعضهم استنشق وحلاً، ربما وهم يأخذون النفس الأخير. كانت معظم الجثث لرجال يقاربون بداية أو أواخر العشرينيات، وقليل منهم كان أصغر من ذلك.

فى ممرات أخرى من القرية كانت هناك بقايا نصف محترقة لهؤلاء الذين قاتلوا بشراسة لتحرير أنفسهم من داخل البيوت، فقط ليموتوا بالخارج. كانوا يرقدون على الأرض فى أوضاع مختلفة تعبر عن الألم. بعضهم يمد يده نحو رأسه، وعظام الفك البيضاء ظاهرة، وكان آخرون متكورين على أنفسهم مثل جنين متجمد داخل رحم.

بدأت النيران تخمد. وكنت أجرى فى أنحاء القرية أبحث عن شىء ما، شىء لم أكن أرغب فى رؤيته. حاولت مترددًا أن أتعرف على وجوه الجثث المحترقة، ولكن كان من المستحيل معرفة أصحابها. إلى جانب أنه كان هناك الكثير جدًّا منها.

قال لى جاسيمو وهو يشير إلى أحد البيوت المحترقة: «كانوا يقيمون فى ذلك البيت». كانت النيران قد التهمت كل إطارات الأبواب والنوافذ. وسقط الطين الذى كان محشورًا بين العروق الخشبية كاشفًا عن كتل الحبال التى كانت بقايا النيران تواصل عملها فيها.

أصيب جسدى بأكمله بصدمة شلتنى عن الحركة. كانت عيناى فقط تتحركان، تنفتحان وتنغلقان فى حركة بطيئة. حاولت أن أهز قدمىّ كمحاولة لجريان الدم فى عروقى، ولكنى سقطت على الأرض، ممسكًا بوجهى. وعلى الأرض شعرت وكأن عينىَّ تكبران حتى كادتا تخرجان من مقلتيهما. شعرت بهما تتمددان، وحرر الألم الشديد جسدى من شلل الصدمة. جريت نحو البيت، وبلا أدنى خوف دخلت ونظرت فى أرجاء الحجرات المليئة بالدخان. كانت الأرضيات مليئة بركام من الرماد المحترق. ولا توجد هيئة متكتلة لجسد بشرى بالداخل. صرخت بأقصى ما مكنتنى به رئتاى، وبدأت البكاء بأعلى ما أستطيع وأنا أضرب بيدىّ وأركل بكل قوتى كل ما أقابله من الجدران الضعيفة التى كانت لا تزال تحترق. فقدت حاسة اللمس. كانت يداى وقدماى تضرب الجدران المشتعلة ولكنى لم أكن أشعر بأى شىء. بدأ جاسيمو وبقية الأولاد يجذبوننى بعيدًا عن المنزل، وظللت أضرب وأركل وهم يجروننى إلى الخارج.

قال جاسيمو: «لقد بحثت عنهم هنا وهناك، ولكنى لم أجدهم فى أى مكان». وكنت جالسًا على الأرض وقدماى ممددتان فى الوحل، ممسكًا رأسى بيدى. كنت مليئًا بالغضب، أزفر بقوة وأغلى من داخلى، وشعرت أن قلبى سوف ينفجر. وفى نفس الوقت شعرت وكأن شيئًا ثقيلاً وضع فوق رأسى، أثقل مما أستطيع أبدًا أن أتخيل، وبدأت رقبتى تؤلمنى.

فكرت فى أننا ما لم نكن قد توقفنا للراحة فوق التل، ما لم نكن التقينا بجاسيمو، لكنت رأيت عائلتى. كانت رأسى تحترق وكأنها مشتعلة نارًا. وضعت يدىّ على أذنىّ وضغطت عليهما بلا جدوى. لم أكن أعرف ماذا يحدث لى. وقفت، وسرت خلف جاسيمو، أمسكت رقبته تحت ذراعىَّ، وعصرت بأقوى ما أستطيع. قال وهو يحاول مقاومتى: «لا أستطيع التنفس»، ودفعنى فسقطت بالقرب من يد هاون، فالتقطتها وضربت

جاسيمو بها، فسقط، وعندما قام كان أنفه يدمى. وأمسكنى أصدقائى ليبعدونى عنه. نظر جاسيمو إلىّ وقال فى حزن: «لم أكن أعرف أن ذلك سيحدث». ثم سار نحو شجرة مانجو وجلس تحتها وهو يمسح الدم المتساقط من أنفه.

* * *

قام أصدقائى بتثبيتى على الأرض، وانخرطوا فى جدل عنيف. قال البعض إن جاسيمو هو السبب الذى حال دون رؤيتنا لآبائنا وأمهاتنا. قال آخرون إنه لم يكن خطؤه، وأنه لو لم يحدث أن التقينا به لكنا الآن جميعًا فى عداد الأموات. لم أهتم بذلك، كنت أريد أن أرى عائلتى حتى لو كان ذلك يعنى أن أموت معهم. بدأ أصدقائى يتعاركون فيما بينهم، بالأقدام والأيدى، ويلقون بعضهم البعض على الأرض. دفع الحاجى جوما إلى أحد المنازل وأمسكت النار فى بنطلونه. فصرخ وهو يتدحرج فى الوحل محاولاً إطفائها. وعندما نهض جوما التقط حجرًا ورمى به الحاجى فأصابه فى مؤخرة رأسه مما أدى إلى نزف الدم على رقبته. وعندما رأى الحاجى الدم، جن جنونه، وجرى نحو جوما، ولكن جاسيمو تدخل فجذّب الحاجى بعيدًا، وربط رأسه الدامى بقطعة قماش. اعترانا جميعًا الصمت والغضب وسط الدمار الذى حل بالقرية التى كنا نظن أنها ستكون نهاية رحلتنا.

قال جاسيمو ببطء: «إنها ليست غلطة أحد»، أثارت كلماته غضبى، وأردت أن أهاجمه مرة أخرى، ولكننا سمعنا أصواتًا عالية لأناس يقتربون من القرية. فجرينا إلى مزرعة البن القريبة ورقدنا فى الوحل نرقب القرية.

دخل القرية مجموعة من المتمردين يزيد عددهم على عشرة أشخاص. كانوا يضحكون ويتبادلون ضرب الأكف مهنئين بعضهم البعض. كان

منهم اثنان يبدوان أكبر مني قليلاً. كانت ملابسهم ملطخة بالدماء، ويحمل أحدهم رأس رجل، يمسكها من شعرها. بدت الرأس وكأنها لا تزال تتألم من جذب شعرها. والدم يتساقط من المكان الذى كان يتصل بالرقبة. وكان رجل آخر من المتمردين يحمل جالونًا من الجازولين وصندوق ثقاب كبير. جلس المتمردون على الأرض وبدأوا يلعبون الورق، ويدخنون الماريجوانا، ويتباهون بما فعلوه فى ذلك اليوم.

قال أحدهم، وكان فتى نحيفًا: «لقد أحرقنا ثلاث قرى اليوم». كان يبدو مستمتعًا أكثر من الآخرين. وافقه آخر، وهو الوحيد الذى كان يرتدى زيًّا عسكريًّا كاملاً: «نعم، ثلاث قرى فى ساعات قليلة بعد الظهر، إنه أمر يستحق الفخر». توقف، وراح يتحسس بندقيته الأتوماتيكية من طراز جى٣. «لقد استمتعت شخصيًّا بإحراق هذه القرية. لقد أمسكنا الجميع هنا. ولم يهرب أحد، كم كان عملنا متقنًا. لقد نفذنا الأوامر وأعدمنا الجميع. سيكون القائد مسرورًا عندما يأتى هنا». ثم أومأ برأسه وهو ينظر إلى بقية المتمردين، الذين توقفوا عن اللعب للإنصات إليه. أومأوا برءوسهم للتعبير عن موافقتهم، وتبادلوا ضرب الأكف مع بعضهم البعض، واستأنفوا اللعب.

قال المتمرد الآخر الذى كان واقفًا: «لقد تمكن البعض فى القريتين الأخريين من الفرار»، ثم توقف وهو يفرك جبهته وكأنه يفكر كيف حدث ذلك. ثم استطرد: «ربما رأوا الدخان يتصاعد من هذه القرية وعرفوا أن شيئًا ما كان يحدث. يجب أن نغير استراتيجيتنا. فى المرة القادمة يجب أن نهاجم كل القرى فى نفس الوقت». لم يعر المتمردون الآخرون اهتمامًا كبيرًا لكلام هذا الشخص مثلما فعلوا مع من كان يرتدى الزى العسكرى. واستمروا فى اللعب وهم يتحدثون لساعات، ثم وبدون سبب ظاهر أطلقوا عدة أعيرة نارية فى الهواء. تحرك واحد من مجموعتنا فأحدثت أوراق البن الجافة بعض

الجلبة. فتوقف المتمردون عن اللعب، وجروا فى اتجاهات مختلفة لتأمين أنفسهم. وبدأ اثنان منهم يسيران فى اتجاهنا، شاهرين بندقيتيهما، ثم سارعا الخطى، ثم انبطحا أرضًا. قمنا جميعًا فى وقت واحد وكأن الأمر كان مخططًا ثم بدأنا فى الجرى. وتبعتنا الطلقات النارية فى مزرعة البن، ثم فى الغابة. كان جاسيمو فى المقدمة، وكان يعرف إلى أين يذهب، وتبعناه جميعًا.

وعندما وصلنا إلى حافة الغابة، توقف جاسيمو، وانتظر حتى نلحق به. وقال لنا: «تتبعوا الطريق مباشرة». وعندما وصلت إليه حاول أن يبتسم لى. ولا أعرف لماذا، ولكن ابتسامته جعلتنى أكثر غضبًا. جريت قبله وتتبعت الطريق الضيق الذى كانت تنمو عليه الحشائش. كنت خلف الحاجى الذى كان يفرق الشجيرات مثل غطاس ينطلق إلى سطح الماء لاستنشاق الهواء. كانت بعض الشجيرات تصفعنى بقوة، ولكنى لم أتوقف. وازداد دوى الطلقات خلفنا. جرينا لساعات متجهين داخل أعماق الغابة. وانتهى الطريق، ولكننا واصلنا الجرى حتى ابتلعت السماء الشمس وبزغ القمر. واستمرت الطلقات تطير خلفنا. كنا نرى وهج الطلقات وهى تخترق الأعشاب. ثم اختفى القمر والنجوم معه، وبدأت السماء تبكى، وأنقذتنا دموعها من الطلقات النارية.

قضينا الليل نلهث بعنف تحت الشجيرات وقد أغرقتنا مياه الأمطار. وانسحب القناصة يائسين. وبدأ جاسيمو يبكى مثل طفل صغير. كان حدوث مثل تلك الأشياء يجعلنى دائمًا أخاف. ففى سنوات طفولتى الأولى تعلمت أن الرجال الراشدين لا يبكون إلا عندما لا يكون لديهم خيار آخر. بدأ جاسيمو يتلوى على الأرض متألمًا. وعندما استجمعنا فى النهاية شجاعتنا لإنهاضه، اكتشفنا لماذا كان يبكى. لقد أصيب بطلق نارى أثناء هروبنا فى الليلة السابقة. كانت قدمه اليمنى تدمى، وبدأت تتورم. وكان يضع يده على جنبه ولا يريد أن يزحزحها. وعندما رفع الحاجى يد جاسيمو

وجدنا جانبه أيضًا ينزف. ويبدو أن يده كانت تمسك الدم من النزف، فلما رُفعت اندفع منه الدم بغزارة وكأنه مياه نهر تفيض على الضفاف. وبدأ يتصبب عرقًا، وطلب منى الحاجى أن أكبح الدم بوضع يدى على جانب جاسيمو. وفعلت ذلك، ولكن الدم استمر فى التدفق من خلال أصابعى. نظر إلىّ، وبدأت عيناه الحزينتان تغوصان فى محجريهما. وتمكن بصعوبة من رفع يده اليمنى ليمسك معصم يدى التى كانت على جنبه. وتوقف عن البكاء، رغم استمرار انهمار الدموع من عينيه، ولكن بصورة أقل من تدفق الدم من جسده. لم يستطع موسى تحمل منظر الدم ففقد الوعى. قمت أنا والحاجى بخلع قميص جاسيمو وربطناه حول جنبه لكبح الدماء المتدفقة. وراقب بقية أصحابنا ما يحدث بوجوه متوترة. وأفاق موسى ولحق بهم.

وقال لنا جاسيمو وهو يلهث: إن هناك طاحونة قريبة، وأننا لو عدنا فى اتجاه المزرعة، فسوف يرينا كيف نعود إلى الطريق. وكنا قد سرنا فى منعطف خطأ أثناء الليل. ووضع جاسيمو ذراعيه حول كتفى وكتف الحاجى. ورفعناه إلى أعلى وبدأنا السير ببطء خلال الشجيرات، وكنا نجلسه كل عدة دقائق ونمسح العرق عن جبينه.

كان الوقت بعد الظهيرة عندما بدأ جاسيمو يتنفس بقوة وعمق ويرتعش جسده بأكمله. طلب منا أن نجلسه على الأرض. وأمسك بطنه وبدأ يتلوى من جانب لآخر متألمًا. وتلاحقت أنفاسه ثم توقف عن التلوى. ورقد مستويًا على ظهره، يحملق فى السماء. كانت عيناه ثابتتين على شىء ما، وارتعشت قدماه، ثم سكنتا، وحدث نفس الشىء ليديه، وأخيرًا أصابعه، ولكن عينيه ظلتا مفتوحتين لا تتحولان عن قمة الغابة.

قال الحاجى وصوته يرتعش: «دعونا نحمله». وضعت ذراع جاسيمو حول رقبتى وفعل الحاجى نفس الشىء، ومشينا معه، كانت قدماه تُجران

فوق الأرض وذراعاه باردتين. ولا يزال جسده يتصبب عرقًا وهو مستمر في النزيف. لم ينبس أحدنا بكلمة، وعلمنا جميعًا ما الذى حدث.

عندما وصلنا فى النهاية إلى الطاحونة، كانت عينا جاسيمو لا تزالان مفتوحتين. فأغلقهما الحاجى. وجلست بجواره. كان دمه على راحة يدى ومعصمى. وشعرت بالندم لأننى ضربته بيد الهاون. وكان الدم المتجمد لا يزال فى أنفه. بدأت أبكى بهدوء. لم أكن أستطيع البكاء بقدر ما كنت أرغب. كانت الشمس تستعد لمغادرة السماء. وقد طلعت لتأخذ جاسيمو معها. جلست فقط بجانبه غير قادر على التفكير. بدأت عضلات وجهى تتصلب، وعندما هب النسيم على وجهى شعرت كم كان يقاوم الاستمتاع بالريح الباردة. وطوال الليل لم أستطع النوم. دمعت عيناى وجفتا مرارًا وتكرارًا. لم أكن أعرف ماذا أقول. حاولت لدقائق أن أتخيل ماذا كان شعور جاسيمو عندما كانت أصابعه ترتعش لتدع النفس الأخير يخرج من جسده.

(١٢)

لابد وأننا سرنا عدة أيام، فى الواقع لا أذكر، عندما فوجئنا برجلين يصوبان فوهتى بندقيتيهما نحونا، وأشارا لنا بهما أن نقترب. وسرنا بين صفين من الرجال يحملون أسلحة آلية من طراز كلاشينكوف إيه كيه ٤٧، وجى٣، وآر بى جى. كانت وجوههم داكنة وكأنهم غمسوها فى فحم أسود، وأخذوا يحملقون فينا بعيون شديدة الاحمرار. وعندما تم اقتيادنا إلى آخر الصف، كان هناك أربعة رجال على الأرض، وكانت أزياؤهم العسكرية غرقى فى دمائهم. كان أحدهم يرقد على بطنه، وعيناه مفتوحتان، وأحشاؤه الداخلية متناثرة على الأرض، استدرت برأسى بعيدًا فوقعت عيناى على رأس محطمة لرجل آخر، كان شىء ما داخل مخه لا يزال ينبض، وكان يتنفس. أصبت بالغثيان. بدأت الأشياء تدور من حولى. كان أحد الجنود ينظر إلىّ، يمضغ شيئًا ويبتسم. أخذ رشفة من زجاجة مياه ورمى وجهى بالمياه المتبقية فى الزجاجة، ثم قال: «سوف تتعود على ذلك، الجميع يتعودون على هذه المناظر فى نهاية الأمر».

اندلعت طلقات نارية بالقرب منا، وبدأ الجنود فى التحرك، وأخذونا معهم نحن الستة. وصلنا إلى أحد الأنهار، حيث كانت تطفو قوارب من الألومنيوم مزودة بمحركات تابعة للجنود. ورأينا جثث فتيان فى الحادية

عشرة والثالثة عشرة فى سراويل الجيش القصيرة ملقاة بمحاذاة النهر، فأشحنا عنها بوجوهنا. كان دوى الطلقات النارية يزداد ارتفاعًا، وأثناء صعودنا إلى القوارب انطلقت قذيفة آر بى جى من خلف الشجيرات وانفجرت عند حافة النهر. كان سطح المياه يغلى من حرارة الانفجار. جاء رجل يعدو نحو القوارب، كان يرتدى زيًّا عسكريًّا ويطلق النار على الجنود، فتح واحد ممن معى بالقارب النيران على الرجل فأرداه على الأرض. وانطلقت القوارب فى اتجاه مجرى النهر، وتم إنزالنا بالقرب من أحد روافد النهر، حيث اقتادنا جندى إلى يالى، وهى إحدى القرى التى يحتلها الجيش. وكانت قرية كبيرة بها ما يزيد على عشرة بيوت، احتل الجنود معظمها. وقاموا بقطع شجيرات الأحراش من حول القرية فيما عدا المدخل القادم من النهر الذى وصلنا من خلاله. وشرح لنا الجنود أنه بهذه الطريقة سيكون من الصعب على العدو أن يهاجمنا.

بدا الأمر فى البداية وكأننا عثرنا على الأمان فى يالى. كانت القرية عامرة بالدردشة والضحك ومفعمة بالحياة. كان الراشدون من المدنيين والعسكريين يتبادلون الحديث حول الطقس ومواسم الزراعة والصيد، ولا شىء عن الحرب. ولم نستطع فى البداية أن نفهم لماذا كان الناس يتصرفون بهذه الطريقة. ولكن بالتدريج طمأنتنا الابتسامات المرسومة على وجوه الناس إلى أنه لم يعد هناك ما يدعو للقلق. لم يكن هناك ما يعكر صفو المزاج فى القرية سوى منظر الأطفال اليتامى. كان ما يزيد على ثلاثين فتى يبلغون ما بين سبعة أعوام وستة عشر عامًا، وكنت واحدًا منهم. وفيما عدا ذلك لم تكن هناك دلائل على أن طفولتنا مهددة، بل ولا أنها قد تُسرق منا.

أقمنا فى بيت من الطوب الأسمنتى غير مكتمل البناء برفقة أولاد آخرين. وأقيمت شبكة من جذوع الأشجار كسقف للبيت. ونمنا على

الأرضية الأسمنتية فوق بطانيات صغيرة، تقاسم كل اثنين منا بطانية واحدة. وأقام الجنود موقعًا لهم فى منزل آخر من الطوب غير مكتمل أيضًا وهناك كانوا منفصلين اجتماعيًّا عن المدنيين. فى المساء كانوا يشاهدون أفلامًا سينمائية. ويعزفون الموسيقى، ويضحكون ويدخنون الماريجوانا، والتى كانت رائحتها تنتشر فى القرية بأكملها. وأثناء النهار كانوا يختلطون بالمدنيين، وكنا نحن نساعد فى المطبخ. أنا وكاناى نجلب الماء ونغسل الصحون. وكان أصدقاؤنا الباقون يساعدون فى تقطيع الباذنجان والبصل واللحم وما شابه ذلك فى المطبخ. وقد أحببت أن أشغل نفسى بالعمل طوال النهار، وأذهب وأجىء من النهر، وأغسل الأطباق بصفة مستمرة. فقد كانت الوسيلة الوحيدة التى يمكن أن تنتزعنى من الأفكار التى تسبب لى آلام الصداع الحادة. ولكن مع حلول وقت الظهيرة تكون كل الأعمال اليومية الاعتيادية قد انتهت، فالوجبة المسائية تكون جاهزة ولم يبق إلا أن تؤكل. ويجلس الجميع فى شرفات المنازل فى مواجهة ساحة القرية. الآباء يقومون بقص شعر أطفالهم، والبنات يلعبن ألعاب التصفيق والغناء، ويلعب بعض الجنود الصغار كرة القدم مع الفتيان، وكان مرحهم وتصفيقهم يمكن أن يُسمع بعيدًا عند النهر. لم تكن الحياة تمضى فى خوف أثناء النهار فى تلك القرية.

ذكرتنى ألعاب كرة القدم بالمباريات المنظمة التى كنت ألعبها عندما انتقلت عائلتى إلى مدينة موجبويمو التعدينية. وتذكرت على وجه الخصوص إحدى المباريات النهائية عندما فاز فريقى المكون من جونيور وبعض الأصدقاء. وكان والداى يشاهدان المباراة، وفى النهاية صفقت أمى وارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة، أضاء وجهها بالفخر. وسار أبى نحوى وفرك رأسى قبل أن يمسك يدى اليمنى ويرفعها إلى أعلى وهو يعلن أننى بطله. وفعل نفس الشىء لأخى جونيور. وأحضرت أمى لنا

كأسًا من المياه وأخذت ونحن نشرب تهوى لنا بغطاء رأسها القماش. وأخذ قلبى يخفق بسرعة من شدة الإثارة، وكنت أتصبب عرقًا، لدرجة أنى كنت أشعر بطعم العرق المالح المنزلق من جبينى حتى شفتىَّ. كنت أشعر وأنا أقف هناك مع عائلتى بأنى خفيف للغاية، وكأنى على وشك الطيران. تمنيت لو تطول تلك اللحظات، ليس فقط لأحتفل بانتصارنا، ولكن أيضًا لأن الابتسامة التى ارتسمت على وجهَى والدىَّ فى تلك الأمسية جعلتنى سعيدًا للدرجة التى شعرت معها أن كل عصب فى جسدى قد استيقظ وأخذ يتمايل مع النسيم العليل الذى ملأ جوارحى.

ابتعدت عن المباريات الجارية فى يالى، وجلست خلف البيوت أنظر إلى الفضاء الواسع أمامى حتى انحسر تدريجيًّا الصداع النصفى الذى كنت أشعر به. لم أخبر أى شخص بما كان يحدث لى، وحتى لم أذكر تلك الأعراض فى الصباح عندما قام الرقيب الطبيب - كما كان المدنيون يدعونه - بصف الأطفال والعائلات لمعالجتهم من الأمراض. كان الرقيب الطبيب يسأل عن أمراض الحمى والبرد والعديد من الأمراض الأخرى. ولكن لم يسأل أبدًا إن كان أحد يعانى من الكوابيس أو الصداع النصفى.

فى المساء لعب الحاجى وجوما وموريبا وكاناى بالبِلْى فوق الأرضيات الأسمنتية تحت ضوء القمر الذى نفذ إلى الداخل عبر فتحات النوافذ. بينما أصبح لموسى شعبية بين الأولاد، وكان دائمًا ينهى الليلة بحدوتة جديدة. أما أنا فكنت أجلس فى هدوء فى ركن الحجرة مطبقًا على أسنانى، حيث لم أكن أرغب فى الكشف لأصدقائى عن الألم الذى كنت أشعر به بسبب الصداع. وبعين عقلى، كنت أرى ومضات ولمحات خاطفة من المناظر التى شهدتها. وتتردد فى رأسى أنات الاحتضار المعذبة التى كان يطلقها الأطفال والنساء. بكيت فى هدوء وأنا أشعر بخفقان شديد فى رأسى كطرقات الجرس. وأحيانًا بعد أن يتوقف الصداع النصفى أكون قادرًا على

النوم لفترة قصيرة، حتى توقظنى الكوابيس الليلية. ذات ليلة حلمت أن رأسى مصابة بطلق نارى، وكنت راقدًا فى دمائى والناس يمرون علىّ فى عجلة. وجاء كلب وبدأ يلعق دمى بشراهة. ثم شمر عن أنيابه وقد استمرأ حلاوة الدم فى فمه. رغبت فى إخافته لإبعاده، ولكنى لم أكن قادرًا على الحركة. واستيقظت قبل أن يبدأ ما كنت أخشى حدوثه لى. وجدت نفسى أتصبب عرقًا ولم أستطع النوم بقية الليل.

* * *

ذات صباح أصبح الجو فى القرية فجأة متوترًا. لم يكن من الواضح ما الذى أحدث هذا التغيير. ولكن شيئًا ما كان على وشك الحدوث. تجمع كل الجنود فى ساحة القرية، وقد ارتدوا أزياءهم العسكرية، وحملوا أسلحتهم وذخائرهم فى حقائب الظهر وفى أحزمة الخصر. وعُلقت حرابهم على جانبى سراويلهم العسكرية وهم يقفون فى ثبات واضعين خوذاتهم تحت أذرعهم. سمعت صوت المدرب يلقى التعليمات أثناء ذهابى إلى النهر مع الحاجى لجلب المياه. «انتباه». «صفا». «انتباه». «صفا». وعندما عدت كان المدرب العسكرى قد توقف عن إحماء الجنود. ووقف الملازم أول جاباتى أمام رجاله ويداه معقودتان خلف ظهره. وأخذ يخاطبهم لساعات قبل أن ينصرفوا لتناول الغداء. وبينما كان الملازم أول يتحدث إلى رجاله، كنا نحن نؤدى فى هدوء واجباتنا وأعمالنا المعتادة، محاولين فى نفس الوقت التنصت على ما يقوله، ولكن لكى نسمعه كان لابد أن نقترب ونشترك فى الطابور مع الجنود، وكان ذلك مستحيلاً. ظللنا نسير طوال اليوم محاولين تخمين ماذا يمكن أن يكون الملازم أول قد قال لرجاله.

وفى المساء قام الجنود بتنظيف بنادقهم، وكانوا أحيانًا يطلقون عدة أعيرة نارية فى الهواء. تلك الطلقات العشوائية جعلت الأطفال الصغار

يغوصون بين أقدام آبائهم. وقام الجنود بتدخين السجائر والماريجوانا، وجلس البعض بمفرده، بينما راح آخرون يقومون ويمازحون بعضهم البعض حتى الليل، وقام البعض بمشاهدة أفلام سينمائية تحت إحدى خيامهم الكبيرة.

جلس الملازم أول جاباتى فى شرفة منزله وأخذ فى قراءة كتاب، ولم يكن يرفع رأسه إلى أعلى حتى عندما كان رجاله يصفرون للتعبير عن اندهاشهم من حجم وتعقيد بندقية فى أحد الأفلام الحربية التى يشاهدونها. لم يكن يرفع بصره إلا عندما يسود الهدوء. ولحظنى وأنا أنظر إليه، فدعانى للجلوس معه. كان رجلاً طويلاً، يكاد رأسه يخلو من الشعر. وكانت عيناه كبيرتين ومنسجمتين مع عظام وجنتيه البارزة، والتى بدت وكأنه يضع شيئًا فى فمه، كان شخصًا هادئًا، ولكن هدوءه كان يحمل فى طياته نفوذًا قويًّا، ويلقى الهيبة والاحترام من كل رجاله. كان وجهه داكنًا جدًّا إلى الحد الذى يتطلب التحلى بالشجاعة للنظر فى عينيه.

سألنى: «هل تحصل على ما يكفيك من الطعام هنا؟»

قلت وأنا أحاول أن أنظر لما كان يقرأ: «نعم».

قال وهو يرينى الغلاف: «إنه لشكسبير... يوليوس قيصر. هل سمعت عنه؟»

قلت له: إننى قرأت يوليوس قيصر فى المدرسة.

سألنى: «هل تتذكر أى شىء منها؟»

بدأت أتلو: «الجبناء يموتون عدة مرات قبل أن يموتوا...». وراح يتلو معى الخطبة كلها، وبمجرد أن انتهينا عادت الصرامة إلى ملامح وجهه. وتجاهلنى وبدا يغوص فى كتابه. لاحظت العروق على جبهته والتى عادت

شفافة تحت لحم وجهه، ثم اختفت وهو ينهمك فى محتويات الكتاب أو يفكر فى أى شىء آخر كان فى عقله، ابتعدت عنه بهدوء، فى الوقت الذى بدلت السماء ضياء الشمس، وحل الظلام على القرية.

عندما كنت فى السابعة من عمرى، تعودت أن أذهب إلى ساحة البلدة لأتلو مونولوجات من أعمال شكسبير للراشدين من مجتمعى. فى نهاية كل أسبوع كان الذكور البالغون يجتمعون لمناقشة شئون الجماعة. كانوا يجلسون على دكك خشبية طويلة، وفى نهاية مناقشاتهم كانوا يدعوننى لأتلو أعمال شكسبير. كان أبى يسعل بصوت عالٍ لينبه الآخرين أن يلتزموا الصمت حتى أستطيع أن أبدأ. وكان يجلس فى المقدمة وذراعاه معقودتان وتعلو وجهه ابتسامة عريضة تبدو وكأنها سوف تستغرق سنوات حتى تتلاشى. وكنت أقف على الدكة ممسكًا بعصا طويلة وكأنها سيفى. وكنت آنذاك أبدأ بيوليوس قيصر: «أيها الأصدقاء، الرومان، الفلاحون، أعيرونى آذانكم....». كنت دائمًا أتلو الخطب من ماكبث ويوليوس قيصر، فقد كانت تلك هى المفضلة لدى البالغين. وكنت دائمًا أتوق إلى القراءة لهم، وأشعر بالإثارة والانفعال، لأنها كانت تشعرنى بأننى حقًا أتحدث الإنجليزية بطلاقة.

كنت مستيقظًا عندما غادر الجنود فى منتصف الليل تاركين وراءهم صدى خطواتهم العسكرية التى أحدثت جوًّا مخيفًا فى القرية استمر حتى الفجر وخلال بقية اليوم. كان هناك عشرة جنود باقين لحماية القرية، والذين وقفوا فى مواقعهم طوال اليوم. وبمجرد أن لاح المساء مشيرًا إلى اقتراب الليل، فرض الجنود حظر تجوال بإطلاق عدة أعيرة فى الهواء وأمروا الجميع بالبقاء داخل البيوت والجلوس منخفضين على الأرض. فى تلك الليلة لم يقص موسى حكاياته، ولم يلعب موريبا البِلْى مع الأولاد الآخرين. وجلسنا صامتين قبالة الحائط ننصت إلى انفجارات القذائف

النارية على البُعد. وقبل الساعات الأخيرة من الليل مباشرة، شرع القمر فى الظهور بين السحاب كاشفًا عن وجهه من خلال النافذة المفتوحة فى المبنى، وذلك قبل أن يختفى تمامًا ويبدأ صياح الديوك.

* * *

لم يجلب الصباح معه أشعة الشمس فقط، ولكنه جاء أيضًا بالجنود القليلين الذين كانوا قادرين على العودة إلى القرية، وقد أصبحت أحذيتهم التى كانت لامعة جيدًا ـ ملطخة بالوحل. وجلسوا متفرقين عن بعضهم البعض، متشبثين بأسلحتهم بقوة، وكأنها كانت الأشياء الوحيدة التى تمنحهم الراحة والطمأنينة. جلس أحد الجنود على طوبة أسمنتية تحت المطبخ، وقد أحنى رأسه ووضعه بين يديه، وأخذ يهز جسمه. ثم وقف وسار حول القرية، ثم عاد وجلس على الطوبة الأسمنتية مرة أخرى. وفعل ذلك مرارًا وتكرارًا طوال اليوم. كان الملازم أول جاباتى على جهاز اللاسلكى، وفى لحظة معينة ألقاه على الحائط وسار إلى غرفته. أما نحن المدنيين فلم نكن نتكلم أو نتحدث إلى بعضنا البعض خلال اليوم. كنا فقط نراقب الجنون الذى يظهر على بعض الجنود.

وفى منتصف النهار وصلت مجموعة تزيد على عشرين جنديًّا إلى القرية. دهش الملازم أول وبدا عليه السرور عندما رآهم. ولكنه أخفى مشاعره بسرعة. أعد الجنود أنفسهم وغادروا إلى الحرب. لم يكن هناك شىء يمكن إخفاؤه أكثر من ذلك، فقد علمنا أن الحرب كانت وشيكة. وبسرعة، عقب مغادرة الجنود، بدأنا نسمع طلقات النيران أقرب إلى القرية. وأمر الجنود الذين كانوا يحرسون القرية الأهالى بالدخول إلى منازلهم. واستمر التراشق بنيران البنادق حتى المساء، مقاطعة زقزقة الطيور وصرير الجداجد. وفى الليل جاء الجنود يجرون إلى القرية من أجل الذخيرة وأخذ قسط من الراحة

السريعة. وتم إعادة الجنود المصابين، فقط ليموتوا أثناء جراحة على ضوء المصباح. ولم يكن الجنود على الإطلاق يحضرون القتلى من زملائهم. وكان الأسرى يتم صفهم وتطلق النار على رءوسهم.

استمرت تلك الأشياء تحدث لعدة أيام، وكل مرة كان الجنود يذهبون فيها إلى خطوط الجبهة الأمامية، يعود منهم قليلون. وأصبح أولئك الذين ظلوا فى القرية مفعمين بالقلق، وبدأوا فى إطلاق الرصاص على المدنيين الذين كانوا يسيرون ليلاً إلى المراحيض، وطلب الملازم أول من رجاله أن يقوموا بتجميع أهل القرية كلهم فى الساحة.

«فى الغابة يوجد رجال يتربصون لتدمير كل من يعيش فى هذه القرية. لقد حاربناهم بأقصى ما نستطيع، ولكنهم كثيرون جدًّا. وهم يحاصرون القرية من جميع النواحى». قال الملازم أول ذلك وهو يرسم دائرة فى الهواء بيديه. «وهم لن يستسلموا حتى يستولوا على هذه القرية. إنهم يريدون طعامنا وذخيرتنا»... توقف عن الكلام، ثم استأنف ببطء: «إن بعضكم هنا لأنهم قتلوا آباءكم أو عائلاتكم. والبعض الآخر هنا لأنه مكان آمن. على أية حال لم يعد آمنًا الآن. ولهذا فإننا نحتاج رجالاً وفتيانًا أقوياء لمساعدتنا فى محاربة هؤلاء الأوغاد، لكى نحافظ على هذه القرية آمنة. إذا لم تكونوا ترغبون فى القتال أو المساعدة، فالأمر يعود إليكم. ولكنكم لن تحصلوا على حصص طعام ولن تبقوا فى هذه القرية. لكم مطلق الحرية أن تغادروا، لأننا نحتاج فقط لأناس يمكنهم المساعدة فى إعداد الطعام والذخيرة، وفى القتال. هناك ما يكفى من النساء لإدارة المطبخ، لذلك نحتاج إلى مساعدة الفتيان والرجال القادرين لمقاتلة هؤلاء المتمردين. لقد حان الوقت للانتقام لمقتل عائلاتكم، حتى نضمن عدم تشريد المزيد من الأطفال». ثم أخذ نفسًا عميقًا وقال: «فى صباح الغد لابد أن تصطفوا

جميعكم هنا، وسوف نختار أشخاصًا للمهام المختلفة التى يجب القيام بها». ثم غادر الساحة يتبعه رجاله.

وقفنا صامتين لبرهة من الوقت، ثم بدأنا نسير ببطء نحو أماكن النوم الخاصة بنا، فقد كان موعد حظر التجوال يقترب. وفى الداخل رحنا ـ جوما والحاجى وكاناى وموريبا وموسى وأنا ـ نناقش بهدوء ماذا سوف نفعل.

قال الحاجى: «إن المتمردين سيقتلون أى شخص من هذه القرية لأنهم سيعتبروننا أعداءهم أو جواسيس أو حتى مناصرين للطرف الآخر فى الحرب. هذا ما قاله الرقيب أول». قال ذلك شارحًا المعضلة التى نواجهها. قام بقية الأولاد الذين كانوا راقدين على أبسطتهم ولحقوا بنا، واستطرد الحاجى: «من الأفضل أن نبقى هنا فى هذا الوقت». وتنهد. لم يكن لدينا خيار، فترك القرية يعنى الموت فى أفضل الأحوال.

* * *

أعلن أحد الجنود عن طريق مكبر صوت: «انتباه، هذا أمر من الملازم أول. على الجميع أن يتجمعوا فورًا فى الساحة». وقبل أن ينتهى من آخر كلمة كانت الساحة قد امتلأت بالناس. كان الجميع فى انتظار هذه اللحظة التى سيتقرر فيها ماذا سنفعل للحفاظ على أمننا. قبل الإعلان، كنت جالسًا مع أصدقائى بالقرب من نافذة فى المطبخ. كانت وجوههم شاحبة؛ لم يظهروا أية مشاعر، ولكن عيونهم بدا عليها الحزن. حاولت أن أتبادل النظرات مع كل منهم، ولكنهم أشاحوا جميعًا بعيونهم. حاولت أن أتناول إفطارى. ولكنى مع الخوف فقدت شهيتى.

وبمجرد أن عثرنا على مكان خلف الزحام، انطلقت الأعيرة النارية فى

الهواء، ثم تلاشت إلى صمت كان أقسى من البيانات المعلنة عن الحرب.

وقف الملازم أول فوق عدة أحجار ليكون مرتفعًا بحيث يستطيع الجميع رؤيته. وانتظر حتى استقر الصمت فى عظامنا، ثم أشار بيده لبعض الجنود الذين أحضروا جثتين أمامنا ـ لرجل وفتى صغير كانا يعيشان فى القرية. كانت الدماء التى أغرقت ملابسهما لا تزال حديثة، وكانت عيونهما مفتوحة. أدار الناس رءوسهم بعيدًا فى أسى، وبدأ الأطفال الصغار والرُضّع فى البكاء. تنحنح الملازم أول، وبدأ الكلام وسط صيحات البكاء التى توقفت أخيرًا مع استمراره فى الكلام.

«أعتذر عن جعلكم ترون هاتين الجثتين الشنيعتين، خصوصًا فى وجود أطفالكم. ولكن من ناحية أخرى فقد رأى كل منا الموت أو حتى التقى به وجهًا لوجه». ثم استدار نحو الجثتين وقال برقة: «هذا الرجل وطفله قررا أن يرحلا هذا الصباح، رغم أنى قلت لهما إن ذلك سيشكل خطورة على حياتهما. أصر الرجل على أنه لا يريد أن يكون جزءًا من حربنا، لذلك فقد أصغيت لرغبته، وتركته يذهب. انظروا ماذا حدث. أطلق المتمردون عليهما النار فى المنطقة المكشوفة. وقام رجالى بإحضارهما، وقررت أن أريكم إياهما حتى تستطيعوا أن تفهموا تمامًا الحالة التى نحن عليها». ثم واصل الملازم أول كلامه لنحو ساعة، واصفًا كيف يقوم المتمردون بقطع رءوس أعضاء بعض العائلات أمام أعين ذويهم، ويحرقون قرى بأكملها بما فيها من سكان، ويجبرون الأبناء على جماع أمهاتهم، وتقطيع الأطفال حديثى الولادة إربًا لأنهم يصرخون كثيرًا، ويبقرون بطون النساء الحوامل، ويخرجون الأجنة ويقتلونها.... بصق الملازم أول على الأرض، ثم واصل حديثه، حتى كان واثقًا من أنه ذكر للحاضرين كل الأساليب التى آذى بها المتمردون كل شخص فى الحشد.

وقال: «لقد فقدوا أى شىء له علاقة بآدميتهم. إنهم لا يستحقون

الحياة. لذلك لابد أن نقتل كل فرد منهم. فكروا فى الأمر على أنه عمل يستهدف القضاء على شر عظيم. وتلك هى أعظم خدمة تستطيع أن تقوم بها من أجل وطنك». ثم سحب الملازم أول مسدسه وأطلق عيارين فى الهواء. بدأ الناس يصيحون: «لابد أن نقتلهم جميعًا، لابد أن نتأكد أنهم لن يخطوا بأقدامهم أبدًا على هذه الأرض مرة أخرى». شعرنا جميعًا بالكره الشديد للمتمردين. ملأنا التصميم والعزيمة على التصدى لمحاولتهم الاستيلاء على القرية. بدأت الوجوه كلها تظهر عليها علامات الحزن والتوتر. وتغير الشعور العام فى القرية سريعًا بعد تلك الخطبة. اختفت شمس الصباح وخيم جو كئيب. بدا وكأن السماء على وشك أن تنشق وتسقط على الأرض. كنت أشعر بالغضب والخوف، وكذلك كان أصدقائى. نظر جوما نحو الغابة ويداه خلف ظهره، وكان موريبا ممسكًا برأسه، وظل كاناى يحملق فى الأرض، ولف موسى يديه حول نفسه، وغطى الحاجى عينيه بيده اليسرى، أما أنا فقد وقفت واضعًا يدىّ حول خصرى لمنع ساقىّ من الارتعاش. طُلب من جميع النساء والبنات الحضور إلى المطبخ، والرجال والأولاد إلى مستودع الذخيرة، حيث يشاهد الجنود الأفلام السينمائية ويدخنون الماريجوانا.

وأثناء سيرنا نحو المبنى، خرج جندى حاملاً بندقيته الأتوماتيكية من طراز جى٣، ووقف أمام الباب. وابتسم لنا، ثم رفع سلاحه وأطلق عدة أعيرة فى الهواء. انبطحنا أرضًا، فضحك ثم عاد إلى الداخل. دلفنا إلى الداخل ووصلنا إلى الخيام داخل المبنى. كان المبنى بلا سقف فيما عدا قماش مشمع يغطى صناديق الذخيرة. وبنادق مكدسة بجوار الحائط: وفى المساحة الخالية المشتركة كانت توجد شاشة تليفزيون ضخمة موضوعة فوق برميل خرب. وعلى بُعد أمتار قليلة من التليفزيون وُضع مولد كهربائى إلى جواره جالونات من البنزين. خرج الجنود من خيامهم بينما

قادنا ضابط برتبة رقيب أول إلى خلف المبنى، ولم يكن أى منا قد ذهب إلى هناك من قبل. كنا أكثر من ثلاثين فتى، وكان من بيننا شيكو وجوسيا، أحدهما فى السابعة والآخر فى الحادية عشرة. وكان بقيتنا ما بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة من العمر، فيما عدا كاناى الذى كان فى ذلك الوقت فى السابعة عشرة.

خطا جندى يرتدى ثيابًا مدنية ويعلق صفارة فى رقبته نحو حامل رصت عليه بنادق كلاشينكوف ٤٧، وسلم واحدة لكل منا. وعندما وقف الجندى أمامى تجنبت النظر إلى عينيه، فقام برفع رأسى حتى التقت عينى بعينيه، وأعطانى البندقية، فأمسكتها بيدىّ المرتعشتين. ثم أعطانى خزانة البندقية فازدادت رعشتى.

قال الجندى بعد أن تفحصنا جميعًا: «يبدو أنكم جميعا تعانون من شيئين كما هو معتاد، تخافون النظر إلى رجل في عينيه مباشرة، وتخافون من حمل البندقية. يداك ترتعشان وكأن البندقية مصوبة إلى رأسك». ثم سار بطول الصف ذهابًا وإيابًا، وعاد ليستطرد: «هذه البندقية ـ كان يرفع البندقية الكلاشينكوف ٤٧ عاليًا ـ «سرعان ما تكون لك، لذلك فمن الأفضل أن تتعلمها، لا أن تخاف منها. هذا كل شيء بالنسبة لليوم».

* * *

فى تلك الليلة وقفت عند مدخل الخيمة لبرهة من الوقت، آملاً أن يخرج أصدقائى كى نتحدث، ولكن لم يفعل أحد. فقط خرج الحاجى ونظر نحوى لعدة دقائق، ولكنه استدار وهو يحدق فى الأرض. كنت على وشك أن أتجه نحوه عندما عاد يدخل خيمته. استنشقت نسيم الليل البارد الذى جلب معه رائحة الماريجوانا، تنهدت وعدت إلى خيمتى، وجلست فوق الأرض طوال الليل غير قادر على النوم. كنت فقط أجلس واضعًا رأسى

بين يدىّ، غير قادر على التفكير. كانت المرة الأولى التى أكون فيها مستيقظًا بمفردى وبدون صداع نصفى. ولما بدأت أفكر لماذا كانت تلك هى الحالة، بدأ ديك فى الصياح، رغم أن الظلام كان لا يزال سائدًا بالخارج. وظل الديك حائرًا يصيح طوال الليل حتى حل الصباح أخيرًا.

كان رفيقاى فى الخيمة، شيكو وجوسيا، أصغر ولدين فى المجموعة، لا يزالان نائمين عندما دق جرس فى الساعة السادسة صباحًا من أجل أن ننهض لبدء التدريبات. «هيا بنا، علينا أن نذهب». قلت ذلك وأنا أحاول أن أوقظهما بهزة رقيقة، ولكنهما تقلبا فقط على جنبيهما وواصلا النوم. وكان لابد أن أجرهما من القدمين بعيدًا عن الحصيرة وألطمهما حتى استيقظا. وكان الجنود قد بدأوا ينتقلون بالفعل من خيمة إلى أخرى وهم يجرون أولئك الذين كانوا لا يزالون نائمين ويرشونهم بدلاء المياه.

تجمعنا فى أرض التدريب ووزعت علينا أحذية جديدة بالإضافة إلى شورتات وفانلات «تى شيرت» عسكرية من مختلف الألوان. كانت بعض الفانلات ماركة «أديداس» والبعض الآخر ماركة «نايك». وحصلت أنا على تى شيرت «ريبوك بامب» سوداء، وكنت مبتهجًا لحصولى على الحذاء الجديد أكثر من أى شىء آخر. خلعت سراويلى القديمة التى كانت تحتوى على شرائط موسيقى الراب، وأثناء ارتدائى ملابسى العسكرية الجديدة، أخذ جندى سروالى القديم وألقاه فى النيران التى أشعلت لإحراق متعلقاتنا القديمة. جريت نحو النار لإنقاذ الشرائط، ولكنها كانت قد بدأت بالفعل فى الانصهار، فاغرورقت عيناى بالدموع، وارتعشت شفتاى وأنا أستدير مبتعدًا.

بعد أن ارتدينا الملابس الجديدة، وقفنا فى صف أفقى أقدامنا متباعدة وأيادينا مستقيمة إلى جوانبنا. وأثناء وقوفنا منتظرين، عاد بعض الجنود

من خط الجبهة، وأعادوا حشو بنادقهم وأحزمتهم الجانبية بالذخيرة. كان بعضهم ملطخين بالدماء على أرديتهم ووجوههم، ولم يكن يبدو عليهم أنهم لاحظوها، أو كانوا ببساطة يتجاهلونها. وتناولوا إفطارهم بعجالة، وقاموا للعودة إلى مكان بدا أنهم لا يرغبون فى العودة إليه. وقف كل جندى قبالة الحائط، وأخذ عدة أنفاس عميقة، وعيناه مغلقتان، ثم قبض على بندقيته بإحكام قبل أن يبدأ فى الجرى عائدًا نحو المنطقة المكشوفة.

* * *

وقف شيكو وجوسيا بعدى مباشرة، وكأن مقاسمتى الخيمة معهما تعنى أننى أصبحت أخاهما الأكبر، راقبانى خلال التدريب، وكانا يفعلان ما أفعله أنا بدلاً من أن يراقبا الجندى الذى قدم نفسه باسم العريف جاداڤى، كان شابًّا صغيرًا، أصغر من الملازم أول والرقيب أول. ولكنه كان أصلع، وجعلته الرزانة المرتسمة على وجهه يبدو أكبر سنًّا، كان لديه وجه مشدود، يبدو حتى وهو يبتسم وكأنه يمضغ شيئًا مُرَّ الطعم.

فى البداية بدأنا بالجرى حول المبنى لدقائق قليلة، ثم بدأنا نتعلم كيف نزحف فى الأحراش القريبة. كان العريف جاداڤى يرفع قبضته إلى أعلى، وعندما ينزلها إلى أسفل ننبطح داخل الأحراش ونزحف بسرعة، بدون إصدار أصوات كثيرة، حتى نصل إلى شجرة معينة. ثم ننهض فورًا وننحنى لنختبئ خلف شجيرات أخرى. وبعد ذلك نجرى عائدين إلى أرض التدريب. ولم يكن العريف يتحدث كثيرًا خلال المرحلة الأولية من التدريب. كل ما كان يقوله «لا بأس»، «سيئ جدًّا»، و« أسرع». وكان غالبًا ما يستخدم إيماءات اليد التى يقول إنها الشىء الوحيد الذى يجب أن نستخدمه بمجرد خروجنا إلى هناك، مشيرًا إلى المنطقة المكشوفة، حيث «الكلام قد يكلفك رصاصة فى رأسك»، وكان عندما يقول ذلك

يبتسم ابتسامة جامدة، وتتسع عيناه لنا حتى نضحك معه. وبعد أن قمنا بالجرى والزحف والانحناء عدة مرات. سُمح لنا أن نتناول بعض الخبز والكستر. سمح لنا العريف بدقيقة واحدة للحصول على الطعام وتناوله. ومهما كانت كمية الطعام التى لم نأكلها، كانت تؤخذ بعيدًا فى نهاية الثوانى الستين. لم يكن أى منا قادرًا على الانتهاء من الطعام فى اليوم الأول. ولكن خلال أسبوع كنا نستطيع أن نأكل أى طعام فى دقيقة واحدة. وكان ذلك هو الجزء الوحيد من التدريب الذى أتقناه.

بعد تناول الإفطار المتأخر، اصطففنا أمام العريف الذى سلمنا بندقية أمريكية من طراز كلاشينكوف ٤٧ . وعندما حان دورى، نظر إلىّ بشدة، وكأنه كان يحاول أن يقول لى إنه كان يعطينى شيئًا يستحق عنايتى. ثم لكز صدرى بإصبعه ومشى حولى. وعندما عاد أمامى، أخذ يحملق فىّ أكثر، وعيناه الحمراوان تنتفضان فى وجهه الداكن. ثم كشف عن أسنانه وكأنه يستعد لشن هجوم، وبدأت قدماى ترتجفان، عندئذ بدأ يبتسم. لكن قبل أن أبتسم له، كانت الابتسامة قد اختفت، ونفرت العروق على جبينه. وظل ينظر إلىّ بثبات، مد يده إلى صندوق خشبى وأخرج منه البندقية. وسحب منها خزانة الطلقات، وسلمنى البندقية بيديه الاثنتين. ترددت للحظة، ولكنه دفع البندقية نحو صدرى. وبيدين مرتعشتين أخذت البندقية محييًّا إياه، وجريت إلى نهاية الصف، وأنا لا زلت ممسكًا بالبندقية ولكن أخشى من النظر إليها. لم أمسك أبدًا بندقية بهذا الطول من قبل، وكانت تفزعنى. كان أقرب شىء إليها بندقية لعبة مصنوعة من البامبو عندما كنت فى السابعة. كنت وأصدقائى قد نحتنا تلك البنادق، ولعبنا ألعاب الحرب فى مزارع البن والمبانى غير مكتملة البناء بقرية جدتى. كنا نصيح، باو باو، ومن يقولها أولاً يعلن للباقين أنه «قتل فلانًا».

واصلنا التدريبات التى كنا نقوم بها قبلاً فى الصباح، ولكن فى هذه المرة

كنا نحمل معنا بندقية من طراز كلاشينكوف ٤٧ لا تحتوى على أى ذخيرة. وقمنا بالزحف والبنادق على ظهورنا، وفى أيدينا، وجرينا حول المبنى بها. كانت البنادق ثقيلة إلى حد ما بالنسبة لشيكو وجوسيا، فكانت تسقط منهما ويلتقطانها أثناء التدريب. وتوقفنا دقيقة لتناول الغداء، ثم بدأنا تدريبًا مختلفًا. ذهبنا إلى مزرعة موز قريبة، حيث تدربنا على طعن أشجار الموز بالحراب. وصاح العريف: «تخيل أن شجرة الموز هى العدو، المتمردون الذين قتلوا أبويك وعائلتك، المسئولون عن كل شىء حدث لك»، وكان يسأل: «أهذه هى الطريقة التى تطعن بها شخصًا قتل عائلتك؟» وقال: «سأريكم كيف تفعلون ذلك». أخذ حربته، وبدأ فى الصياح وطعن شجرة الموز. «إننى أطعنه أولاً فى بطنه، ثم فى الرقبة، ثم فى قلبه، وسوف أخرجه من صدره وأريه له، ثم أقلع عينيه. وتذكر أنه ربما يكون قد قتل أبويك بصورة أسوأ من ذلك. هيا استمر». ثم مسح سكينته بأوراق الموز. عندما قال ذلك انتابنا جميعًا الغضب، وأخذنا نطعن أشجار الموز بالسكاكين حتى سقطت الأشجار على الأرض. قال معلقًا «جيد»، وهو يومئ برأسه ويتأمل الشىء الذى جعل ابتسامته أوسع من المعتاد. وخلال تدريباتنا، كان يردد هذه الجملة مرارًا وتكرارًا: «تخيل العدو، المتمردين الذين قتلوا أبويك وعائلتك، هؤلاء هم المسئولون عن كل ما حدث لك».

بعد ظهيرة ذلك اليوم، تعلمنا كيف نضع الخزينة فى البندقية. والقواعد الأخرى المماثلة. وقالوا لنا إن تجاهل مفتاح الأمان فى البندقية خلال التدريب، لن يفيد إلا فى الإبطاء من حركتك. وفى المساء تعلمنا إطلاق النار على لوحات خشبية مثبتة فى أفرع الأشجار الصغيرة على حافة الغابة. ولم يكن لدى شيكو وجوسيا القوة الكافية لرفع سلاحيهما. لذلك أعطى العريف كلاً منهما قائمًا عاليًا للحفاظ على البندقية من السقوط. وفى نهاية تدريب إطلاق النار، تعلمنا كيف نفك بنادقنا ونزيتها. لأن هذه البنادق

من طراز كلاشينكوف كانت قديمة جدًّا، ومن الممكن أن تخطئ الهدف بطريقة عشوائية، وأحيانًا تتوقف عن العمل كليًّا. وفى الليل، بمجرد أن دخلنا تحت الخيمة، وقع رفيقا خيمتى نائمين فى الحال، وكأنهما فى حالة إغماء. وبدلاً من الابتسام أثناء النوم، كان شيكو يردد «باو، باو، بوم». ويردد جوسيا: «واحد، اثنين»، وهى الأعداد التى كنا نتلوها ونحن نطعن شجر الموز. وعلى الرغم من أنى كنت منهكًا تمامًا، لم أستطع النوم. كان صوت البنادق يصدع فى أذنى، وجسدى يوجعنى، وكان إصبعى السبابة يؤلمنى بشدة. لم يكن لدى وقت طوال اليوم للتفكير، ولكن لدى الآن. أستطيع أن أغضب، نعم، أبدأ بتصور سيناريوهات إطلاق النار وطعن المتمردين. «المتمردون مسئولون عن كل شىء حدث لك»، تخيلت أننى أسرت عدة متمردين فورًا. وأننى أحبسهم داخل منزل، ثم أقوم بسكب بنزين على المنزل وأشعل فيه النار، ونراقبه وهو يحترق، ونضحك.

لفت انتباهى صوت دندنة فتى يدعى لانسانا. كان ينام على بعد ثلاث خيام من خيمتى، وكان أحيانًا يدندن ألحانًا لأغانٍ لم أسمعها أبدًا من قبل حتى يذهب فى النوم. بدأ يفعل ذلك بعد أول تدريبٍ لنا على إطلاق النار. كان صدى صوته يتردد فى الغابة المظلمة، وحينما كان يتوقف، يصبح الليل أكثر هدوءًا.

(١٣)

لابد أن ذلك كان فى صباح يوم أحد عندما قال لنا العريف أن نأخذ اليوم راحة من التدريبات. نقر على راحة يده بحافة حربته، قائلاً: «إذا كنتم مؤمنين، أعنى مسيحيين، خذوا اليوم لعبادة ربكم، لأنه قد لا تكون لديكم فرصة أخرى. انصراف».

ذهبنا إلى الميدان مرتدين شورتات الجيش، والأحذية الرياضية التى أعطيت لنا. وبدأنا مباراة كرة قدم، وبينما نلعب، خرج الملازم أول ليجلس فى شرفة منزله. توقفنا عن اللعب وحييناه. «استمروا فى لعبتكم. أنا الآن أريد أن أرى جنودى يلعبون كرة القدم». وجلس على المقعد، وبدأ يقرأ رواية «يوليوس قيصر».

عندما انتهينا من لعب كرة القدم، قررنا أن نذهب إلى النهر للسباحة. كان يومًا مشمسًا، وجرينا إلى النهر، شعرت بالنسيم البارد يجفف العرق على جسدى. ولعبنا مباريات السباحة لبضع دقائق، ثم تفرقنا إلى فريقين لنلعب لعبة الكمين. الفريق الذى يمسك بكل أعضاء الفريق الآخر أولاً هو الفائز.

نادى العريف من ضفة النهر قائلاً: «هيا يا جنود، الإجازة انتهت».

توقفنا عن اللعب، وتبعناه إلى القرية. وبينما أسرعنا لنلحق به، كنا نلعب ونمازح بعضنا البعض بالدفع نحو الشجيرات.

فى القرية طلب منا أن نقوم بخدمة بنادقنا. وبينما كنا ننظفها، وزعت علينا حقائب للظهر وأحزمة للوسط. ووزع علينا صندوقان من الذخيرة، أحدهما يحتوى خزائن ذخيرة معبأة، والآخر يحتوى طلقات سائبة. أمرنا العريف أن نأخذ من الذخيرة بقدر ما نستطيع أن نحمل. وقال: «ولكن لا تأخذوا أكثر من اللازم، فنحن نريدكم أن تكونوا قادرين على الجرى بسرعة». وبينما كنت أعبئ حقيبة الظهر وحزام الوسط، نظرت ووجدت أن بعض الجنود الأقدم كانوا يفعلون نفس الشىء. بدأت يدى تهتز وقلبى يدق بسرعة. كان جميع الأولاد الآخرين، ما عدا الحاجى، يأخذون الأمر لهوًا، لأنهم ظنوا أنهم يستعدون لمزيد من التدريبات، لكننى عرفت أننا لسنا ذاهبين للتمرين، وانحنى الحاجى على جدار المبنى ممسكًا ببندقيته كما تمسك أم بطفلها. لقد عرف ذلك أيضًا.

قال العريف: «قفوا على أقدامكم، أيها الجنود». وكان قد تركنا برهة قصيرة لنغير ثيابنا. كان فى كامل زيه العسكرى، ويحمل حقيبة ظهر وحزام وسط مليئين بالذخيرة. وكان يحمل بندقية أتوماتيكية جى٣، وخوذته تحت ذراعه. وقفنا فى صف للتفتيش. كان كل الأولاد قد ارتدوا شورتات الجيش وفانلات خضراء. أعطانا العريف أربطة رأس خضراء وقال «إذا رأيتم أى شخص دون رباط رأس من هذا اللون أو خوذة مثل خوذتى، فأطلقوا عليه النار». هذا الأمر الأخير قاله بصرخة. أصبح واضحًا الآن لنا جميعًا أننا لسنا ذاهبين للتمرين. وبينما كنا نربط أربطة الرأس، وقع شيكو، الذى كان يقف بجوارى، على ظهره. كان قد حمل الكثير من الذخيرة. قام العريف بإفراغ بعض العبوات من حقيبة ظهره، وأوقفه. ملأ العرق جبهة شيكو، وكانت شفتاه ترتعشان. ربت العريف على رأسه واستمر قائلاً:

«سوف يحمل الرجال الآخرون» ـ وأشار إلى الجنود الأقدم ـ «صناديق إضافية من الذخيرة، فلا تحملوا فوق طاقتكم. والآن استريحوا، سوف نتحرك فى غضون دقائق قليلة».

سار العريف مبتعدًا. جلسنا على الأرض، وبدا على كلٍ واحد منا أنه شارد مع أفكاره. اختفت زقزقات الطيور اليومية، وبدلاً منها ارتفعت أصوات إعداد البنادق حيث كان الجنود الأكبر يستعدون. جلس شيكو وجوسيا إلى جوارى، عيونهما مبللة ومكتئبة. كل ما استطعت أن أفعله هو أن أربت على رأسيهما لطمأنتهما بأن الأمر قد يكون على ما يرام. وقفت وسرت إلى الحاجى وبقية أصدقائى. وعاهدنا بعضنا أنه أيًا كانت الأحوال فسوف نحاول، وسوف نبقى دائمًا معًا.

جاء جندى صغير بحقيبة مليئة بنوع من الأقراص، كانت تبدو مثل الكبسولات، لكنها كانت بيضاء تمامًا. أعطى كل واحد منا واحدة مع كوب من الماء. وأعلن «قال العريف إن هذه سوف تقوى طاقتكم»، قال ذلك وهو يكتم ابتسامة. وبمجرد أن تناولنا الكبسولات، كان الوقت قد حان للذهاب. قاد الجنود الراشدون الطريق. بعضهم كان يحمل صناديق ذخيرة، طول الصندوق منها يماثل قالبين من الطوب الأسمنى، وحمل البعض الآخر بنادق نصف آلية وآر بى جى. حملت بندقيتى الكلاشينكوف ٤٧ فى يدى اليمنى، وفوهتها موجهة إلى الأرض. كنت قد ألصقت خزينة إضافية بشريط لاصق إلى الخزينة الموجودة داخل البندقية. ووضعت الحربة على ردفى الأيسر، وبعض الخزائن والطلقات السائبة فى حزام الوسط. وفى حقيبة الظهر، كان لدى خزائن أخرى وطلقات أخرى. كان جوسيا وشيكو يجران طرف بندقيتيهما، فلم يكونا بالقوة الكافية لحملها، وكانت البندقية أطول منهما. كان المفترض أن نعود فى ذلك المساء، ومن ثم لم نحمل أى طعام أو ماء. قال الملازم أول: «هناك الكثير من الجداول

فى الغابة»، وهو يسير مبتعدًا، تاركًا العريف يكمل ما بدأه، والذى شرح لنا: «الأفضل أن نحمل المزيد من الذخيرة بدلاً من الطعام والماء. لأنه مع المزيد من الذخيرة سوف نكون قادرين على أن نجد الماء والطعام، ولكن مع الماء والطعام لن نعيش حتى آخر اليوم».

وقفت النساء وكبار السن فى القرية فى شرفاتهم وأخذوا يراقبوننا والجنود الراشدون يقودوننا فى المنطقة المكشوفة متجهين نحو الغابة. بكى طفل صغير بشدة بين ذراعى أمه، وكأنه كان يعرف ما ينتظرنا. ورسم ضوء الشمس ظلالنا على الأرض.

لم أشعر فى حياتى بالخوف من الذهاب إلى أى مكان مثلما شعرت فى ذلك اليوم. حتى إن حركة سحلية أثارت الرعب فى كل جسدى. هب نسيم خفيف وتخلل عقلى وكأنه انقضاض حاد جعلنى أجز على أسنانى فى ألم. بدأت الدموع تتجمع فى عينى، لكنى جاهدت لإخفائها وأمسكت بندقيتى بقوة لأتماسك.

سرنا بين أشجار الغابة حاملين بنادقنا وكأنها كانت الشىء الوحيد الذى يعطينا القوة. كنا نتنهد بهدوء، خائفين أن يتسبب مجرد التنفس فى موتنا. كان الملازم أول يقود الطابور الذى كنت فيه. رفع قبضته فى الهواء، وتوقفنا عن الحركة. ثم أنزلها ببطء فجلسنا على ركبة واحدة، وعيوننا تتفحص الغابة. كنت أريد أن أستدير لأرى وجوه أصدقائى، لكنى لم أستطع. بدأنا نتحرك بخفة بين الشجيرات حتى وصلنا إلى حافة مستنقع، حيث شكلنا كمينًا، بنادقنا موجهة نحو المستنقع. رقدنا على بطوننا وانتظرنا. كنت أرقد بجوار جوسيا، وكان شيكو بعده، وجندى من الراشدين بينى وبين جوما وموسى. نظرت حولى لأرى إن كنت أستطيع أن ألتقى بعيونهما، لكن تركيزهما كان منصبًّا على الهدف الخفى فى المستنقع. بدأت أشعر

بألم فى قمة عينىّ وارتفع الألم ببطء إلى رأسى. وشعرت بسخونة فى أذنى وراحت الدموع تجرى على وجنتى، رغم أننى لم أكن أبكى. نفرت العروق فى ذراعىّ، وكان يمكننى أن أشعر بها تنبض كما لو كانت قد بدأت تتنفس بمعزل عن باقى جسدى. انتظرنا فى سكون، كما يفعل الصيادون، أصابعنا تلمس الزناد بخفة. وشعرت أن الصمت يعذبنى.

بدأت الأشجار القصيرة فى المستنقع تهتز حيث بدأ المتمردون يشقون طريقهم بينها. لم يكونوا ظاهرين لنا بعد، لكن الملازم أول كان قد مرر إلينا كلمة بالهمس مرت من كل واحد إلى من يليه بسرعة كوقوع أحجار الدومينو: «أطلقوا النار عندما آمركم». وبينما كنا نراقب، ظهرت مجموعة من الرجال يرتدون ثيابًا مدنية من تحت الشجيرات الصغيرة. أشاروا بأيديهم، وظهر المزيد من المحاربين. كان بعضهم صبية صغارًا مثلنا. جلسوا معًا فى خط وهم يلوحون بأيديهم، يرسمون خطة استراتيجية. أمر الملازم أول بإطلاق مدافع «الآر بى جى»، لكن زعيم المتمردين سمع الكلمة وقد شقت طريقها من الغابة. فأمر رجاله: «انسحبوا!»، ولم تصب القنبلة إلا القليلين، والذين طارت أجسادهم المنشقة فى الهواء. وتبع الانفجار تبادل إطلاق النار بين الجانبين. رقدت هناك وبندقيتى موجهة أمامى، غير قادر على أن أطلقها. تخدر إصبع السبابة فى يدى. وبدأت الغابة تدور حولى. شعرت وكأن الأرض قد انقلبت أعلاها أسفلها، وكنت على وشك أن يغشى على، فتشبثت بقاعدة شجرة بيد واحدة. لم أستطع التفكير، لكنى كنت أسمع أصوات البنادق تنطلق بعيدًا فى الفراغ، وصرخات الناس يموتون متألمين. بدأت أقع فى نوع من الكابوس. وطال وجهى طرطشة دم. وفى هذا الكابوس كنت قد فتحت فمى قليلاً، فدخل فيه بعض الدم. وبينما رحت أبصقه وأمسحه عن وجهى، رأيت الجندى الذى جاءت منه. كان الدم يسيل من ثقوب الرصاص فى جسده كالماء

المندفع من روافد جديدة مفتوحة. كانت عيناه مفتوحتين على آخرهما، ولا يزال ممسكًا ببندقيته. تركزت عيناى عليه عندما سمعت جوسيا يصرخ. كان يصرخ مناديًا أمه فى أكثر ما سمعت فى حياتى من الصرخات ألمًا. وتذبذت الصرخة فى رأسى لدرجة أننى شعرت بمخى يهتز داخل رأسى وقد انفلت من مرساه.

ولمعت أطراف البنادق والطلقات المنهمرة نحونا فى ضوء الشمس. بدأت الأجساد تتكوم فوق بعضها بالقرب من نخلة قصيرة، حيث بدأت سعفاتها تنزف دمًا. بحثت عن جوسيا. كانت طلقة آر بى جى قد أطاحت بجسده الصغير عن الأرض ونزل على بقايا جذع شجرة. اهتزت ساقاه بينما خفتت صرخته تدريجيًّا حتى توقفت. كان هناك دم فى كل مكان. وبدا وكأن الطلقات كانت تسقط فى الغابة من كل الاتجاهات. زحفت إلى جوسيا ونظرت فى عينيه. كانت فيهما دموع، وكانت شفتاه ترتعشان، لكنه لم يستطع أن يتكلم. وبينما كنت أراقبه، تغيرت الدموع فى عينيه إلى دماء سرعان ما حولت عينيه البنيتين إلى اللون الأحمر. رفع ذراعه نحو كتفى وكأنه يريد أن يمسك به ويشد نفسه ليقف. ولكن فى منتصف الطريق، توقف عن الحركة. خبت طلقات البنادق فى رأسى، وبدا وكأن قلبى قد توقف وأن العالم كله قد دخل فى حالة من التوقف. غطيت عينيه بأصابعى، وشددته من فوق بقايا الشجرة. كان عموده الفقرى مكسورًا، وضعته ممددًا على الأرض والتقطت بندقيتى. لم أنتبه إلى أننى وقفت لأنزل جوسيا من فوق بقايا الشجرة. وشعرت أن شخصًا يشدنى من قدمى. كان العريف، يقول شيئًا لم أستطع فهمه. كان فمه يتحرك وبدا عليه الفزع. شدنى إلى أسفل، وبينما اصطدمت بالأرض شعرت أن مخى يهتز داخل جمجمتى مرة أخرى، واختفت حالة الصمم التى كنت قد أصبت بها مؤقتًا.

كان يصرخ: «انزل على الأرض.... أطلق النار»، وهو يزحف مبتعدًا عنى ليعود إلى موقعه. وعندما نظرت إلى مكان كمونه، رأيت موسى، كانت رأسه مغطاة بالدم. وكانت يداه تبدوان فى حالة استرخاء غير عادي. التفت ناحية المستنقع، حيث كان القناصة يجرون محاولين العبور. كان وجهى، ويداى، وقميصى، والبندقية، كلها مغطاة بالدم. رفعت بندقيتى وجذبت الزناد، وقتلت رجلاً. فجأة، وكأن شخصًا آخر يطلق النار داخل عقلى، كل المذابح التى رأيتها منذ اليوم الذى طالتنى فيه الحرب بدأت تتواتر فى رأسى. وكلما توقفت عن الضرب لتغيير الخزينة ورأيت صديقىّ الصغيرين فاقدى الحياة، كنت أعود لأوجه بندقيتى بغضب نحو المستنقع وأقتل المزيد من الناس. كنت أطلق على أى شىء يتحرك، حتى صدرت لنا الأوامر بالتراجع لأننا بحاجة إلى استراتيجية أخرى.

أخذنا البنادق والذخيرة من جسدى صديقىّ، وتركناهما هناك فى الغابة، التى اكتسبت حياة خاصة بها، وكأنها قد حبست تلك الأرواح التى غادرت الأجساد. بدت أفرع الأشجار وكأنها ترفع أياديها وتحنى رءوسها فى صلاة. زحفنا إلى الغابة وشكلنا كمينًا آخر على بعد أمتار قليلة من موقعنا الأول. ومرة أخرى، انتظرنا. كان ذلك بين المغرب والليل. حاول جدجد وحيد أن يبدأ الصرير، لكن لم يرد عليه أحد من رفاقه، فتوقف ليترك الصمت يأتى بالليل. كنت أرقد بجوار العريف، الذى كانت عيناه أكثر احمرارًا من المعتاد. تجاهل نظرتى. وسمعنا خطوات أقدام على الحشائش الجافة، وبسرعة وجهنا بنادقنا. ظهرت مجموعة من الرجال والأولاد حاملى البنادق من تحت الشجيرات، زحفوا وبسرعة احتموا وراء الأشجار. وعندما اقتربوا، فتحنا النار، وأسقطنا أولئك الذين فى المقدمة. وطاردنا الباقين إلى المستنقع، حيث فقدناهم. وهناك، كانت السرطانات بالفعل قد بدأت تأكل عيون الموتى. وتناثرت الأشلاء والجماجم المتكسرة

على رأس المستنقع، وتحولت المياه إلى دم. أزحنا الأجساد وقلبناها، وأخذنا ذخيرتهم وبنادقهم.

لم أكن خائفًا من تلك الأجساد الخالية من الحياة. كنت أحتقرها، وأركلها لأقلبها. وجدت بندقية أتوماتيكية جى٣، وبعض الذخيرة، وبندقية يد، وهذه احتفظ بها العريف لنفسه. لاحظت أن معظم حاملى البنادق الموتى من الرجال والصبية كانوا يرتدون الكثير من المجوهرات على أعناقهم وفى معاصمهم. بعضهم كان يضع أكثر من خمس ساعات ذهبية فى معصمه. وأحد الصبية، الذى كان شعره غير المصفف الآن غارقًا فى الدم، كان يرتدى تى شيرت ماركة توباك شاكور، مكتوبا عليه «كل العيون علىّ». من جانبنا فقدنا عددًا قليلاً من الجنود الراشدين، وصديقىّ موسى وجوسيا. ذهب موسى راوى الحكايات. لم يعد هناك من يروى لنا الحكايات ويضحكنا فى أوقات كنا بحاجة إلى ذلك. وجوسيا ـ لو كنت فقط قد تركته يستمر فى نومه فى اليوم الأول من التدريبات، ربما ما كان ذهب إلى خط الجبهة من الأصل.

* * *

وصلنا إلى القرية مع هبوط الليل وجلسنا مستندين إلى جدران بيت الجيش. ساد الهدوء، وكما لو كنا نخشى الصمت، بدأنا ننظف الدماء من على بنادقنا والبنادق التى جئنا بها معنا، وننظف حجرة النار ونزيتها. وأطلقنا الأسلحة فى الهواء لاختبار كفاءتها. وذهبت لتناول العشاء فى تلك الليلة، لكنى لم أستطع أن آكل. شربت الماء فقط، ولم أكن أشعر بشىء. وبينما سرت عائدًا إلى خيمتى، تعثرت بجدار أسمنتى، وسال الدم من ركبتى، لكنى لم أشعر بشىء. رقدت على ظهرى فى الخيمة وقد وضعت بندقيتى الكلاشينكوف ٤٧ على صدرى، ووضعت البندقية الأتوماتيكية جى٣

التى أحضرتها معى مستندة على وتد الخيمة. لم يحدث شىء فى رأسى، كان خاليًا، ورحت أحملق فى سقف الخيمة حتى استطعت بمعجزة أن أنعس. ورأيت فى الحلم أننى ألتقط جوسيا من فوق جذر الشجرة وأن أحد حاملى البنادق كان يقف فوقى. ووضع بندقيته على جبينى. استيقظت فورًا من الحلم وبدأت أطلق النار داخل الخيمة، حتى انتهت الطلقات الثلاثين الموجودة فى المستودع. بعد ذلك جاء العريف والملازم أول وأخذانى إلى الخارج. كان العرق يتصبب منى، وألقيا ماء على وجهى، وأعطيانى عددًا آخر من الكبسولات البيضاء. ظللت مستيقظًا طوال الليل ولم أستطع النوم لمدة أسبوع. خرجنا مرتين أخريين فى ذلك الأسبوع، ولم تكن لدى مشكلة فى إطلاق بندقيتى.

(١٤)

توقفت نوبات الصداع الحاد، والتى عرفت فيما بعد أنها صداع نصفى، بمجرد أن تم تغيير أنشطتى اليومية بالمزيد من واجبات الجندية. فبدلاً من لعب كرة القدم فى ساحة القرية أثناء النهار، أصبحت آخذ ورديات فى مواقع الحراسة حول القرية، أدخن الماريجوانا وأستنشق «براون براون»، وهو عبارة عن كوكايين مخلوط بالبارود، وكان دائماً يتم نثره على المنضدة، وبالطبع كنت آخذ عددًا أكبر من الكبسولات البيضاء، حيث أصبحت مدمنًا لها. كانت هذه الكبسولات تعطينى الكثير من الطاقة. وفى أول مرة تناولت كل هذه الأشياء فى وقت واحد، بدأت أفرز الكثير من العرق لدرجة أننى خلعت كل ملابسى. وكان جسدى يرتعش، وغامت عيناى، وفقدت السمع لعدة دقائق. سرت حول القرية بلا هدف. شعرت بعدم القدرة على البقاء فى مكان واحد لأننى شعرت بدفقة هائلة من الطاقة والخدر فى ذات الوقت. لكن بعد عدة جرعات من تلك المخدرات، أصبح كل ما أشعر به نوع من فقدان الحس بكل شىء، وطاقة كبيرة لدرجة أننى لم أستطع النوم لأسابيع. وأثناء الليل كنا نتفرج على أفلام. أفلام الحرب: رامبو: الدم الأول، رامبو ٢، كوماندو، وغيرها، وكان ذلك يتم بمساعدة مولد كهربائى أو أحيانًا بطارية سيارة. كنا جميعًا نريد أن نكون مثل رامبو؛ ونكاد لا نستطيع الصبر حتى نتمكن من تطبيق كل تلك التقنيات.

عندما كان الطعام يفرغ من عندنا، والمخدرات والذخيرة والوقود لمشاهدة أفلام الحرب، كنا نغير على معسكرات المتمردين، فى البلدات والقرى والغابات. كما كنا أيضًا نهاجم قرى مدنيين لأخذ مجندين، وأى شىء آخر نجده فيها.

يعلن الملازم أول قائلاً: «لدينا أخبار جيدة من مصادر معلوماتنا. سوف نتحرك فى خلال خمس دقائق لقتل بعض المتمردين والاستيلاء على ما لديهم من عتاد، وهى أشياء فى الأصل ملكنا». كان وجهه وهو يقول هذه الكلمات مليئًا بالثقة، وابتساماته تختفى قبل أن تكتمل. كنا نربط رءوسنا بالأقمشة الخضراء التى تميزنا عن المتمردين، وكنا نحن الصبية نذهب فى الطليعة. لم تكن هناك خرائط، كما لم يكن ثمة أسئلة. كنا فقط نتلقى أوامر لاتباع ذلك الطريق حتى نتلقى تعليمات حول ماذا نفعل بعد ذلك. كنا نسير ساعات طويلة، ولا نتوقف إلا لأكل السردين والبولوبيف، ونستنشق كوكايين، و«براون براون»، ونأخذ بعض الكبسولات البيضاء. كانت هذه المجموعة من المخدرات تمنحنا الكثير من الطاقة وتجعلنا فى حالة عنف. ولم تكن فكرة الموت تمر بعقلى بالمرة وأصبح القتل سهلاً كشرب الماء. لم ينغلق عقلى فقط بعد أول قتل، بل إنه أيضًا توقف عن تسجيل ذكريات موجعة، أو هكذا بدا لى. بعد أن نأكل ونتناول المخدرات، كنا نقوم بحراسة المنطقة بينما يأخذ الكبار بعض الراحة. كنت أشارك فى موقع حراسة مع الحاجى، وكنا نهنئ بعضنا على مدى سرعتنا فى إخراج خزينة الطلقات وإبدالها.

«فى يوم ما سوف أتولى مسئولية قرية كاملة وحدى، مثل رامبو»، قال لى الحاجى، مبتسماً وهو يفكر فى الهدف الجديد الذى وضعه لنفسه.

وقلت أنا: «أتمنى أن يكون عندى بازوكا خاص بى، مثل تلك الموجودة فى فيلم كوماندو. سوف يكون هذا جميلاً»، وضحكنا.

قبل أن نصل إلى معسكر المتمردين، كنا نحيد عن الطريق ونسير داخل الغابة. وما أن يصبح المعسكر فى مرمى أبصارنا، كنا نحاصره وننتظر أوامر الملازم أول. كان المتمردون يتجولون، بعضهم يجلس مستندًا إلى الجدران، فى حالة نعاس، والبعض الآخر، صبيان صغار مثلنا، كانوا يقفون عند نقاط الحراسة يتبادلون الماريجوانا. وكلما نظرت إلى المتمردين أثناء الغارات، كنت أشعر بالغضب يزداد داخلى، لأنهم كانوا يشبهون المتمردين الذين كانوا يلعبون الورق وسط خرائب القرية التى فقدت فيها أسرتى. وهكذا عندما كان الملازم أول يعطى الأوامر، كنت أطلق النار وأصيب أكبر عدد أستطيعه، لكنى لم أشعر أبدًا بالارتياح. بعد كل معركة كنا ندخل معسكر المتمردين، نقتل الجرحى. ثم نفتش البيوت ونجمع صفائح من الوقود، وكميات هائلة من الماريجوانا والكوكايين، وجوالات من الملابس، والأحذية، والساعات، والأرز، والسمك المجفف، والملح، والجارى، وأشياء أخرى كثيرة. كنا نحاصر المدنيين ـ رجالاً، ونساء، وصبيان، وفتيات صغيرات ـ الذين يختبئون فى الأكواخ والبيوت، ونجعلهم يحملون أسلابنا إلى القاعدة.

فى إحدى تلك الغارات، قبضنا على بعض المتمردين بعد معركة طويلة وخسائر هائلة من المدنيين. وخلعنا عن الأسرى ملابسهم، وقيدناهم حتى أصبحت صدورهم جامدة مثل الطبول.

سأل العريف أحد الأسرى: «من أين أتيتم بكل هذه الذخيرة؟»، كان الرجل له لحية مجعدة مرعبة. بصق الأسير على وجه العريف، الذى أطلق النار فى الحال على رأسه من مسافة قريبة، فسقط على الأرض وسال الدم ببطء من رأسه. صحنا صيحات الإعجاب بقوة العريف، وحييناه وهو يمر بنا. فجأة، أصيب لانسانا، أحد الصبية، بطلقات فى صدره ورأسه على يد أحد المتمردين الذى كان مختبئًا بين الشجيرات. تفرقنا حول القرية

بحثًا عمن أطلق النار. وعندما قبضنا على المتمرد الشاب، قام الملازم أول بجز رقبته بالحربة. جرى المتمرد فى القرية لمسافة قبل أن يقع على الأرض ويتوقف عن الحركة. صحنا إعجابًا مرة أخرى، ونحن نرفع بنادقنا فى الهواء، صائحين ومصفرين.

نظر الملازم أول إلى الأسرى، وقال: «لو حاول أحدهم أى محاولة للهرب، أردوه فى الحال». أوقدنا النيران فى الأسقف المصنوعة من القش، وغادرنا القرية، آخذين الأسرى معنا. ارتفعت ألسنة اللهب فوق تلك الأسقف وراحت تتأرجح وهى ترقص بتأثير نسيم العصرية، كما لو كانت تتلوى من الألم والعذاب.

* * *

أشار الملازم أول إلينا وقال مخاطبًا المدنيين: «نحن هنا لحمايتكم، وسوف نفعل كل ما نستطيع لمنع أى شىء من تهديدكم... إن عملنا عمل خطير، ولدينا أكثر الجنود كفاءة، والذين سيفعلون كل ما بوسعهم للدفاع عن هذا البلد. لسنا مثل المتمردين، أولئك الرعاع الذين يقتلون الناس بلا سبب. إننا نقتلهم فقط لصالح هذا البلد. ولذا فعليكم احترام هؤلاء الرجال» ـ وأشار إلينا مرة أخرى ـ «لأنهم يقدمون خدماتهم لكم». استمر الملازم أول فى خطبته، والتى كانت مزيجًا من محاولة إقناع المدنيين بأن ما نفعله هو الصواب، والفخر بأخلاق رجاله، ومن بينهم نحن ـ الفتيان ـ وقفت هناك أحمل بندقيتى، وشعرت بأننى شخص متميز لأننى كنت جزءًا من شىء جاد يعطينى اعتبارى، ولم أعد أهرب من أى إنسان. كانت معى الآن بندقيتى، وكما كان العريف يقول دائمًا: «هذه البندقية هى مصدر القوة فى أيامنا هذه. هى التى سوف تحميك كما سوف تمدك بكل ما تحتاج إليه، إذا عرفت كيف تستخدمها جيدًا».

لا أتذكر ما الذى دفع الملازم أول لإلقاء هذه الخطبة. كثير من الأشياء كانت تتم دون أسباب أو شرح. أحيانًا كان يُطلب منا أن نقوم للحرب فى وسط مشاهدة أحد الأفلام، وكنا نعود بعد ساعات، بعد قتل الكثير من الناس، ونكمل الفيلم، كما لو كنا عائدين إلى المشاهدة بعد قطع مؤقت فى الإرسال. وكنا دائمًا إما على خط الجبهة، أو نشاهد فيلمًا حربيًّا، أو نتناول المخدرات. لم يكن هناك وقت أقضيه وحدى أو أنهمك فى التفكير. عندما كنا نتبادل الحديث مع بعضنا، كنا لا نتحدث إلا حول أفلام الحرب، أو حول مدى إعجابنا بالطريقة التى قتل بها الملازم أول أو العريف أو واحد منا شخصًا ما. كان يبدو وكأنما ليس ثمة شىء آخر موجود خارج واقعنا هذا.

فى الصباح التالى لخطبة الملازم أول، تقدمنا للتدريب على قتل الأسرى بالطريقة التى فعلها الملازم أول. كان هناك خمسة من الأسرى والكثير من المتطلعين لهذا التدريب. ومن ثم اختار العريف بعضنا. اختار كاناى، وثلاثة أولاد آخرين، واختارنى، لعمل عرض للقتل. وضع الرجال الخمسة فى صف أمامنا فى أرض التدريب، وأيديهم مقيدة. كان المفروض أن نقطع رقابهم عندما يأمر العريف. وسوف يكسب المنافسة من يموت أسيره أسرع. أخرجنا الحراب، وكان المفترض أن ننظر فى وجوه الأسرى ونحن نخرجهم من هذا العالم. كنت قد بدأت أحدق فى الأسير الذى سأقتله بالفعل. كان وجهه متورمًا من الضرب الذى تلقاه، وبدت عيناه كما لو كانتا تراقبان شيئًا ورائى، وكان فكاه هما الجزء الوحيد الذى حمل تعبيرًا متوترًا بين ملامح وجهه؛ كل شىء آخر بدا هادئًا. لم أشعر بشىء تجاهه، لم أكن أفكر كثيرًا فيما أفعله. انتظرت فقط أن يصدر العريف الأمر. لم يكن الأسير سوى متمرد آخر مسئول عن موت عائلتى، كما أصبحت أعتقد بالفعل.

أعطى العريف الإشارة بطلقة مسدس، وأمسكت برأس الرجل وقطعت زوره بحركة واحدة سريعة. تحركت تفاحة آدم فى رقبته بعيدًا عن السكين الحاد، ولففت الحربة على حافتها المشرشرة وأنا أخرجها. لفت عيناه ونظرتا مباشرة إلى عينى قبل أن تتوقفا فجأة فى نظرة مرعبة، كما لو كانتا فى حالة دهشة من المفاجأة. مال الأسير بثقله على وهو يخرج آخر أنفاسه. ألقيته على الأرض، ومسحت الحربة عليه. وعدت إلى العريف الذى كان يحمل ساعة إيقاف. أجساد الأسرى الآخرين جاهدت فى أيدى الصبية الآخرين، وبعضهم استمر يهتز على الأرض فترة. وأعلن أنى الفائز الأول، وأن كاناى هو الثانى. وصفق لى الأولاد والجنود الآخرون، الذين كانوا جمهور المشاهدين، وكأننى قد أنجزت لتوى واحدًا من أهم إنجازات الحياة. وتم منحى رتبة «ملازم أول شبل»، وأعطى كاناى رتبة «رقيب شبل». واحتفلنا بإنجازات ذلك اليوم بالمزيد من المخدرات والمزيد من أفلام الحرب.

كانت لى خيمة خاصة، والتى لم أكن أنام فيها لأن النوم لم يكن يأتينى أبدًا. أحيانًا فى أواخر الليل، كانت الريح الهادئة تأتى إلى أذنىّ بدندنة لانسانا. وبدا وكأن الأشجار تهمس بنغمات الأغانى التى كان يغنيها. كنت أستمع قليلاً، ثم أطلق عدة طلقات فى الليل، أبعد بها تلك الدندنات عن رأسى.

(١٥)

أصبح بيتى هو القرى التى استولينا عليها وحولناها إلى قواعد لنا ونحن نمضى فى طريقنا، والغابات التى نمنا فيها. كانت فرقتى هى عائلتى، وبندقيتى هى مصدر غذائى وحمايتى، والقاعدة التى أومن بها هى أن أقتُل أو أُقتَل. لم تكن أفكارى تتسع لما يتخطى ذلك كثيرًا. ظللنا نحارب لأكثر من عامين، وأصبح القتل نشاطًا يوميًا. لم أكن أشعر بالشفقة على أحد. انتهت طفولتى دون أن أدرك، وبدا كأن قلبى قد تجمد. كنت أعرف أن النهار والليل يأتيان بسبب وجود القمر والشمس، لكن لم تكن لدى فكرة عن اليوم هل هو الأحد أو الجمعة.

كنت أرى حياتى طبيعية. لكن كل شىء بدأ يتغير فى الأسابيع الأخيرة من يناير ١٩٩٦. كنت فى الخامسة عشرة من عمرى.

خرجت فى صباح أحد الأيام مع عشرين من أعضاء فرقتى متجهين إلى «بويا»، وهى بلدة صغيرة على مسيرة يوم إلى الجنوب منا، لإحضار ذخيرة. جاء معنا الحاجى وكاناى أيضًا. وكنا فرحين لأننا سوف نرى جوما، الذى كان مستقرًا هناك الآن. أردنا أن نسمع قصصه عن الحرب، ونسمع كم من الناس قتل. كنت أيضًا أتطلع لرؤية الملازم أول. وكنت أتمنى أن نجد بعض الوقت لنتحدث عن شكسبير.

سرنا فى صفين على جانبى طريق مترب، ناظرين إلى الشجيرات الكثيفة بأعيننا المحمرة. وصلنا إلى أطراف بويا قبيل غروب الشمس، وانتظرنا بين الشجيرات بينما ذهب قائدنا قبلنا لكى لا نصاب بأيدى رفاقنا. جلسنا مستندين على الأشجار نراقب الطريق. عاد القائد بعد بضع دقائق، وأشار إلينا بالتحرك إلى البلدة. كنت أحمل بندقيتى على كتفى، وأسير بجوار كاناى والحاجى عندما دخلنا القاعدة. كانت البيوت الأسمنتية فى البلدة أكبر من تلك التى كنت أراها فى القرى الأخرى، وفى كل مكان حولنا رأينا وجوهًا غير مألوفة. كنا نومئ للجنود الآخرين ونحن نسير حول المدينة باحثين عن جوما. وجدناه جالسًا على أرجوحة شبكية فى شرفة بيت أسمنتى يواجه الغابة. كانت إلى جواره بندقية نصف آلية وبدا غارقًا فى أفكاره. سرنا ببطء نحوه لكى نفاجئه، ولكن قبل أن نصل إليه سمع وقع أقدامنا والتفت إلينا. بدا وجهه أكبر سنًا ولم يعد يومئ وهو يتكلم. صافحناه وفحصنا بندقيته.

قال الحاجى مازحًا: «أرى أنك تحمل أسلحة ثقيلة هذه الأيام».

أجاب: «حسنًا، ماذا أقول، إننى أرتفع عن مستوى الكلاشينكوف». وضحكنا جميعًا.

أخبرناه أننا سوف نعود للجلوس معه بعد دقائق، وذهبنا لتحميل حقائبنا بالذخيرة والطعام لنأخذها معنا. وبينما كنا فى مبنى الذخيرة، أخبرنا القائد أن الملازم أول يطلب منا أن نبقى الليلة وأن العشاء جاهز. لم أكن جائعًا، فعدت وحدى إلى جوما، بينما ذهب كاناى والحاجى ليأكلا. جلسنا هادئين لبرهة ثم بدأ يتحدث.

«سأخرج فى غارة غدًا صباحًا، ومن ثم قد لا أستطيع رؤيتكم قبل أن تذهبوا». وتوقف قليلاً، وهو يعبث بإصبعه فى جانب البندقية الآلية،

ثم قال: «لقد قتلت صاحب هذه البندقية فى غارتنا الأخيرة. كان قد قتل كثيرين منا قبل أن أتمكن من قتله. ومنذ ذلك الوقت استخدمتها أنا نفسى فى إحداث بعض الخسائر». وابتسم، وحيينا بعضنا بتلاقى الأكف، وضحكنا. وبعد ذلك مباشرة، تلقينا أمرًا بالذهاب إلى التجمع الليلى فى الساحة فى مركز البلدة. كان حدثًا اجتماعيًا لكى يختلط القادة بالجميع. التقط جوما بندقيته ووضع ذراعه حول كتفى ونحن نسير إلى الساحة. كان الحاجى وكاناى هناك؛ كانا قد بدآ فى التدخين بالفعل. كان الملازم أول جاباتى حاضرًا أيضًا، وكان مرحًا إلى حد ما تلك الليلة. كان معظم زملائه، رقيب أول مانسارى، والعريف جدافى، قد ماتوا، لكن الملازم أول استطاع بمعجزة أن يظل حيًا بدون خدش. واستطاع أيضًا أن يستبدل زملاءه الموتى برجال آخرين كانوا أقوياء ومنظمين. أردت أن أتحدث مع الملازم أول عن شكسبير، لكنه كان مشغولاً بالتجوال بين التجمع، يصافح الجميع. وعندما وقف أخيرًا أمامى، أمسك بيدى بقوة، وقال: «لن يهزم ماكبث أبدًا حتى تتحرك غابة برنام العظيمة وتصعد جبل دونسينين لتحاربه». وأومأ لى وقال بصوت مرتفع للجميع: «أستأذنكم أيها السادة الكرام». وانحنى وأشار بذراعه وهو يغادرنا. رفعنا بنادقنا فى الهواء وصحنا مهللين. بعد أن ذهب الملازم أول، بدأنا نغنى النشيد الوطنى: *«إلى أعلى مراتب المجد، يا أرض الحرية، ما أعظم الحب الذى نحمله لك...»*، ونسير، ندخن ونستنشق الكوكايين وبراون براون الذى كان متوافرًا بكثرة فى بويا. رحنا نتحدث طوال الليل، وكان معظم الحديث يدور حول إعجابنا بجودة المخدرات.

قبل الصباح، غادر جوما وعدد آخر من الجنود للذهاب إلى غارتهم. صافحناه، أنا والحاجى وكاناى، ووعدنا بأننا سوف نقضى معًا وقتًا أطول فى زيارتنا التالية. ابتسم جوما، وحمل بندقيته الآلية، وأسرع يركض إلى الظلام.

بعد ساعات قليلة جاءت إلى القرية شاحنة. نزل منها أربعة رجال يرتدون الجينز الأزرق وفانلات تى شيرت طبعت عليها كلمة «اليونيسيف»، بأحرف زرقاء كبيرة. كان أحدهم رجلاً أبيض، والآخر كان فاتح البشرة أيضًا، ربما كان لبنانيًّا. وكان الآخران من الوطنيين، أحدهما يحمل علامة القبيلة على خديه، والآخر لديه علامات على يديه مثل العلامات التى وضعها جدى على يدى لحمايتى من الثعابين. كان هؤلاء الرجال تبدو عليهم النظافة الشديدة، بحيث لا يمكن أن يكونوا مشتركين فى الحرب. وتم إرشادهم إلى بيت الملازم أول. كان يتوقع وصولهم. وبينما جلسوا يتحدثون فى الشرفة، كنا نراقبهم من تحت شجرة المانجو حيث جلسنا ننظف بنادقنا. وبعد برهة صافح الملازم أول الاثنين الأجانب، ودعا جندى الخدمة القائم على حراسة اللقاء. جاء الجندى نحونا وطلب منا أن نقف صفًا. ولف البلدة يجمع الفتيان قائلاً: «هذا أمر من الملازم أول!». كنا معتادين على تلقى الأوامر وفعل ما نؤمر به. شكلنا صفًّا أفقيًّا وانتظرنا.

وقف الملازم أول أمامنا، وأدينا له التحية، متوقعين أن نسمع أخبارًا عن غارتنا القادمة على أحد معسكرات المتمردين. قال لنا: «قفوا مرتاحين يا أولاد». وسار ببطء بطول الصف، وخلفه بخطوات قليلة سار الزائرون، مبتسمين.

عندما وصل الملازم أول إلى نهاية الصف، وقف واستدار، ووجه إلينا الأمر التالى: «عندما أشير إلى أحدكم، يخرج ويقف بجوار جندى الخدمة، هل تسمعون». صحنا جميعًا: «نعم، يا سيدى»، وأدينا التحية. اختفت الابتسامات من على وجوه الزائرين. «استريحوا».

راح الملازم أول يشير وهو يسير عائدًا أمام الصف: «أنت، أنت...». عندما اختارنى الملازم أول، حدقت فى وجهه، لكنه تجاهلنى واستمر فى

عملية الاختيار. واختير الحاجى أيضًا، لكنه ترك كاناى، ربما لأنه أكبر سنًّا. تم اختيار خمسة عشر منا. وأمرنا الملازم أول: «أزيلوا الخزائن من البنادق، ضعوا أسلحتكم على مفتاح الأمان وضعوها على الأرض». وضعنا أسلحتنا على الأرض، وبدأ الزوار، خاصة الأجنبيان، يبتسمون مرة أخرى. قال أحد الجنود: «انتباه، إلى الأمام»، وتبعنا الملازم أول نحو الشاحنة التى وصل فيها الزوار. وتوقفنا عندما التفت الملازم أول وواجهنا، قائلاً: «لقد كنتم جنودًا عظامًا، وأنتم تعرفون جميعًا أنكم جزء من رباط الأخوة هذا. إننى فخور لأننى خدمت بلادى معكم يا أولاد. لكن عملكم هنا انتهى، ولابد أن أرسلكم. هؤلاء الرجال سيضعونكم فى مدرسة ويوفرون لكم حياة أخرى». كان هذا هو كل ما قاله؛ ثم ابتسم وسار مبتعدًا، طالبًا من الجنود الآخرين أن يأخذوا منا كل أجهزتنا العسكرية. أخفيت حربتى داخل بنطلونى، وقنبلة يدوية فى جيبى. وعندما جاء أحد الجنود لتفتيشى، دفعته وقلت له إنه لو لمسنى فسوف أقتله. سار مبتعدًا وفتش فتى يقف إلى جانبى بدلاً منى.

ماذا كان يحدث؟ اتجهت وجوهنا نحو الملازم أول وهو يسير إلى منزله. لماذا قرر الملازم أول تسليمنا إلى هؤلاء المدنيين؟ كنا نظن أننا جزء من الحرب حتى النهاية. كانت الفرقة هى عائلتنا. والآن نؤخذ بعيدًا، بهذه البساطة، دون أى شرح. جمع بعض الجنود أسلحتنا، ووقف آخرون يحرسوننا، لكى يتأكدوا من أننا لن نحاول الجرى لأخذ بنادقنا مرة أخرى. وبينما اقتادونا إلى الشاحنة، حدقت مرة أخرى فى الشرفة التى كان يقف فيها الملازم أول الآن ينظر إلى اتجاه آخر، نحو الغابة، ويداه متقاطعتان خلف ظهره. كنت ما زلت لا أفهم ما الذى يحدث، لكنى كنت قد بدأت أشعر بالغضب والقلق. لم أكن قد افترقت عن بندقيتى منذ اليوم الذى أصبحت فيه جنديًا.

كان فى الشاحنة ثلاثة من جنود المدينة. استطعت أن أعرف ذلك من نظافة زيهم وبنادقهم. كانت أطراف بنطلوناتهم قد دُسَّت فى الأحذية عالية الرقبة، وأطراف قمصانهم أدخلت فى بنطلوناتهم. ولم تكن وجوههم قد اكتسبت صلابة، وكانت بنادقهم شديدة النظافة حتى إنى تصورت أنهم لم يطلقوا طلقة واحدة. كانت الأسلحة موضوعة على حالة الأمان. قفز الجنود من الشاحنة، وأشاروا لنا لنركب. قسمنا أنفسنا على دكتين طويلتين متواجهتين فى الشاحنة، وركب اثنان من الزوار فى الخلف معنا، الرجل الذى كانت لديه علامات على خده، والأجنبى الذى يبدو لبنانيًّا. ثم قام الجنود الثلاثة بالوقوف على الباب الخلفى، متأرجحين، قدم بداخل الشاحنة، والأخرى معلقة بالخارج.

وبينما بدأت الشاحنة تخرج من القاعدة، بدأت أشعر بغضب يغلى بداخلى، لأننى لم أكن أفهم ماذا يحدث. نظر الحاجى إلى بوجه متحير. ونظرت إلى البنادق التى يحملها جنود المدينة وحسدتهم. ابتسم الرجال الذين جاءوا لإحضارنا والشاحنة تسرع على الطريق الترابى، مثيرة أتربة خفيفة بنية غطت الأشجار وجوانب الطريق. لم تكن لدى أى فكرة إلى أين نحن ذاهبون.

* * *

كنا على الطريق لساعات. كنت قد اعتدت السير إلى كل مكان ولم أجلس فى شاحنة ولم أستقر فى مكان واحد بلا حركة فترة طويلة كهذه. كرهت هذا. وفكرت فى خطف الشاحنة وقيادتها عائدًا إلى بويا. ولكن عندما كنت أجد نفسى مستعدًا لاختطاف بندقية من الجنود، كانت الشاحنة تبطئ عند أحد مواقع التفتيش، ويقفز الجنود منها. وقد نسيت القنبلة فى الجيب الجانبى لشورت الجيش الذى أرتديه. كنت أشعر بالقلق

طوال الرحلة، وفى الواقع بدأت أنتظر مواقع التفتيش (كان هناك الكثير من تلك المواقع، كانت كثيرة جدًّا) لكى أستطيع أن أتحرر قليلاً من الضجر. لم نكن نتكلم مع بعضنا على الإطلاق. جلسنا هادئين، إلا فى الأوقات التى كنت أغمز فيها للحاجى ونحن ننتظر اللحظة المناسبة لأخذ البنادق من الجنود ودفعهم خارج الشاحنة.

كانت نقطة التفتيش الأخيرة التى مررنا بها فى ذلك اليوم مليئة بجنود جميعهم يرتدون الزى الكامل للجيش. وكانت اللوحات الخشبية البنية اللامعة على بنادق الكلاشينكوف التى يحملونها لامعة وجديدة. كانوا جنودًا من المدينة، ومن الواضح أنهم، مثل الجنود الذين كانوا فى الشاحنة معنا، لم يذهبوا إلى الحرب. وفكرت أنهم ليس لديهم فكرة ماذا يحدث حقيقة فى الأحراش فى البلاد كلها.

عبرنا نقطة الحراسة، وخرجنا من الطريق الترابى، ودخلنا فى شارع أسفلتى مزدحم. وأينما نظرت حولى، كانت هناك سيارات تذهب فى كل الاتجاهات. لم أر فى حياتى مثل هذا العدد الكبير من السيارات، والشاحنات، والأتوبيسات. مرسيدس، تويوتا، مازدا، شيفروليه، كلها تطلق أبواقها فاقدة الصبر، والموسيقى تنفجر. ولا أزال لا أعرف إلى أين نحن ذاهبون، لكنى كنت متأكدًا أننا الآن فى فريتاون، عاصمة سيراليون. لكنى لم أكن أعرف لماذا.

* * *

كانت الدنيا تظلم فى الخارج. وبينما سارت الشاحنة ببطء فى الشارع المزدحم، كانت مصابيح الشوارع تضاء. حتى المحلات والأكشاك أضيئت. ودهشت لكمية الأضواء التى كانت هناك دون سماع صوت مولد كهربائى. كنت أتعجب من مشهد المدينة المتلألئ عندما لفت الشاحنة

وخرجت من الشارع وبدأت تقفز بثقل شديد ونحن نهتز كما لو كنا فوق آلة هزازة. واستمر ذلك لبضع دقائق، ثم توقفنا. وطلب منا الجنود أن نخرج من الشاحنة ونتبع الرجال الأربعة المبتسمين الذين يرتدون قمصان اليونيسيف.

دخلنا منطقة مسورة، وبها عدة صفوف من البيوت. كانت هناك أضواء فى البيوت، وأولاد فى مثل سننا، خمسة عشر عامًا وأكبر، يجلسون فى الشرفات وعلى الدكك. تجاهلونا، وكانوا هم أيضًا يبدو عليهم الحيرة لعدم معرفتهم سبب إحضارهم إلى هنا. أشار لنا الأجنبى الذى يبدو لبنانيًّا لكى نتبعه داخل البيت، وكان وجهه مبتسماً. كانت هناك ردهة واسعة، وبها صفان من الأسرَّة المزدوجة. وفى انفعال، راح يرشد كل منا إلى سريره، والدواليب التى تحتوى الصابون، ومعجون الأسنان، وفرشة الأسنان، وفوطة، وقميصا نظيفا، وفانلات تى شيرت. كانت الأسرَّة عليها مخدات، وملاءات نظيفة، وبطانيات. لم يكن أحد منا مهتماً بالأشياء التى أرانا إياها مثلما كان هو. «لدينا بالة من الأحذية الجديدة لكم. غدًا تختارون المقاسات التى تناسبكم». وتركنا فى الغرفة وخرج، وهو يصفر لحنًا بفمه. وقفنا هناك ننظر إلى الأسِرَّة كما لو كنا لم نر شيئًا كهذا أبدًا من قبل.

وقال لنا الرجل السيراليونى ذو العلامات على خده: «تعالوا معى إلى المطبخ لتتناولوا بعض الطعام». تبعناه عابرين الوجوه المتطلعة للأولاد الذين وصلوا قبلنا. كانت عيونهم حمراء كعيوننا، ورغم ذلك كانوا يرتدون ثيابًا مدنية، بدت عليهم القذارة وكانت على وجوههم تعبيرات متوترة مثلنا. استطعت أن أشم رائحة الغابة تفوح منهم.

فى المطبخ جلسنا على جانب واحد من منضدة الطعام الطويلة. دخل الرجل إلى غرفة صغيرة فى نهاية المطبخ، وهو يدندن بأغنية مألوفة، ووضع

لنا أرزًا فى أطباق كثيرة، وأحضرها على صينية. أخذ كل منا طبقًا وبدأنا نأكل. عاد إلى الغرفة الصغيرة، وعندما عاد إلى المنضدة وقد أحضر طبق طعامه ليأكل معنا، كنا قد انتهينا من الأكل بالفعل. أصيب بصدمة، ونظر حوله ليتأكد ما إذا كنا فعلنا شيئًا آخر بالطعام. ثم تمالك نفسه وكان على وشك أن يأخذ أول قضمة، عندما دخل الأجنبيان اللذان تبدو على وجهيهما السعادة إلى غرفة الطعام وطلبا منه أن يذهب معهما. أخذ طبق الأرز معه وتبع الأجنبيين اللذين كانا بسبيلهما للخروج من المطبخ بالفعل. جلسنا بهدوء لدقيقة عندما سأل الحاجى إن كان أحد منا قد أحضر معه بعض الماريجوانا أو الكوكايين. كان أحد الأولاد معه بعض الماريجوانا دخناها سويًا، لكنها لم تكن كافية. وسأل أحد الأولاد: «ترى من أين نستطيع أن نحضر بعض المخدرات الجيدة فى هذا المكان؟»

وبينما كنا نتأمل هذا السؤال، عاد الرجل الذى أحضرنا إلى المطبخ، وقد أحضر معه مجموعة أخرى من الأولاد، أكثر من عشرين منهم. وقال لنا: «هؤلاء هم المجموعة الجديدة التى وصلت». والتفت إلى الأولاد الجدد قائلاً: «سوف أحضر لكم بعض الطعام، ومن فضلكم، خذوا وقتكم، لا داعى للأكل بسرعة». جلس الأولاد على الجانب المقابل من منضدة الطعام وأكلوا بنفس السرعة التى أكلنا بها. تشمم الرجل الهواء وسأل: «من كان يدخن ماريجوانا هنا؟» لكن لم يرد عليه أحد، فجلس وظل هادئًا. حدقنا إلى الصبية الجدد، وحدقوا هم إلينا.

كسر الحاجى الصمت قائلاً: من أين أنتم يا أولاد؟» اتسعت عيونهم وحملقوا فى الحاجى وكأنه سألهم سؤالاً أثيمًا. ووقف واحد منهم، والذى كان يبدو أكبر قليلاً ورأسه خالية من الشعر، وكور قبضته.

«ومن أنت بحق اللعنة؟ هل يبدو علينا أننا هنا لإجابة أسئلة من وغد

لعين مثلك»، وانحنى عبر المنضدة ناظرًا إلى الحاجى. وقف الحاجى ودفعه. وقع الولد، وعندما قام، جذب حربة وقفز على المنضدة نحو الحاجى. وقفنا جميعًا، مستعدين للقتال. صرخ الرجل: «توقفوا يا أولاد!» لكن لم يستمع إليه أحد. أخرجت قنبلتى اليدوية ووضعت أصابعى داخل المفتاح.

وصحت مهددًا: «هل تريدون أن تكون هذه آخر وجبة لكم، أم تجيبون عن سؤاله؟»

قال الولد الذى كان يحمل الحربة: نحن من منطقة كونو».

صاح الحاجى: «آه، منطقة مناجم الماس». كنت لا أزال ممسكًا بالقنبلة. وسألت بصرامة: «هل كنتم تحاربون ضمن الجيش أم ضمن المتمردين؟»

قال: «هل أبدو لك واحدًا من المتمردين؟ كنت أحارب مع الجيش، أحرق المتمردون قريتنا وقتلوا أبوىّ، وأنت تبدو واحدًا منهم».

قال الحاجى: «إذن كلنا كنا نحارب فى نفس الجبهة»، وجلسنا، ونحن لا نزال نحدق فى بعضنا البعض. عندما علمنا أننا كلنا كنا نحارب ضمن ما يسمى بالجيش، فى مناطق مختلفة من البلاد، هدأنا، ورحنا نتحدث فى أية قواعد كنا. ولم يكن أحدنا قد سمع عن الفرق الأخرى أو القواعد الأخرى أو ملازم أول آخر من المسئولين عن الفرق. وشرحت للفتية الآخرين أننا جئنا قبلهم بدقائق قليلة فقط. وأخبرونا أنهم أيضًا تم اختيارهم عشوائيًا، وطلب منهم قائدهم أن يتبعوا رجالاً زاروا القاعدة التى كانوا فيها. لم يكن أحد منا يعلم لماذا تركنا قوادنا نذهب. كنا محاربين ممتازين، وكنا مستعدين لخوض الحرب حتى النهاية. كان أحد الأولاد يخبرنا أنه يعتقد أن الأجانب أعطوا قادتنا نقودًا وأخذونا. ولم يعلق أحد على ذلك. كنت لا أزال أحمل القنبلة اليدوية فى يدى ونحن نتحدث. أحيانًا أثناء الحديث كنت ألتفت إلى الرجل الذى أحضرنا إلى المطبخ، كان يجلس على طرف المائدة، يرتعش.

وتصبب العرق من جبهته بغزارة. سألت الرجل: «هل تعرف لماذا تركنا قادتنا لهؤلاء المدنيين الجبناء؟»، وأنا أشير إليه بالقنبلة اليدوية. وضع رأسه تحت المنضدة كما لو كنت على وشك أن ألقى بالقنبلة عليه. وكان شديد العصبية بحيث لم يستطع الإجابة.

قال الولد الذى كان قد أخرج الحربة: «إنه مدنى جبان، هيا نسأل الأولاد الآخرين». كان اسمه مامبو، وفيما بعد أصبحنا أصدقاء. تركنا الرجل، الذى كان لا يزال تحت مائدة المطبخ، واتجهنا إلى الشرفة. وبينما كنا نسير على الدرجات، رأينا الجنود المدنيين جالسين عند مدخل المجموعة السكنية، يتحدثون ويتجاهلوننا. كان الأجنبيان قد غادرا. وسرنا إلى الأولاد الذين كانوا جالسين بهدوء فى الشرفة.

سألهم الحاجى: «هل تعرفون يا فتيان لماذا سلمكم قوادكم لهؤلاء المدنيين؟» ووقف كل الأولاد الهادئين وأداروا وجوهًا غاضبة إليه، وحدقوا صامتين.

استمر الحاجى قائلاً: «هل أصبتم بالصمم؟» والتفت ناحيتى قائلا: «إنهم لا يعرفون شيئًا».

قال أحد الأولاد بصوت عميق: «إننا لا نريد من أحد أن يضايقنا، ولا نريد أن نجيب عن أية أسئلة من أحد المدنيين».

قال مامبو غاضبًا وهو يسير نحو الصبى: «نحن لسنا مدنيين، إذا كان هناك مدنى فهو أنتم يا أولاد. إنكم ترتدون ثيابًا مدنية. أى نوع من الجنود يرتدى ثيابًا مدنية؟ هل أجبركم هؤلاء المدنيون الجبناء الذين أحضروكم هنا على ارتداء هذه الملابس؟ لابد أنكم إذن جنود ضعاف».

«نحن كنا نحارب مع الجبهة الثورية المتحدة، الجيش هو العدو. كنا نحارب من أجل الحرية، وقد قتل الجيش عائلتى ودمر قريتى. سوف أقتل

أى شخص من أوغاد الجيش كلما سنحت لى فرصة». وخلع الصبى قميصه ليقاتل مامبو، وعلى ذراعه حفرت الحروف الأولى من اسم الجبهة «RUF».

صاح مامبو: «إنهم من المتمردين»، وقبل أن يستطيع الوصول إلى حربته، ضربه الصبى بقبضته فى وجهه. فسقط، وعندما نهض كان أنفه ينزف. سحب الأولاد المتمردون الحراب القليلة التى كانت معهم واندفعوا نحونا. كانت الحرب مرة أخرى. ربما ظن أولئك الأجانب الساذجون أن إخراجنا من الحرب قد يقلل من كراهيتنا لجبهة المتمردين، لم يخطر بأذهانهم أن تغير البيئة لن يحولنا فورًا إلى صبية طبيعيين؛ كنا خطرين، وقد تعرضنا لغسيل مخ لكى نقتل. كانوا قد بدأوا لتوهم هذه العملية من إعادة التأهيل، وكان هذا أحد الدروس التى تعلموها.

عندما اندفع الصبية تجاهنا، ألقيت بالقنبلة اليدوية عليهم، لكن الانفجار تأخر، قفزنا خارجين من تحت الدكة التى دخلنا خلفها كتغطية وانطلقنا إلى الفناء المفتوح، حيث بدأنا نتقاتل. كان بعضنا يحمل حرابًا، والبعض الآخر لم يكن. أمسك صبى لم يكن معه حربة برقبتى من الخلف، وراح يلويها ليقتلنى، ولم أستطع استخدام الحربة جيدًا، ومن ثم رحت أضربه بكوعى بكل قوتى حتى ترك رقبتى. كان يمسك بطنه متوجعًا عندما استدرت وضربته بالحربة فى قدمه، انغرزت الحربة فنزعتها بقوة. وقع وبدأت أركله فى وجهه. وعندما كنت على وشك توجيه ضربة أخيرة بالحربة عندما جاء شخص من خلفى وطعن يدى بسكينه. كان ولدًا من المتمردين، وكان على وشك أن يركلنى ليسقطنى عندما وقع على وجهه. طعنه الحاجى فى ظهره. ونزع السكين واستمررنا نركل الصبى حتى توقف عن الحركة. لم أكن متأكدًا مما إذا كان فاقدًا للوعى أو ميتًا. ولم أكن أهتم. لم يصرخ أحد ولم يبك أحد أثناء المعركة. فعلى أية حال، لقد كنا نفعل هذه الأشياء لسنوات، وكنا جميعًا لا نزال تحت سيطرة المخدرات.

جاء الجنود الثلاثة والاثنان الوطنيان الذين أحضرونا إلى المركز ركضًا إلى الفناء بعد لحظات من بدء المعركة. صرخوا قائلين «توقفوا، توقفوا»، وراحوا يدفعون الصبية ليبعدوهم عن بعضهم، وحملوا المصابين جانبًا. كانت هذه فكرة سيئة، فقد قفزنا على الجنود، وأوقعناهم أرضًا، وأخذنا بنادقهم منهم. حصل صبية الجيش، نحن، على واحدة، وحصل صبية المتمردين على الأخرى. واستطاع الجندى الثالث الهرب قبل أن تتمكن إحدى المجموعتين من الإمساك به.

كانت البندقية مع مامبو، وقبل أن يتمكن الصبى المتمرد الذى أخذ الأخرى من إغلاق الأمان، كان مامبو قد أطلق عليه النار، فوقع، ووقعت البندقية. حاول صبى آخر من المتمردين أن يمسك بها، لكن مامبو كان يطلق النار على كل من يحاول ذلك. قتل مامبو عددًا قليلاً وأصاب البعض بجراح. لكن الصبية المتمردين كانوا مثابرين، وأخيرًا استطاع أحدهم أن يأخذ البندقية وأطلق النار على صبيين من جانبنا. الصبى الثانى، الذى أصيب من مسافة قريبة، استطاع طعن الصبى المتمرد فى بطنه قبل أن يقع. ألقى الصبى المتمرد بالبندقية ووقع إلى الأرض أيضًا.

وإذا بعدد أكبر من الجنود يجرون من البوابة، نحو المعركة. كنا قد قضينا فى المعركة حوالى عشرين دقيقة. كل منا يطعن ويقطع الآخرين وكذلك الرجال الذين حاولوا التفريق بيننا. أطلق الجنود عدة طلقات فى الهواء ليجعلونا نتوقف، لكننا كنا لا نزال نتعارك، فاضطروا إلى تفريقنا بالقوة. وضعوا بعضنا تحت فوهات البنادق وراحوا يركلون الآخرين. قتل ستة فى هذه المعركة: اثنان من جانبنا، وأربعة من جانب المتمردين، وجرح الكثيرون، ومن ضمنهم اثنان من الرجال الذين أحضرونا. غادرت عربات الإسعاف العسكرية حاملة الجرحى والموتى، وهى تعوى فى الليل الذى كان يولد من جديد فى تلك اللحظة. وشعرت بدوخة من أضوائها

المتحركة الدوارة. كان لدى جرح صغير فى يدى، خبأته لأنى لم أرد أن أؤخذ إلى المستشفى، كما أنه كان مجرد قطع صغير. غسلت الدم ووضعت بعض الملح عليه وربطته بقماش. أثناء المعركة ضرب مامبو أحد الصبية فى عينيه بالحربة فأعماه. وفيما بعد سمعنا أن الصبى أخذ خارج البلاد لإجراء جراحة، وأن عينه سوف يتم استبدالها بعين قط أو شيء من هذا القبيل. بعد ليلة القتال هذه، رحنا نهنئ مامبو ونثنى عليه لسلوكه القاتل. وفكرت أننى أحب لو كان فى فرقتى.

وقف جنود المدينة لحراستنا للتأكد من أننا لن ندخل فى معركة أخرى، وفى هذه الأثناء ذهبنا نحن صبية الجيش إلى المطبخ بحثًا عن طعام. جلسنا نأكل ونتحدث حول المعركة. قال لنا مامبو إنه عندما ضرب عين الصبى وأخرجها، كان الصبى يريد ضربه، لكنه لم يستطع رؤيته، ومن ثم فقد جرى إلى الحائط، واصطدمت رأسه به بعنف، فأغمى عليه. ضحكنا وحملنا مامبو، ورفعناه فى الهواء. كنا بحاجة إلى العنف لكى يرفع من أرواحنا المعنوية بعد يوم كامل من السفر الممل والتفكير فى الأسباب التى جعلت قادتنا يتركوننا نذهب.

دخل مجموعة من الجنود إلى المطبخ وأوقفوا التهليل، وطلبوا منا أن نتبعهم. كانوا يحملون بنادقهم موجهة إلينا، لكننا ضحكنا عليهم وسرنا خارجين حيث كانت عربات من عربات الجيش واقفة لنقلنا إلى مكان ما. كنا نشعر بالسعادة لأننا تعاملنا مع الصبية المتمردين حتى إننا لم نفكر فى مهاجمة جنود المدينة هؤلاء. بالإضافة إلى أنهم كانوا كثيرين جدًّا. وبدا أنهم تلقوا الرسالة بأننا لم نكن أطفالاً يمكن اللعب بهم. بعض الجنود كانوا يقفون بجوار السيارة حاملين بنادقهم بقوة ويراقبوننا بحرص. قال الحاجى: «ربما سيعيدوننا إلى الجبهة»، ولسبب ما، بدأنا جميعًا نغنى النشيد القومى ونحن سائرون إلى السيارات.

ولكننا لم نؤخذ إلى الخطوط الأمامية، بل أخذونا إلى «بيت بنين»، وهو مركز تأهيل آخر فى «كيسى تاون»، فى الأطراف الشرقية من فريتاون، بعيدًا عن بقية المدينة. كان بيت بنين قبل ذلك يسمى «مدرسة التوفيق»، وكان مركزًا للأحداث تديره الحكومة. تأكد الجنود من تفتيشنا جيدًا قبل إدخالنا. كانت دماء ضحايانا وأعدائنا لا تزال طازجة على أذرعنا وملابسنا. وكانت كلمات الملازم أول لا تزال تدور فى رأسى: «من الآن فصاعدًا، سوف نقتل أى متمرد نراه، لن نأخذ أسرى». ابتسمت قليلاً، سعيدًا لأننا استطعنا أن نتعامل مع الأولاد المدنيين، لكنى كنت أيضًا أتساءل: لماذا تم إحضارنا إلى هنا؟ قام الجنود المدنيون بحراستنا تلك الليلة ونحن نجلس فى شرفة ردهاتنا، نحدق فى الليل. كل ما كنت أفكر فيه هو ماذا سوف يحدث لبندقيتى الأتوماتيكية جى٣؟ وما الفيلم الذى سوف تتفرج فرقتى عليه فى تلك الليلة؟ وما أجود الماريجوانا والكوكايين الموجودة تحت أيديهم؟ سأل مامبو جنود المدينة: «هاى، يا رفاق، هل لديكم أى تافى [ماريجوانا] لنا؟» لكنهم تجاهلوه. كنت قد بدأت أرتعش. كانت المخدرات التى أتناولها فى الليالى السابقة، قبل إحضارنا إلى المدينة، قد بدأت تنسحب من جسمى. رحت أسير ذهابًا وإيابًا فى الشرفة، أشعر بالقلق فى بيئتى الجديدة. وبدأت رأسى تؤلمنى.

(١٦)

كان مما يثير حنقنا أن يوجهنا مدنيون إلى ما يجب أن نفعله. كانت أصواتهم، حتى وهم يدعوننا لتناول الإفطار، تثير غضبى بشدة حتى إننى كنت أضرب بقبضتى الجدار، أو دولابى، أو أى شىء أقف إلى جواره. قبل بضعة أيام، كان يمكننا أن نقرر موتهم وحياتهم. وبسبب هذه الأشياء، رفضنا فعل أى شىء طلب منا، فيما عدا الأكل. كنا نتناول شايا وخبزا فى الإفطار، وأرزا وحساء فى كل من الغداء والعشاء. كان الحساء يتكون إما من حساء أوراق الكسافا، أو أوراق البطاطس، أو البامية، وما إلى ذلك. وكنا تعساء لأننا نريد بنادقنا ومخدراتنا.

فى نهاية كل وجبة، كانت الممرضات والمشرفون يأتون للتحدث إلينا حول أهمية حضور الفحص الطبى المقرر فى المستشفى الصغير الملحق ببيت بنين، وجلسات الاستشارة لكل واحد منا فى مركزالعلاج النفسى الذى كنا نكرهه. وبمجرد أن يبدأوا الكلام، كنا نقذفهم بالأطباق، والملاعق، والطعام، والدكك. نطردهم من صالة الطعام ونضربهم. وبعد ظهر أحد الأيام، بعد أن طاردنا الممرضات والمشرفين، وضعنا دلوًا فوق رأس الطباخ، وجعلنا ندفعه فى المطبخ حتى احترقت يده على إناء حار يغلى، ووافق على وضع المزيد من اللبن فى شاينا. وبسبب هذه الأشياء، تُركنا

أساسًا طوال الأسبوع الأول بكامله نتحرك بلا هدف فى بيئتنا الجديدة. وأثناء نفس الأسبوع، كانت المخدرات تنسحب من أجسامنا. كنت أتوق بشدة إلى الكوكايين والماريجوانا حتى إننى كنت ألف قطعة ورق بيضاء وأدخنها. أحيانًا كنت أبحث فى جيوب سروال الجيش الذى كنت لا أزال أرتديه، بحثًا عن بقايا ماريجوانا أو كوكايين. اقتحمنا المستشفى الصغير وسرقنا بعض المسكنات ـ أقراص بيضاء وغير بيضاء ـ وكبسولات حمراء وصفراء. أفرغنا الكبسولات، وطحنا الأقراص وخلطناها معًا. لكن الخليط لم يعطنا التأثير الذى أردناه. ازداد ضيقنا يومًا بعد يوم، ونتيجة لذلك، عدنا إلى المزيد من العنف. فى الصباح كنا نضرب الناس من أهالى المنطقة الذين كانوا يذهبون لإحضار ماء من طلمبة قريبة. وكنا إذا لم نستطع الإمساك بهم نرميهم بالحجارة. أحيانًا كانت الدلاء تقع منهم وهم يركضون هربًا منا، فنضحك ونحن ندمر دلاءهم. توقف الجيران عن السير بالقرب من المركز، بعد أن تسببنا فى إرسال عدد منهم إلى المستشفى. وازداد تجنب أعضاء هيئة الإشراف لنا كل يوم. فبدأنا نتعارك مع بعضنا ليلاً ونهارًا.

كنا نتعارك ساعات بين الوجبات، بدون أى سبب على الإطلاق. وأثناء تلك المعارك، دمرنا معظم الأثاث، وألقينا الحشايا خارجًا فى الفناء. لم نكن نتوقف لنمسح الدم من فوق شفاهنا وأذرعنا وأرجلنا إلا عندما يرن الجرس مؤذنًا بمواعيد الوجبات. وفى الليل، بعد أن نكون قد أُنهكنا من العراك، كنا نأخذ الحشايا خارجًا فى الفناء ونجلس عليها بهدوء حتى يأتى الصباح، ويحين موعد الإفطار. وفى كل مرة نعود من الإفطار لنجد الحشايا التى أخرجناها فى الليلة الماضية قد أعيدت إلى مكانها فوق الأسرَّة. كنا نأخذها غاضبين مرة أخرى إلى الفناء، لاعنين من أخذها إلى الداخل. وفى إحدى الليالى، ونحن جالسون بالخارج على الحشايا، بدأت

تمطر. جلسنا فى المطر نمسحه عن وجوهنا وننصت إلى صوت قطراته على السقف المكسو بالآجر وتدفق المياه من المزاريب على الأرض. ظلت تمطر حوالى الساعة، لكن حتى بعد أن توقفت، ظللنا جالسين بالخارج طوال الليل على الإسفنجات المبللة التى كانت قبل ذلك حشايا.

فى الصباح التالى، عندما عدنا من الإفطار، وجدنا أن الحشايا ظلت بالخارج. ولم يكن يومًا مشمسًا، ومن ثم لم تكن جفت عند الليل. غضبنا وذهبنا للبحث عن «بوباى»، الرجل المسئول عن المخزن. كان عسكريًّا متقاعدًا وله عين حولاء. وعندما وجدناه، طلبنا منه حشايا جافة.

قال: «عليكم أن تنتظروا الحشايا التى تركتموها بالخارج حتى تجف».

قال واحد منا: «لا يمكن أن نسمح لمدنى أن يتحدث معنا بهذه الطريقة»، وزعقنا كلنا موافقين، واندفعنا نحو بوباى. اندفعنا بكل غضبنا عليه. طعنه أحد الأولاد فى قدمه فوقع. وضع يديه على رأسه ونحن نضربه بلا هوادة وتركناه راقدًا على الأرض داميًا وفاقد الوعى. وزعقنا بانفعال ونحن نسير عائدين إلى الشرفة. وبالتدريج سادنا الهدوء. كنت غاضبًا لأننى كنت أفتقد فرقتى، وأحتاج المزيد من العنف.

كان هناك رجل أمن يلاحظ المركز، فأخذ بوباى إلى المستشفى، وبعد بضعة أيام عاد بوباى أثناء وجبة الغداء، يعرج وابتسامة على وجهه. وقال لنا: «أعرف أنه ليس خطأكم أن فعلتم مثل ذلك بى»، وهو يعرج داخلاً غرفة الطعام. أثار هذا غضبنا، لأننا كنا نريد «المدنيين»، كما كنا نشير إلى أعضاء الإشراف، أن يحترمونا نحن ـ العسكريين ـ الذين كنا قادرين على إيذائهم بشدة. كان معظم أعضاء هيئة الإشراف بهذه الطريقة؛ يعودون مبتسمين بعد أن نؤذيهم. وكأنما كانوا قد تعاهدوا ألا ييأسوا منا. وكانت ابتساماتهم تجعلنا نزداد كرهًا لهم.

بدأت يداى ترتعشان بشكل لا أستطيع التحكم فيه، وعادت نوبات الصداع النصفى بعنف شديد. كنت أشعر وكأن حدّادًا يدق على سندانه داخل رأسى. كنت أسمع وأشعر بدقات المعدن فى رأسى، وكانت تلك الأصوات الحادة غير المحتملة تجعل عروقى وعضلاتى تؤلمنى بشدة. كنت أتلوى وأتدحرج على الأرض بجوار فراشى، وأحيانًا فى الشرفة. ولم يكن أحد يهتم على الإطلاق، حيث كان الجميع يعانون من انسحاب المخدر من أجسامهم بطرق مختلفة. كان الحاجى مثلاً يضرب العمود الأسمنتى لأحد المبانى حتى تدمى مفاصل يديه وبدأت عظامه تظهر. وأخذوه إلى المستشفى الصغير وأعطوه منومًا لعدة أيام حتى يتوقف عن إيذاء نفسه.

فى أحد الأيام قررنا كسر النوافذ الزجاجية فى غرف الفصول. ولا أذكر السبب، لكن بدلاً من البحث عن حجارة لكسر النوافذ كما يفعل الآخرون، قمت بضرب الزجاج بقبضتى. واستطعت أن أكسر عددًا من الألواح الزجاجية قبل أن تنحشر يدى فى الزجاج، سحبتها خارجه وبدأت تدمى بشكل مفزع بلا توقف. وكان لابد أن أذهب إلى المستشفى. كانت خطتى هى سرقة عبوة إسعافات أولية ومعالجة نفسى، لكن الممرضة كانت هناك. جعلتنى أجلس على الكاونتر وهى تنزع قطعا من الزجاج من جلدى. كانت تلوى وجهها فى كل مرة تزيل فيها قطعة زجاج انحشرت بعمق فى جلدى. لكن عندما نظرت لى، كنت لا أزال هادئًا. تفحصت وجهى لترى إن كنت أشعر بالألم. وأصابتها الحيرة، لكنها استمرت فى إزالة قطع الزجاج برقة من يدى الدامية. لم أكن أشعر بشىء. كنت فقط أريد أن أوقف الدم عن التدفق.

وقالت لى الممرضة وهى بسبيلها لتنظيف الجروح: «سوف يؤلمك هذا».

سألتنى وهى تربط يدى: «ما اسمك؟». لم أجبها.

قالت: «تعال هنا غدًا لأغير لك الضمادة، اتفقنا؟» بدأت تربت على يدى، لكنى دفعت يدها بعيدًا وسرت خارجًا.

لم أذهب إلى المستشفى فى اليوم التالى، ولكن فى نفس اليوم. فقد فقدت الوعى بسبب الصداع النصفى بينما كنت جالسًا فى الشرفة. استيقظت فى الفراش فى المستشفى. كانت الممرضة تمسح جبهتى بقماشة مبللة. أمسكت يدها، ودفعتها بعيدًا، وسرت خارجًا مرة أخرى. جلست بالخارج فى الشمس، أؤرجح جسدى أمامًا وخلفًا. كان جسدى كله يؤلمنى، وكان حلقى جافًا. وشعرت بغثيان. وتقيأت شيئًا أخضر ولزجًا، ثم فقدت الوعى مرة أخرى. عندما استيقظت بعد ساعات، كانت نفس الممرضة هناك. أعطتنى كوب ماء. وقالت: «يمكنك الذهاب إذا أردت، لكنى أقترح أن تبقى فى الفراش الليلة». كانت تقول ذلك وهى تشير بإصبعها نحوى بالطريقة التى تتحدث بها الأم مع طفل عنيد. أخذت الماء منها وشربته، ثم ألقيت الكوب على الجدار. قفزت الممرضة من مقعدها. حاولت أن أقوم وأغادر المكان، لكنى لم أكن قادرًا على الجلوس فى الفراش. ابتسمت وسارت إلى فراشى وحقنتنى. وغطتنى ببطانية وبدأت تكنس الزجاج المكسور. كنت أريد أن ألقى البطانية عنى، لكنى لم أستطع تحريك يدى. كنت أزداد ضعفًا وشعرت بثقل فى جفونى.

* * *

استيقظت على همس الممرضة وشخص آخر. كنت متحيرًا، ولم أكن متأكدًا فى أى يوم أو أى وقت كنا. شعرت برأسى تنبض قليلاً. سألت الممرضة: «كم من الوقت مضى علىّ هنا؟» وأنا أضرب بيدى على جانب السرير لألفت انتباهها.

قالت: «انظر من يتكلم، وكن حذرًا على يدك». عندما جلست قليلاً رأيت أن هناك جنديا فى الغرفة. فكرت للحظة أنه جاء ليأخذنى مرة أخرى إلى خطوط القتال. لكن عندما نظرت إليه مرة أخرى، عرفت أنه كان بالمستشفى لأسباب أخرى. كان واضحًا أنه من جنود المدينة، ثيابه مهندمة، وليست معه بندقية. كان ملازمًا أول، والمفترض أنه هنا للاطمئنان على كيفية معاملتنا طبيًّا ونفسيًّا، لكنه بدا أكثر اهتمامًا بالممرضة. وفكرت، أنا نفسى كنت ملازمًا أول فى يوم من الأيام، وبدقة أكثر، كنت «ملازم أول شبل».

فى مهمتى كملازم أول شبل، كنت مسئولاً عن وحدة صغيرة تتكون من الأولاد للقيام بمهام سريعة. كان الملازم أول والعريف جدافى قد اختارا كل من بقى من أصدقائى - الحاجى وكاناى وجوما وموريبا - لتكوين الوحدة، وهكذا أصبحنا معًا مرة أخرى. لكن هذه المرة لم نكن هاربين من الحرب. بل كنا فى الحرب، وخرجنا نستكشف القرى التى يمكن أن نجد لديها الطعام والمخدرات والذخيرة والوقود، وغير ذلك من الأشياء التى نحتاجها. وكنت أبلغ العريف بما وجدناه، ثم تقوم الفرقة كلها بالهجوم على القرية التى تجسسنا عليها، نقتل كل شخص كى نبقى أحياء.

فى إحدى حملاتنا الاستطلاعية، وجدنا قرية فجأة. كنا نظن أن هذه القرية على بعد ثلاثة أيام أو أكثر. ولكن بعد يوم ونصف فقط من المشى، بدأنا نشم رائحة زيت النخيل الذى يستخدم للطهى فى الهواء. كان يومًا جميلاً، وكان الصيف يمنحنا آخر إشراقة شمس. خرجنا من الطريق بسرعة، وسرنا بين الأحراش نحو القرية. وعندما بدأنا نرى الأسقف المغطاة بالقش، زحفنا حتى اقتربنا من القرية، لنتمكن من رؤية ما يجرى فيها. كان هناك عدد قليل من حاملى البنادق يرقدون بكسل. كما رأينا أكوامًا

من الصرر المحزومة خارج كل بيت. بدا أن المتمردين كانوا يستعدون للانتقال من القرية. وإذا عدنا إلى القاعدة لجلب بقية الفرقة، فلن نتمكن من الحصول على إمداداتهم من الطعام. ومن ثم قررنا الهجوم. أعطيت الأوامر للجميع أن ينتشروا حول القرية فى مواقع استراتيجية يمكنهم منها رؤية المكان كاملاً. وانتظرت أنا والحاجى لنعطى الصبية الثلاثة الآخرين بضع دقائق ليأخذوا مواقعهم قبل أن نبدأ فى الزحف لنكون أقرب إلى القرية تمهيدًا للهجوم. عدنا ـ نحن الاثنين ـ إلى الطريق الرئيسى وبدأنا نزحف على جانبيه. كان مع كل منا مدفع آر بى جى وخمس قنابل يدوية. ووصلنا إلى مسافة قريبة بما يكفى، وسددت بندقيتى على المجموعة التى قررت البدء بها، عندما نقر الحاجى على كتفى. وهمس لى أنه يريد أن يجرب حركات رامبو قبل أن نبدأ الإطلاق. وقبل أن أقول كلمة، كان الحاجى يضع الطين على وجهه بالفعل، باستخدام خلطة من اللعاب وبعض الماء من حقيبة ظهره ليبلل التراب. ربط بندقيته على ظهره، وأمسك بحربته وهو يتلمس بإصبعه حافتها المستقيمة، ممسكًا بها أمام وجهه. وبدأ يزحف ببطء تحت شمس منتصف اليوم التى كانت تضىء القرية مرة أخيرة قبل أن نجلب إليها الظلام.

عندما خرج الحاجى عن مجال رؤيتى، وجهت الـ «آر بى جى» إلى القرية حيث كان يجلس معظم حاملى البنادق، لتغطيته. بعد دقائق قليلة، رأيته يزحف خلف البيوت وفيما بينها. وقد يجلس بسرعة أمام الجدران ليتجنب أن يراه أحد. زحف ببطء خلف حارس كسول يستدفئ فى ضوء الشمس وقد وضع بندقيته على حجره. أمسك الحاجى بفم الحارس وقطع رقبته بالحربة. وفعل نفس الشىء بعدد آخر من الحراس. لكنه ارتكب خطأ واحدًا. لم يخبئ أجساد الذين نجح فى قتلهم. كنت مستمتعًا بمناوراته عندما جاء أحد الحراس عائدًا إلى موقعه، فرأى جسد زميله، وبدأ يجرى

ليخبر الآخرين. ولم يكن من الممكن أن أتركه يفعل هذا، فأطلقت بندقيتى الأتوماتيكية جى٣ وبسرعة أطلقت طلقتين من الـ «آر بى جى» بين حاملى البنادق.

بدأنا نتبادل إطلاق النار، لم أكن أعرف أين كان الحاجى، لكن بينما كنت أطلق، كان يزحف نحوى. كدت أطلق النار عليه، لكننى تعرفت على وجهه الطينى الذى قلد فيه رامبو. وانصرفنا إلى العمل، قتلنا كل من ظهر أمامنا. لم نضيع طلقة واحدة. كنا جميعًا قد أصبحنا ماهرين فى التصويب، وكان حجمنا الأصغر ميزة لصالحنا، لأننا يمكن أن نختبئ خلف أصغر شجيرة ونقتل الرجال الذين كانوا يتجولون نحو الأماكن التى تأتى منها الطلقات. ولكى نتمكن من القرية بالكامل، قمنا، الحاجى وأنا، بإطلاق ما تبقى من طلقات الـ «آر بى جى» قبل أن ننزل إليها.

سرنا حول القرية، وقتلنا كل من يخرج من البيوت أو الأكواخ. وفيما بعد، تبينا عدم وجود أحد لحمل الأشياء. لقد قتلنا الجميع. ومن ثم أرسلت كاناى وموريبا ليعودا إلى القاعدة لجلب من يساعدنا. وبعد أن رحلا، آخذين بعض الذخيرة من حاملى البنادق الموتى؛ كان بعضهم لا يزالون متمسكين ببنادقهم. ظللنا نحن الثلاثة فى القرية. وبدلاً من البقاء بين أجساد الموتى، ولفائف الطعام، وصناديق الذخيرة، وحقائب المخدرات، اختبأنا فى الأحراش القريبة، وقمنا بحراسة القرية. وكنا ننزل بالدور إلى القرية لإحضار شىء نأكله وبعض المخدرات. جلسنا بهدوء بين الشجيرات وانتظرنا.

بعد يومين، عاد كاناى وموريبا مع العريف وبعض الجنود وبعض المدنيين ليحملوا أحمال الطعام والمخدرات والذخيرة إلى القاعدة.

هنأنا العريف قائلاً: «لدينا ما يكفينا من كل شىء لبضعة أشهر.

عمل رائع يا جنود». حييناه وانطلقنا فى طريقنا. وبسبب هذه الغارة، اكتسب الحاجى لقب «رامبو الصغير»، وكان يفعل كل ما يستطيع أثناء الغارات ليظل مستحقًا لهذا اللقب. أما الاسم الذى أطلق على فكان «الثعبان الأخضر»، لأننى كنت أضع نفسى فى أشد الأماكن تميزًا وخفاء، ومن الممكن أن آخذ قرية كاملة من تحت أصغر شجيرة دون أن يلحظنى أحد. أطلق الملازم أول على هذا الاسم، وقال: «إنك خطر، رغم أن هذا لا يبدو عليك، وتختلط بالطبيعة مثل ثعبان أخضر، وعندما تريد تكون مخادعًا ومميتًا». كنت سعيدًا بهذا الاسم، وفى كل غارة كنت أفعل ما يجعلنى مستحقًّا له.

* * *

كان هناك شق فى السقف الأبيض للغرفة. واستطعت بوهن أن أسمع الصوت العميق للملازم أول من المدينة، والضحكات السريعة للممرضة. أدرت رأسى إلى الجانب ونظرت تجاهها. كانت الممرضة تبتسم ابتسامة عريضة، وبدا عليها الاستمتاع بنكات الملازم أول. قمت وبدأت أسير خارجًا من المستشفى.

صاحت الممرضة خلفى: «اشرب كثيرًا من الماء وستكون فى أحسن حال. تعال غدًا للفحص».

سأل الملازم أول: «ما رأيك فى المكان هنا؟».

نظرت إليه بازدراء، وبصقت على الأرض. هز كتفيه بلا مبالاة. فكرت وأنا أسير عائدًا إلى القاعة أنه مجرد جندى مدنى جبان آخر. وعندما وصلت هناك، كان ولدان يلعبان تنس الطاولة فى الشرفة.

بدا الجميع مستمتعين بما يحدث. لقد مر أكثر من شهر، وبعضنا كان

قد تخطى مرحلة الانسحاب بالفعل، رغم أنه لا تزال هناك بعض حوادث القيء والانهيار فى أوقات غير متوقعة. وانتهت هذه الحالات بالنسبة لمعظمنا فى نهاية الشهر الثانى. لكننا كنا لا نزال فى حالة نقاهة، والآن، وقد أصبح لدينا الوقت للتفكير، بدأت تتفكك القشرة التى كانت تغلف ذكريات الحرب، وبدأت الذكريات تتفتح ببطء.

عندما كنت أفتح صنبور الماء، لم أكن أرى سوى الدم يندفع منه. كنت أقف محملقًا فيه حتى يعود ويبدو مياهًا قبل أن أشرب أو آخذ دشًّا. كان الأولاد أحيانًا يجرون خارجين من الردهة صارخين: «المتمردون قادمون». وفى أوقات أخرى، كان الأولاد الأصغر سنًّا يجلسون على الصخور يبكون ويقولون لنا إن الصخور هى أجساد عائلاتهم الميتة. وأحيانًا كانت تنتابنا لحظات ندبر فيها كمائن لأعضاء هيئة الإشراف، نربطهم، ونوجه إليهم الأسئلة: أين فرقهم، من أين يحصلون على إمداداتهم من الأسلحة والذخيرة والمخدرات والطعام. وأثناء هذا الوقت أيضًا بدأنا نتلقى إمدادات مدرسية ـ كتب، أقلام، أقلام رصاص ـ وقيل لنا إننا سنحضر حصصًا من الساعة العاشرة صباحًا حتى الثانية عشرة بعد الظهر خلال أيام الأسبوع. أشعلنا النار فى هذه الأشياء، وفى الصباح التالى أعطيت لنا مجموعة أخرى، فأحرقناها أيضًا. ظل المشرفون يمدوننا بالأدوات المدرسية. وفى هذه المرة لم يقولوا: «هذا ليس خطأكم»، كما كانوا يقولون عادة بعد أن نرتكب أفعالاً يعتبرونها خطأ وليست طفولية.

ذات مساء، بعد أن وضع المشرفون الإمدادات المدرسية فى الشرفة، اقترح مامبو أن نبيعها. سأل بعض الأولاد: «ومن سيشتريها؟ الجميع خائفون منا». قال مامبو مؤكدًا: «يمكننا أن نجد تاجرًا يريد أن يستفيد». وضعنا الأشياء فى أكياس من البلاستيك، وذهب ستة منا إلى السوق القريبة، حيث بعناها إلى أحد الباعة. فرح الرجل، وقال إنه سوف يشترى منا فى أى

وقت. وقال: «لا يهمنى إن كانت مسروقة، المال معى والبضاعة معكم، هذه تجارة». وأعطى مامبو مبلغًا من النقود. عد مامبو النقود بابتسامة واسعة على وجهه. وأمسك الأوراق المالية ومررها أمام أنوفنا لكى نتمكن من شم رائحتها. قال: «هذه نقود طيبة، أؤكد لكم هذا». وجرينا عائدين إلى المركز لنلحق بوجبة الغداء. وبمجرد الانتهاء من الطعام، أعطى مامبو كل صبى نصيبه من النقود. وأصبحت القاعات مليئة بالضجيج حيث كان الجميع يتحدثون عما سوف يفعلونه بالنقود. وبالتأكيد كان هذا أفضل من حرق الأدوات.

اشترى بعض الأولاد كوكاكولا، وحلوى، وأشياء أخرى. لكن مامبو والحاجى وأنا خططنا للقيام برحلة إلى فريتاون. كان كل ما نعرفه هو أن علينا أن نستقل المواصلات العامة إلى مركز المدينة.

فى ذلك الصباح، ابتلعنا إفطارنا بسرعة، وتركنا صالة الطعام واحدًا واحدًا. تظاهرت بأننى ذاهب لعمل فحص فى المستشفى الصغير. دخل مامبو إلى المطبخ وكأنه سيحضر المزيد من الطعام وتسلق من النافذة. وسار الحاجى نحو الحمام. لم نكن نريد الأولاد الآخرين أن يعرفوا، لأننا كنا قلقين من أنهم قد يرغبون فى المجىء جميعًا فيثيرون قلق المشرفين. التقينا نحن الثلاثة عند مفرق الطرق القريب من المركز، ووقفنا متجاورين، فى انتظار أتوبيس.

سألنا الحاجى: «هل ذهبتم أبدًا إلى المدينة؟»

أجبت: «لا».

قال الحاجى: «كان المفترض أن آتى إلى فريتاون لدخول المدرسة، ولكن جاءت الحرب. لقد سمعت أنها مدينة جميلة».

قال مامبو: «حسنًا، سرعان ما سوف نعرف، ها هو الأتوبيس».

كانت موسيقى السوكو تطن داخل الأتوبيس، وكان الناس يتحدثون بصوت عال، وكأنه سوق. جلسنا فى الخلفية ورحنا نراقب البيوت والأكشاك تمر بنا. بدأ رجل واقف فى الممشى يرقص على الموسيقى. ثم لحق به بعض الركاب، ومن ضمنهم مامبو. ضحكنا وصفقنا للراقصين.

نزلنا من الأتوبيس فى شارع كيسى، وكانت منطقة مزدحمة بالقرب من قلب المدينة. كان الناس يسرعون لقضاء شئون حياتهم اليومية وكأنها لم يكن هناك شيء يحدث فى البلاد. كانت هناك محلات كبيرة على جانبى الشارع، وكان الباعة يزحمون الأرصفة الضيقة. تغذت عيوننا بكل شيء، وسرعان ما كنا نشعر بالدهشة والفرحة.

قفز مامبو فى الهواء قائلاً: «قلت لكم إنها ستكون رائعة».

أشرت إلى أحد المبانى قائلاً: «انظر إلى هذا المبنى العالى».

صاح الحاجى: «وهذا أيضًا عالٍ جدًّا».

تساءل مامبو: «كيف يطلع الناس إلى هناك؟».

سرنا ببطء، معجبين بعدد السيارات، كانت المحلات اللبنانية مليئة بكل أنواع الطعام. آلمتنى رقبتى من مجرد النظر إلى المبانى العالية. كانت هناك أسواق صغيرة فى كل مكان، تبيع الملابس، والطعام، وأشرطة الكاسيت، وأجهزة الاستريو، وأشياء كثيرة أخرى. كانت المدينة شديدة الضوضاء، وكأن الناس يتجادلون فى كل مكان فى وقت واحد. تجولنا طوال الطريق حتى «شجرة القطن»[1]، الرمز القومى لسيراليون، وأهم

---

(١) «شجرة القطن»: وجدتها المجموعة الأولى من العبيد الأمريكيين المحررين الذين حصلوا على حريتهم نتيجة اشتراكهم فى الحرب ضد البريطانيين ضمن حرب الاستقلال الأمريكية، والذين وصلوا إلى سيراليون عام ١٧٩٢، وتركت الشجرة تنمو وأصبحت رمزًا تاريخيًا لسيراليون [المترجمة].

معالم العاصمة. حملقنا بأفواه مفتوحة فى الشجرة الهائلة التى لم نكن نراها إلا على ظهر العملات. والآن كنا نقف تحتها عند تقاطع شارع سياكا ستيفنز وطريق بادمبا، مركز المدينة. كانت أوراقها خضراء، لكن اللحاء بدا قديمًا جدًّا. قال الحاجى ونحن نسير مبتعدين: «لن يصدقنا أحد عندما نخبرهم بهذا».

سرنا طوال اليوم، واشترينا آيس كريم ومشروبات. كان من الصعب الاستمتاع بالآيس كريم، فقد كان يذوب بسرعة كبيرة تحت الشمس الحارة. قضيت معظم الوقت ألعق ما يسيل منه على كوعى وبين أصابعى بدلاً من أن أتناوله من القرطاس. وبينما نسير فى وسط المدينة، ازدادت أعداد الناس والسيارات. ولم نكن نعرف أحدًا وبدا كل الناس فى حالة استعجال. كان مامبو والحاجى يسيران خلفى طوال الوقت ويستشيراننى فى أى الطرق نسلكها، ومتى نتوقف... وكأننا لانزال فى خط الجبهة، وأنا قائد فرقتهما.

اقترب الوقت من المغرب، وكان لابد أن نعود إلى المركز فى موعد العشاء. وبينما نسير لركوب الأتوبيس، اكتشفنا أنه ليس معنا نقود لدفع الأجرة. قال لنا مامبو: «يمكننا أن نجلس فى المقدمة، وعندما نقترب من محطتنا، يمكننا القفز والهرب». جلسنا بهدوء فى الأتوبيس، ونحن نراقب قائد السيارة الذى كان يجمع الأجرة قبل كل محطة. وعندما كان الأتوبيس على وشك الوصول إلى محطتنا، طلب القائد ممن على وشك النزول أن يرفعوا أيديهم. وسار فى الممشى ليجمع النقود. ثم توقف الأتوبيس ووقف القائد عند باب النزول، ليتأكد من عدم نزول أحد دون أن يدفع. سرت ناحيته ويدى فى جيبى، وكأنى على وشك إخراج النقود. ثم دفعته جانبًا وجرينا ونحن نضحك. طاردنا قليلاً ثم يئس منا. فى تلك الليلة أخبرنا كل الأولاد عن المبانى العالية فى المدينة، والضوضاء والسيارات

والأسواق، انفعل الجميع وأرادوا جميعًا بعد ذلك أن يذهبوا إلى المدينة. ولم يجد المشرفون بُدًّا من أن يعدوا رحلات فى نهاية الأسبوع إلى وسط المدينة لكى نتوقف عن الذهاب وحدنا. لكن لم يكن هذا كافيًا بالنسبة للبعض، الذين أرادوا زيارة المدينة أكثر من مرة فى الأسبوع.

* * *

لا أعرف ماذا حدث، لكن الناس توقفوا عن شراء أدواتنا المدرسية. حتى عندما كنا نعرضها بسعر أرخص، لم نكن نجد من يشتريها. وبما أننا لم يكن لدينا أى وسيلة أخرى للحصول على نقود، لم نعد نذهب إلى وسط المدينة وحدنا، أو مرات كثيرة كما نشاء. كما أن حضور الحصص المدرسية أصبح مطلوبًا لكى نذهب فى رحلات آخر الأسبوع إلى المدينة. ولذلك، بدأنا نحضر الحصص.

كانت مدرسة غير رسمية. بالنسبة للرياضيات كنا نتعلم الجمع والضرب والقسمة المطولة. وفى اللغة الإنجليزية، كنا نقرأ فقرات من الكتب، ونتعلم كيف نتهجى الكلمات، وأحيانًا كان المعلم يقرأ القصص بصوت مرتفع ونحن نكتبها فى دفاترنا. كانت مجرد طريقة «لإنعاش ذاكراتنا»، حسب تعبير المعلم. لم نكن ننتبه أثناء الدرس. فلم نكن نريد الحضور إلا لأننا لا نريد أن تفوتنا الرحلات إلى المدينة. وكنا نتعارك أثناء الحصص، أحيانًا نطعن أيدى بعضنا بالأقلام. وكان المعلم يستمر ونتوقف فى النهاية عن العراك. ثم كنا نبدأ الكلام عن السفن التى رأيناها على ضفاف خليج كرو، والطائرة الهليكوبتر التى طارت فوقنا ونحن نسير فى شارع لايتفوت بوستون، وفى نهاية الحصة يقول المعلم: «ليس خطأكم أنكم لا تستطيعون الجلوس بهدوء فى الحصة. سوف تكون لديكم المقدرة على فعل ذلك بمرور الوقت»، كان ذلك يغضبنا ونلقى بالأقلام عليه وهو يخرج من القاعة.

بعد ذلك، كنا نتناول الغداء، ثم نشغل أنفسنا بلعب تنس الطاولة أو كرة القدم. ولكن فى الليل، كان بعضنا يستيقظ بسبب الكوابيس، وقد بللهم العرق، يصرخون، ويضربون رءوسهم لطرد الصور التى كانت تستمر فى تعذيبنا حتى بعد أن نستيقظ من النوم. كان آخرون يستيقظون ويبدأون فى خنق من فى الفراش المجاور؛ وكانوا عندئذ يجرون إلى الخارج بعد أن يتم منعهم من الاستمرار فى ذلك. كان أعضاء فريق الإشراف دائما على يقظة للتحكم فى حالات الانفجار تلك التى كانت تحدث من حين لآخر. ورغم ذلك، ففى كل صباح، كانوا يجدون العديدين منا مختبئين فى الحشائش بجوار ملعب كرة القدم. لم نكن نتذكر كيف وصلنا إلى هناك.

* * *

استغرق الأمر شهورًا قبل أن أبدأ فى العودة إلى تعلم كيف أنام بدون مساعدة الأدوية. ولكن حتى عندما استطعت أخيرًا أن أنام، كنت أستيقظ فجأة بعد أقل من ساعة. كنت أحلم بأن مسلَّحًا بلا وجه قد قيدنى وبدأ يقطع حلقى بالحافة المشرشرة لحربته. كنت أشعر بالألم الذى تتسبب فيه السكين بينما كان الرجل يقطع رقبتى. أستيقظ والعرق يتصبب منى، وأضرب بقبضتى فى الهواء. وأجرى إلى الخارج إلى وسط ملعب كرة القدم، وأهتز بعنف إلى الأمام والخلف، وقد لففت ذراعى حول رجلى. كنت أحاول يائسًا أن أفكر فى طفولتى، لكنى لم أستطع. كانت ذكريات الحرب قد أقامت حاجزًا لابد لى من كسره لكى أتذكر أى لحظة فى حياتى قبل الحرب.

يبدأ فصل المطر فى سيراليون فى شهر مايو ويستمر حتى أكتوبر، وتسقط أكثر الأمطار غزارة فى شهور يوليو وأغسطس وسبتمبر. فقدت فرقتى القاعدة التى تمرنت فيها، وأثناء تلك المعركة قُتل موريبا. تركناه جالسًا

مستندًا إلى الجدار، والدم ينزل من فمه، ولم نفكر كثيرًا فيه بعد ذلك. لم يكن الحزن على الموتى جزءًا من العمل فى القتل ومحاولة البقاء على قيد الحياة. بعد ذلك تجولنا فى الغابة بحثًا عن قاعدة جديدة قبل أن يبدأ فصل المطر. لكننا لم نستطع أن نجد واحدة فى وقت مناسب. معظم القرى التى مررنا بها لم تكن مناسبة، حيث إننا كنا قد أحرقناها، أو دمرتها فرقة أخرى من المحاربين فى وقت ما. كان الملازم أول فى حالة ضيق لأننا لم نجد قاعدة، ومن ثم فقد أعلن أننا سوف نظل سائرين حتى نجد واحدة.

فى البداية بدأت تمطر بعض الوقت وتتوقف بعض الوقت. ثم بدأت تمطر باستمرار. كنا نسير إلى داخل المناطق الكثيفة من الغابة ونحاول أن نتفادى الأمطار المدرارة بالوقوف تحت الأشجار الكبيرة، لكنها ظلت تمطر حتى وصلت إلى نقطة لم تعد فيها أوراق الأشجار قادرة على منع المياه. سرنا فى الغابات المبللة لأسابيع.

كان المطر شديدًا ذات صباح، وفجأة وجدنا أنفسنا فى مرمى نيران. وعندما أطلقنا مدافع الـ «آر بى جى» لم تنفجر الطلقات. ونتيجة لذلك، انسحبنا. ولم يتبعنا المهاجمون مسافة طويلة، فتجمعنا مرة أخرى وقال الملازم أول إننا لابد أن نقوم بهجوم مضاد فورًا لنتمكن من تعقب المهاجمين. قال: «سوف يقودوننا إلى قاعدتهم»، وتقدمنا نحوهم. ظللنا نحارب طوال اليوم فى المطر. كانت الغابة مبللة وغسلت الأمطار الدم من على الأوراق وكأنها تنظف سطح الغابة، لكن الأجساد الميتة ظلت تحت الشجيرات، والدم الذى تدفق منها ظل على سطح التربة المتشبعة بالمياه، كما لو كانت التربة قد رفضت أن تمتص المزيد من الدماء فى ذلك اليوم.

وعند هبوط الليل، بدأ المهاجمون ينسحبون. وبينما كانوا يجرون، تركوا واحدًا من جرحاهم خلفهم. وصلنا إليه، وسأله الملازم أول أين قاعدتهم.

لم يُجِبْ، فجرَّه شخص منا، بحبل حول رقبته، ونحن نطارد المهاجمين. ولم يتحمل الجرّ، فمات. فى الليل توقف المهاجمون عن التراجع. كانوا قد وصلوا إلى أطراف قاعدتهم وبدأوا يحاربون بشراسة لأنهم لا يريدون تسليمها. أمرنا الملازم أول «اتبعوا طريقة الضرب والفرار، «كالو كالو تكتيك». قمنا بتقسيم أنفسنا إلى مجموعتين، وبادرنا بالهجوم. فتحت المجموعة الأولى النار ثم تظاهرت بالتراجع، فطاردهم المهاجمون، راكضين إلى الكمين الذى شكلته المجموعة الثانية. قمنا بهدوء وجرينا خلف المتمردين، وضربناهم من الخلف. كررنا هذا التكتيك طوال الليل، وأضعفنا صفوف المتمردين بشدة. فى الصباح دخلنا القرية وقتلنا المحاربين الباقين، الذين لم يريدوا الذهاب. قبضنا على ثمانية من رجالهم، وقيدنا أيديهم وأرجلهم، وتركناهم فى المطر.

كانت هناك مدافئ للنار فى القرية، والكثير من الخشب والطعام. كان المتمردون قد مونوا أنفسهم جيدًا لفصل المطر، ولكن الآن نحن المستفيدون من الطعام والإمدادات المنهوبة. غيرنا ثيابنا بأية ثياب جافة يمكن أن نجدها، وجلسنا حول النار، ندفئ أنفسنا ونجفف أحذيتنا. كنت أحتضن بندقيتى وأبتسم لحظة، سعيدًا بأننا وجدنا ملجأ. مددت أصابع قدمى نحو النار لأدفئها، ورأيت أنها كانت باهتة وبدأت تتعفن.

كنا فى القرية لدقائق قليلة فقط عندما هاجمنا المتمردون مرة أخرى. لم يكونوا يريدون التخلى عن القرية بسهولة. نظرنا إلى بعضنا البعض ونحن جالسون حول النار، وبغضب قمنا بتغيير خزائن البنادق وخرجنا للتخلص من هؤلاء المهاجمين نهائيًّا. ظللنا نحاربهم طوال الليل واليوم التالى. لم يكن أحدنا يريد أن يسلم القرية للآخر، ولكن فى النهاية كنا قد قتلنا معظم المتمردين وقبضنا على عدد آخر. جرى الآخرون بعيدًا إلى الغابة الباردة المطيرة. كنا فى حالة غضب شديد مع الأسرى لدرجة أننا لم نقتلهم، ولكننا قررنا أن نعاقبهم بقسوة. قال الملازم أول: «إن قتلهم

إضاعة للطلقات». ومن ثم فقد أعطيناهم مجارف وطلبنا منهم، تحت تهديد البنادق الموجهة إليهم، أن يحفروا قبورهم بأنفسهم. وجلسنا تحت الأكواخ ندخن الماريجوانا ونراقبهم يحفرون فى المطر. وكلما تباطأوا، كنا نطلق النار حولهم، فيسرعون فى الحفر. وعندما انتهوا من الحفر، ربطناهم، وطعنًّا أرجلهم بالحراب. صرخ البعض، فضحكنا وركلناهم ليخرسوا. ثم ألقينا كل رجل فى حفرته، وغطيناه بالطين المبلل. كانوا جميعًا فى حالة رعب، وحاولوا القيام والخروج من الحفرة ونحن نلقى بالطين عليهم، لكن عندما رأوا أطراف بنادقنا موجهة إلى الحفرة عادوا إلى الرقاد وجعلوا يراقبوننا بعيون حزينة باهتة. وجاهدوا تحت التربة بكل قواهم. سمعتهم يزفرون تحتها وهم يجاهدون للتنفس. وبالتدريج استسلموا، وسرنا بعيدًا. وقال أحد الجنود: «لقد دفنوا على الأقل»، وضحكنا. ابتسمت قليلاً مرة أخرى ونحن نسير عائدين إلى النار لندفئ أنفسنا.

وبجوار النار، اكتشفت أن هناك كدمات على ذراعى، وظهرى، وقدمى. ساعدنى الحاجى فى ربطها ببعض الضمادات والإمدادات الطبية التى تركها المتمردون خلفهم. وظهر أن تلك الكدمات كانت آثار طلقات لامست جسدى وتسببت فى تقطيع لحمى ولكنها لم تصب منى مقتلاً. كنت فى حالة خدر شديد حتى إننى لم أدرك خطورة ما حدث للتو. ضحكت والحاجى يشير إلى عدد الكدمات فى جسمى.

* * *

فى الصباح كنت أشعر بأحد أعضاء فريق الإشراف يلف بطانية حولى، قائلاً: «هذا ليس خطأك، كما تعلم. ليس خطأك حقيقة. سوف تتخطى هذا». ثم يشدنى لأقوم، ويسير بى عائدًا إلى القاعة.

(١٧)

لم أعد إلى المستشفى لبضعة أشهر منذ غادرتها، حينما كانت الممرضة تتبادل الحديث مع ملازم أول المدينة الجبان، وأصابها اليأس من محاولة أن تجعلنى أحضر للفحص. ولكن بعد ظهر أحد الأيام، أثناء مباراة لتنس الطاولة كان يحضرها المشرفون جميعًا، شعرت بشخص ينقر على كتفى. كانت الممرضة. كانت ترتدى زيًّا أبيض وقبعة بيضاء. كانت أول مرة أنظر إليها مباشرة. بدت أسنانها البيضاء متباينة مع بشرتها السمراء اللامعة، وعندما ابتسمت، ازداد وجهها جمالاً، بل إنه أضاء سحرًا. كانت طويلة ولها عينان بنيتان كبيرتان تبدو عليهما الطيبة والمحبة. أعطتنى زجاجة كوكا كولا. وقالت مبتسمة وهي تذهب: «تعال لترانى فى أي وقت تريد». كانت زجاجة الكوكا كولا باردة، وصدمتني. تركت قاعة اللعب مع الحاجى وخرجنا وجلسنا على صخرة نشرب الزجاجة. قال الحاجى يمازحنى: «إنها معجبة بك». لم أقل شيئًا.

سألنى: «حسنًا، هل أنت معجب بها؟»

قلت: «لا أعرف، إنها أكبر منى كما أنها ممرضتنا».

أجاب الحاجى وهو يومئ برأسه: «أنت تقصد أنك تخشى النساء».

«لا أعتقد أنها معجبة بى بالطريقة التى تظنها». نظرت إلى الحاجى، والذى كان يضحك على ما قلته.

بعد أن أنهينا الزجاجة، تركنى الحاجى، وقررت أن أذهب إلى المستشفى. عندما وصلت إلى المدخل، نظرت بالداخل ورأيت المرضة تتكلم فى التليفون. أشارت لى لأدخل وأجلس. ابتسمت محاولة أن تجعلنى أفهم أن ابتسامتها كانت للترحيب بى وليس لمحادثتها التليفونية. نظرت حولى ورأيت لوحة على الجدار عليها أسماء كل الأولاد الموجودين فى المركز. وفى المربعات الموجودة أمام معظم الأسماء كانت هناك علامة تشير إلى أنهم حضروا جلسة واحدة على الأقل. ولم تكن هناك أية علامة فى المربعات الموجودة أمام اسمى. أنزلت المرضة اللوحة لأسفل ووضعتها داخل أحد الأدراج وهى تضع سماعة التليفون. وشدت مقعدًا لتجلس بالقرب منى، وفكرت أنها سوف تسألنى سؤالاً عن الحرب، ولكن بدلاً من ذلك سألتنى بهدوء: «ما اسمك؟» أصابتنى الدهشة، حيث إننى كنت متأكدًا أنها تعرف اسمى. قلت بغضب: «إنك تعرفين اسمى».

قالت: «ربما أعرفه، لكنى أريدك أن تخبرنى باسمك»، قالت ذلك بإصرار، واتسعت عيناها.

قلت: «حسنًا، حسنًا، إشمائيل».

أومأت برأسها قائلة: «اسم عظيم. أنا اسمى إستر، وينبغى أن نصبح أصدقاء».

سألتها: «هل أنت متأكدة أنك تريدين أن تصبحى صديقتى؟» فكرت لحظة، ثم قالت: «ربما لا».

هدأت بعض الوقت، حيث لم أكن أعرف ماذا أقول، كما أننى لم أكن أثق بأى شخص فى ذلك الوقت من حياتى. كنت قد تعلمت أن أعيش

وأعتنى بنفسى. وقد فعلت ذلك فى معظم حياتى القصيرة، ولم يكن هناك من أثق فيه، وبصراحة، كنت أحب أن أكون وحدى، لأن ذلك يجعل الحياة أسهل. وأناس مثل الملازم أول، الذى كنت أطيعه وأثق به، جعلوا ثقتى بالآخرين تهتز، خاصة الكبار. كنت شديد الارتياب فى نوايا الناس. وأصبحت أعتقد أن الناس لا يصادقون إلا بغرض الاستغلال. ومن ثم فقد تجاهلت الممرضة، وبدأت أنظر خارج النافذة.

قالت: «أنا ممرضتك، وهذا كل ما بيننا. فإن كنت تريد صداقتى، فلابد أن تطلب ذلك منى، ولابد أن أثق بك أولاً». ابتسمت، لأننى كنت أفكر فى نفس الشىء. انتابتها بعض الحيرة أمام ابتسامتى المفاجئة، ثم قالت: «إن لك ابتسامة رائعة، ينبغى أن تبتسم كثيرًا». توقفت عن الابتسام فورًا، وتوتر وجهى.

سألتنى: «هل هناك شىء تريده من المدينة؟»، لكنى لم أجب.

قالت: «هذا يكفى اليوم».

* * *

بعد أيام قليلة من تلك المحادثة، أعطتنى الممرضة هدية. كنت أراقب بعض الأولاد ينشرون شبكة كرة طائرة فى الفناء. جاء الحاجى من جلسته فى المستشفى وأخبرنى أن الممرضة إستر قالت إننى ينبغى أن أذهب لرؤيتها. أردت أن أشاهد مباراة الكرة الطائرة، لكن الحاجى بدأ يشدنى ولم يتركنى حتى كنا عند باب المستشفى. ثم دفعنى إلى الداخل وجرى ضاحكًا. وقعت على الأرض، ونظرت لأعلى لأجد الممرضة إستر جالسة على مكتبها، تبتسم.

قلت وأنا أقوم: «قال الحاجى إنك تريدين رؤيتى».

قذفت لفة إلىّ. التقفتها بيدى، متعجبًا ماذا تكون ولماذا أحضرتها لى. كانت تنظر إلى منتظرة منى أن أفتحها. عندما فتحتها قفزت واحتضنتها، ولكن سرعان ما كبتُّ فرحتى. وسألت بإصرار: «لماذا أحضرت لى هذا الووكمان وشريط الكاسيت إن لم نكن أصدقاء؟ وكيف عرفت أننى أحب موسيقى الراب؟»

قالت: «اجلس من فضلك»، وهى تأخذ اللفة منى، وتضع حجارة البطارية والشريط فى الووكمان، ثم تناوله لى. وضعت سماعات الرأس على أذنىّ، وانسابت إلى سمعى أغنية فريق «ران دى. إم. سى.»[1]، «هذه هى الطريقة، والطريقة هى تلك...». بدأت أهز رأسى، وحينئذ رفعت إستر السماعات عن أذنىّ وقالت: «لابد أن أفحصك وأنت تسمع الموسيقى». وافقت، وخلعت قميصى، ووقفت على ميزان، وقامت بفحص لسانى، واستخدمت ضوءًا لفحص عينى.. لم أمانع لأن الأغنية كانت قد استولت علىّ، وكنت أستمع بإمعان إلى كل كلمة. لكن عندما بدأت تفحص رجلىّ ورأت آثار الجروح على قصبة ساقى اليسرى، أخذت السماعات منى ثانية وسألت: «كيف حدثت لك هذه الجروح؟»

أجبت بلا مبالاة: «إصابات طلقات».

امتلأ وجهها بالأسى، وجاء صوتها مهتزًا وهى تقول: «يجب أن تقول لى ما حدث لكى أستطيع أن أصف العلاج». فى البداية ترددت، لكنها قالت إنها لن تستطيع أن تصف العلاج الأمثل إلا إن قلت لها ما حدث، خاصة كيف تم علاج هذه الإصابات. وهكذا رويت لها القصة الكاملة، كيف أصبت، ليس لأننى أردت فعلاً أن أروى، لكننى ظننت أننى لو

---

(١) فريق Run-D.M.C. كان فريقًا رائدًا لموسيقى الهيب هوب فى سنوات ١٩٨٠ [المترجمة].

حكيت لها بعض الحقائق المخيفة عن سنوات الحرب التى عشتها فسوف تخاف منى وقد تتوقف عن الأسئلة. استمعت بانتباه عندما بدأت أتحدث، كانت عيناها مثبتتين على وجهى، وأحنيت رأسى وأنا أدلف إلى ماضىّ القريب.

أثناء فصل الجفاف الثانى لسنوات الحرب فى حياتى، كنا نعانى من قلة الطعام والذخيرة. وهكذا، كالعادة، قررنا أن نهاجم قرية أخرى. فى البداية ذهبت مع فرقتى لنتجسس على القرية. راقبنا القرية طوال اليوم، ورأينا أن الرجال هناك أكثر منا، وأنهم كانوا مسلحين جيدًا، ولديهم بنادق أحدث. لم أكن متأكدًا إن كانوا متمردين، لأن الصبية بينهم كانوا أقل عددًا من أى جماعة أخرى سبق أن هاجمناها. كان نصفهم يرتدى زى الجيش، والنصف الآخر يرتدون أزياء مدنية. عدنا إلى القاعدة وقدمت تقريرًا عما وجدته فرقتى إلى الملازم أول. وبسرعة غادرنا متجهين إلى تلك القرية، والتى كانت على مسيرة ثلاثة أيام. كانت الخطة هى تأمين القرية أولاً، ثم الاستقرار هناك وعمل قاعدة بدلاً من حمل الأشياء إلى مكاننا.

تركنا قريتنا تلك الليلة، نسير أحيانًا بسرعة وأحيانًا بهدوء على الطريق طوال الليل. أثناء رحلة الأيام الثلاثة، كنا نتوقف مرة واحدة فى اليوم لنأكل ونشرب ونتناول مخدرات. كنا نحمل معنا كل الذخيرة والبنادق والبنادق نصف الآلية. كان كل منا يحمل بندقيتين، واحدة نحملها على ظهرنا، والأخرى فى أيدينا. لم نترك إلا رجلين لحراسة القاعدة. وفى صباح اليوم الثالث، جعلنا الملازم أول نرتاح فترة أطول مما كنا نفعل فى اليومين السابقين. وبعد ذلك، سرنا اليوم كله حتى المساء، حتى أصبحت القرية على مرمى البصر.

كانت هناك الكثير من أشجار المانجو والبرتقال والجوافة فى القرية، وبدت كما لو أنها كانت فى السابق مزرعة. وبعد أن حاصرناها انتظرنا أوامر الملازم أول. وبينما كنا نرقد فى الكمين، بدأنا نكتشف أن المكان كان خاليًا. كنت أرقد بجوار الملازم أول، ونظر إلى بوجه متحير. همست له أن القرية كانت مليئة بحاملى البنادق منذ بضعة أيام، رغم أنها تبدو الآن مهجورة. وبينما كنا مستمرين فى المراقبة، سار كلب عبر القرية ينبح وهو يسير على الطريق. بعد حوالى ساعة، دخل القرية خمسة رجال مسلحين. أخذوا بعض الدلاء من شرفة أحد المنازل وتوجهوا نحو النهر. بدأنا نشك أن هناك خطأ ما عندما أطلقت طلقة من خلفنا. وضح الأمر الآن: لقد وقعنا فى كمين. وكان المهاجمون يريدون أن يدفعونا إلى القرية لنكون فى مكان مفتوح أمامهم.

تبادلنا إطلاق النار طوال الليل، حتى أقبل الصباح، وفى ذلك الوقت لم يعد أمامنا إلا الانسحاب إلى القرية حيث أرادونا أن نذهب. كنا قد فقدنا خمسة رجال بالفعل، وكان المتمردون قادمين على بقيتنا. كانوا يختبئون فوق أشجار المانجو والبرتقال والجوافة، وعلى استعداد لإمطارنا بالرصاص. تفرقت فرقتى، راكضين من طرف القرية إلى الطرف الآخر، يربضون خلف البيوت. كان لابد أن نخرج قبل أن نصبح فى موقف لا مخرج منه. ولكن علينا أن نتخلص أولاً من المهاجمين الموجودين على الأشجار، وقد فعلنا ذلك بإمطار الأفرع بالطلقات لإسقاط المتمردين من فوقها. وكنا نقذف من لم يمت بعد بالطلقات قبل أن يصل إلى الأرض. ولتجنب المنطقة المفتوحة وإعادة التجمع فى الغابة القريبة، كان لابد أن نشق طريقًا لأنفسنا، فقد كان الرصاص ينهال علينا من كل جانب. ومن ثم فقد ركزنا نيراننا على منطقة واحدة من الغابة حتى مات جميع من فيها. وبمجرد أن وجدنا وقتًا للتجمع، ألقى علينا الملازم أول مرة أخرى حديثه حول كيف

أننا مضطرون للقتال بقسوة للاستيلاء على القرية، وإلا فسوف نضطر أن نهيم فى الغابة باحثين عن قاعدة أخرى.

كان البعض قد أصيبوا، ولكن لم تكن إصاباتهم شديدة بحيث تمنعهم من القتال؛ والآخرون، مثلى، قد تلقوا بعض الإصابات الناتجة عن طلقات، لكنهم تجاهلوها. وقمنا بهجومنا المضاد الأول لكى نحصل على بعض الذخيرة من الموتى. ثم بادرنا مرة أخرى بهجوم عنيف لنتمكن من السيطرة على القرية. ظللنا ننسحب ثم نعاود الهجوم لمدة أربع وعشرين ساعة، مستخدمين الأسلحة والذخيرة التى نحصل عليها ممن قتلناهم. وأخيرًا بدا أننا قد تغلبنا على منافسينا. توقفت طلقات البنادق. وسكنت الأكمات الموجودة خلف أشجار المانجو. وبدا لنا أن القرية أصبحت تحت أيدينا.

كنت أملأ حقيبة ظهرى بالذخيرة من أحد الأكواخ، عندما بدأت الطلقات تمطر القرية مرة أخرى. أصبت ثلاث مرات فى قدمى اليسرى. الطلقتان الأوليان دخلتا وخرجتا، والثالثة استقرت داخل قدمى. لم أستطع أن أمشى، فرقدت على الأرض وجعلت أصوب إلى الشجيرات التى جاءت منها الطلقات التى أصابتنى. أطلقت كل الرصاصات الموجودة فى خزينة البندقية فى تلك المنطقة وحدها. وأتذكر أننى شعرت بوخز فى عمودى الفقرى، لكنى كنت تحت تخدير قوى جعلنى لا أشعر بالألم جيدًا، رغم أن قدمى كانت قد بدأت تتورم. جرنى الرقيب الطبيب الخاص بفرقتى إلى أحد البيوت، وحاول إخراج الرصاصة. وفى كل مرة كان يرفع يديه من فوق الجرح، كنت أرى الدم يغطى أصابعه كلها. ظل يمسح جبينى باستمرار بقماش مبلل. وبدأت عيناى تثقلان وفقدت الوعى.

لا أعرف ماذا حدث، لكن عندما استيقظت فى اليوم التالى شعرت وكأن مسامير قد دقت فى عظام قدمى، وأن عروقى نافرة. شعرت بألم شديد حتى إننى لم أستطع الصراخ بصوت مرتفع؛ فقط انهمرت الدموع من عينىّ. كان السقف القش للبيت الذى كنت أرقد على فراش فيه يبدو غائمًا. جاهدت عيناى للتعرف على ما حولى. كان إطلاق النار قد توقف، والقرية هادئة، ومن ثم فقد افترضت أن المهاجمين قد تم إبعادهم بنجاح. شعرت ببعض الراحة لذلك، لكن الألم عاد إلى قدمى، مما جعل عروق جسدى كله تتصلب. عضضت على شفتى، وأغلقت جفنىّ الثقيلين، وأمسكت الأطراف الخشبية للسرير بقوة. وسمعت خطوات لأشخاص يدخلون البيت. وقفوا بجوار سريرى، وبمجرد أن بدأوا يتكلمون، تعرفت على الأصوات.

«الفتى يعانى، وليس لدينا هنا أدوية للتقليل من آلامه. كل شىء فى قاعدتنا السابقة». تنهد الرقيب الطبيب، واستمر قائلاً: «إن إرسال شخص لإحضار الأدوية سيستغرق ستة أيام ذهابًا وعودة. سوف يموت من الألم أثناءها».

قال الملازم أول: «لابد أن نرسله إذن إلى القاعدة السابقة. إننا نحتاج إمدادات من تلك القاعدة على أية حال. افعل كل ما تستطيع للإبقاء على حياة هذا الفتى». ثم سار مبتعدًا.

قال الرقيب الطبيب: «نعم، يا سيدى». وتنهد تنهيدة أكبر. فتحت عينى ببطء، وهذه المرة استطعت أن أرى بوضوح. نظرت إلى وجهه المبلل بالعرق، وحاولت أن أبتسم قليلاً. بعد أن سمعت ما قالاه، أقسمت بينى وبين نفسى أن أحارب بقوة وأفعل أى شىء من أجل فرقتى بعد أن تشفى قدمى.

قال الرقيب الطبيب برقة وهو يجلس بجوار سريرى ويفحص ساقى: «سوف نأتيك ببعض المساعدة. فقط كن قويًّا، أيها الشاب».

قلت: «نعم، يا سيدى»، وحاولت أن أرفع يدى بالتحية له، لكنه أنزل يدى برقة إلى جانبى.

جاء جنديان إلى البيت، وأخبرا الرقيب الطبيب أن الملازم أول أرسلهما للمساعدة فى أخذى للعودة إلى قاعدتنا السابقة. حملانى من فوق السرير، ووضعانى فوق نقالة خفيفة، وحملانى إلى الخارج. فى البداية شعرت بضوء الشمس يعمينى، ثم بدأت قمم أشجار القرية تتأرجح فوقى وهما يحملانى خارج القرية. وبدا لى أن الرحلة استغرقت شهرًا. فقدت الوعى واستعدته عدة مرات، وفى كل مرة كنت أفتح عينى، كان يبدو وكأن أصوات من يحملوننى كانت تخفت وتضيع فى الفراغ.

أخيرًا وصلنا إلى القاعدة، وبدأ الرقيب الطبيب يباشر علاجى. حقننى بشىء ما. لم تكن لدى فكرة أن لدينا إبر حقن فى القاعدة، ولكن فى حالتى لم أستطع السؤال عما يحدث. أعطونى كوكايين، والذى كنت أحتاجه بعنف. وبدأ الطبيب يقوم بجراحة لى قبل أن تأتى المخدرات بمفعولها. أمسك الجنديان الآخران بيدىّ ووضعا قطعة قماش فى فمى. حشر الطبيب مقصًّا معقوف الشكل داخل الجرح، وبحث عن الرصاصة. كنت أستطيع الشعور بطرف المعدن داخل ساقى. وشق الألم جسدى كله. وشعرت بأوجاع فى عظامى. وعندما ظننت أن الأمر انتهى عند هذا الحد، شد الطبيب الرصاصة فجأة، وأخرجها. واندفع ألم هائل فى عمودى الفقرى من وسطى إلى خلف رقبتى. وفقدت الوعى.

وعندما استعدت وعيى، كان صباح اليوم التالى، وكانت المخدرات قد تراجعت. نظرت حولى فى الغرفة ورأيت على المنضدة الأدوات التى

استخدمت لإجراء العملية. وبجوار الأدوات كانت قطعة من القماش غارقة فى الدماء، وتعجبت كم من الدم فقدت أثناء العملية. مددت يدى إلى قدمى وشعرت بالضمادة قبل أن أقف وأعرج إلى الخارج، حيث كان الجنود والرقيب جالسين. سألتهم: «أين سلاحى؟» أعطانى الرقيب البندقية الأتوماتيكية جى٣ التى كانت على قمة الهاون، وبدأت أقوم بتنظيفها. وأطلقت طلقتين وأنا جالس بجوار الجدار، متجاهلاً ضمادة قدمى والآخرين جميعًا. دخنت الماريجوانا، وأكلت، وتنشقت كوكايين وبراون براون. وكان هذا كل ما فعلته طوال ثلاثة أيام قبل أن نغادر إلى القاعدة الجديدة التى استولينا عليها. عندما غادرنا المكان، رششنا كيروسين على البيوت ذات الأسقف القش، وأشعلنا فيها النار، وأطلقنا طلقتين من الـ «آر بى جى» على الجدران. كنا دائمًا ندمر القواعد التى نتخلى عنها لكى لا تتمكن فرق أخرى من استخدامها. حملنى جنديان فى النقالة، لكن هذه المرة كانت معى بندقيتى، وكنت أنظر يسرة ويمنة ونحن نسير فى طريق الغابة.

فى القاعدة الجديدة، ظللت تحت الملاحظة لثلاثة أسابيع، وعينت الحاجى ليكون مسئولاً عن فرقتى الاستطلاعية. وشغلت نفسى بالمخدرات وتنظيف بندقيتى. كان الرقيب الطبيب ينظف جراحى ويقول دائمًا: «إنك محظوظ». وفى هذا الوقت لم أكن أفكر أننى كنت محظوظًا، بل كنت أفكر أننى شجاع، وأعرف كيف أقاتل. كان القليل الذى أعرفه، أن الحياة فى زمن الحرب التى كنت فيها، أو أى نوع آخر من الحروب، لم تكن مسألة أن تشعر بأنك متمرن جيدًا أو أنك شجاع. تلك كانت مجرد أشياء تجعلنى أشعر بأننى محصن من الموت.

بعد انتهاء الأسابيع الثلاثة، لقينا أول مجموعة من المهاجمين؛ كان الملازم أول يعرف أنهم قادمون. ربطت الضمادة بقوة حول قدمى، وحملت

بندقيتى، وتبعت فرقتى لنكمن للمهاجمين قبل أن يصلوا إلى مكان قريب من القرية. قتلنا معظمهم وقبضنا على قليلين أحضرناهم معنا إلى القاعدة. أشار الملازم أول إلى الأسرى قائلاً: «هؤلاء الرجال مسئولون عما أصاب قدمك من طلقات لا تزال آثارها موجودة، وقد آن الأوان لكى تضمن أنهم لن يتمكنوا أبدًا من إصابتك أو إصابة رفاقك». لم أكن متأكدًا إن كان أحد الأسرى هو الذى أطلق النار على قدمى، ولكن أى أسير يمكن أن يقوم مقام من فعلها فى ذلك الوقت. ومن ثم وضعوا جميعًا فى صف واحد، كانوا ستة، وأيديهم موثقة. وأطلقت النار على أقدامهم، وراقبتهم يعانون على مدى يوم كامل قبل أن أطلق النار على رءوسهم ليتوقفوا عن الأنين. وقبل أن أطلق النار على كل رجل، كنت أنظر إليه، وأرى عينيه تفقدان الأمل، وتثبتان قبل أن أجذب الزناد. ورأيت عيونهم القاتمة مثيرة للتوتر.

* * *

عندما انتهيت من رواية القصة لإستر، كانت الدموع فى عينيها، ولم تعرف ماذا تفعل، هل تربت على رأسى أم تحتضننى. فى النهاية لم تفعل أيًا من ذلك، لكنها قالت: «لم يكن أىٌّ مما حدث خطأك. لقد كنت مجرد صبى صغير، وفى أى وقت تريد أن تحكى لى فيه أى شىء، سأكون هنا لأستمع إليك». وحدقت فى وجهى، محاولة أن تلتقى عيناها بعينى لتؤكد لى ما قالته. شعرت بالغضب والندم لأننى أخبرت شخصًا ما، مدنيًّا، بشىء من تجربتى. وكرهت عبارة «هذا ليس خطأك» التى كان يقولها كل أعضاء هيئة الإشراف فى كل مرة يتحدث أحد عن الحرب.

قمت، وبينما بدأت أسير خارجًا من المستشفى، بدأت إستر تتكلم. وقالت: «سوف أرتب فحصًا كاملاً فى مستشفى «كونّوت»، وتوقفت قليلاً ثم أكملت: «دعنى أحتفظ لك بالووكمان. فطبعًا لا تريد أن يثير

حسد الآخرين فيسرقوه. سوف أكون هنا كل يوم، ويمكنك أن تأتى وتستمع إليه فى أى وقت». ألقيت الووكمان إليها وغادرت المكان، واضعًا إصبعىّ فى أذنى لكى لا أسمعها تقول: «إنها ليست غلطتك».

* * *

فى تلك الليلة، وأنا جالس فى الشرفة أستمع إلى بعض الأولاد يناقشون مباراة الكرة الطائرة التى فاتتنى، حاولت أن أفكر فى أيام طفولتى، لكن كان هذا مستحيلاً، حيث بدأ ذهنى يستعيد لقطات فلاشية لأول مرة قطعت فيها زور رجل. ظل المشهد يطفو فى ذاكرتى كضوء البرق فى ليلة ممطرة مظلمة، وكل مرة يحدث هذا، كنت أسمع صراخًا حادًّا فى رأسى يجعل الألم يتخلل عمودى الفقرى. دخلت وجلست على سريرى مواجهًا الحائط وحاولت أن أتوقف عن التفكير، لكنى عانيت من صداع نصفى حاد فى تلك الليلة. دحرجت رأسى على الأرض الأسمنتية الباردة، لكن الصداع لم يتوقف. ذهبت إلى الحمام، ووضعت رأسى تحت الماء البارد، لكن هذا لم يساعد أيضًا. أصبح الصداع عنيفًا حتى إننى لم أستطع المشى. وبدأت أصرخ بصوت مرتفع. وتم استدعاء الممرضة الليلية التى أعطتنى بعض الحبوب المنومة، ولكنى لم أستطع النوم، حتى بعد أن توقف الصداع النصفى. لم أستطع مواجهة الكوابيس التى كنت أعلم أنها ستأتى.

* * *

جعلتنى إستر أخبرها ببعض أحلامى. كانت تسمع فقط وتجلس بهدوء معى. وإذا أرادت أن تقول أى شىء، كانت تسألنى أولاً: «هل تحب أن أقول شيئًا عن حلمك؟» وغالبًا كنت أقول لا، وأطلب الووكمان.

بعد ظهر أحد الأيام، لم يكن من المفترض أن تعمل إستر، لكنها جاءت

إلى المركز مرتدية جيبة من الجينز بدلاً من زيها الأبيض المعتاد. جاءت فى سيارة تويوتا بيضاء مع رجلين. كان أحد الرجلين هو السائق، والآخر أحد العاملين فى الميادين التابعة لمنظمة الأطفال المتصلين بالحرب. وهى منظمة كاثوليكية تشترك مع اليونيسيف والجمعيات الأهلية فى إقامة مراكز مثل مركزنا.

قالت إستر بانفعال: «إننا ذاهبون إلى المستشفى من أجل الفحص الخاص بك، وبعد ذلك سوف نقوم معك بجولة فى المدينة»، ثم سألتنى: «ما رأيك؟»

وافقت. كنت دائماً أفرح بالذهاب إلى المدينة، وسألت: «هل يمكن لصديقى الحاجى أن يأتى معنا؟»

قالت: «بكل تأكيد»، كما لو كانت تعرف أننى قد أطلب هذا.

وبينما كنا فى السيارة فى شوارع فريتاون، قدم العامل الميدانى نفسه إلينا، قائلاً: «اسمى ليزلى، وأنا سعيد بلقائكما يا سادة». استدار إلى الخلف من مقعده الأمامى، وصافحنا. ثم عاد إلى جلسته وراح ينظر إلينا فى المرآة. كانت إستر جالسة بين الحاجى وبينى فى المقعد الخلفى. كانت تمازحنا وأحياناً تضع ذراعيها حولنا. كنت أقاوم هذه العواطف، فكانت تضع ذراعيها الاثنين حول الحاجى. فكنت أنظر بعيداً، وكانت تضع ذراعها فى ذراعى برقة قبل أن تضع ذراعها حولى مرة أخرى.

فى وسط المدينة، أشارت إستر إلى مكتب البريد، والمحلات، ومبنى الأمم المتحدة، و« شجرة القطن». وفى شارع جونسون والاس، كان البائعون يعزفون موسيقى عالية ويدقون أجراساً لجذب الزبائن. كان هناك صبية وفتيات يحملون مبرداتهم فوق رءوسهم وهم ينادون: «ثلج بارد، ثلج بارد...»، «بيرة الزنجبيل.. منعشة مثلجة...». دائماً كانت المدينة

تدهشنى، بالناس المشغولين الذين يسرعون ذهابًا وإيابًا والبائعين الذين يصنعون بضجتهم صوتها الفريد. كنت أراقب أحدهم يرن جرسًا ويلقى الملابس المستعملة التى يبيعها فى الهواء لجذب المارة عندما توقفت سيارتنا عند المستشفى التى كنت بسبيلى للفحص فيها.

ظل الطبيب يسأل: «هل تشعر بشىء؟» وهو يلمس ويعتصر أجزاء من جسدى كنت قد أصبت أو جرحت فيها. كنت قد بدأت أشعر بالاكتئاب حين قال لى إنه انتهى. لبست ثيابى وذهبت إلى صالة الانتظار التى كان يجلس فيها ليزلى وإستر والحاجى. كانوا يبتسمون، وسارت إستر نحوى وشدت أنفى مازحة لأبتسم. سرنا حتى منطقة السوق التى مررنا بها ونحن فى السيارة قبل ذلك. قضيت معظم الوقت أتفحص مجموعة من شرائط الكاسيت الموجودة تحت أحد الأكشاك. وبحثت إستر والحاجى عن فانلات كرة القدم، واشترت له واحدة. واشترى لى ليزلى أحد كاسيتات بوب مارلى. وكان ذلك ألبوم «إكزودوس». لقد نشأت على موسيقى الريجى ولكنى لم أكن سمعتها منذ فترة. وعندما نظرت إلى الشريط، محاولاً تذكر الأغنيات، بدأ رأسى يؤلمنى. ولابد أن إستر لاحظت ما كان يحدث لى، لأنها أخذت الكاسيت منى ووضعته فى حقيبتها. وسألت: «من يريد كوكا كولا؟». فرحت وجريت مباشرة إلى إحدى منصات بيع الكوكاكولا. اشترت لكل منا زجاجة. كانت باردة وتدغدغ أسنانى. ازدرتها ونحن نركب السيارة عائدين إلى المركز. كنت فى روح معنوية عالية، أبتسم طوال الطريق.

انتهز ليزلى هذه الفرصة ليخبرنى أنه قد تم تعيينه مخصصًا لى ولعدد قليل من الأولاد الآخرين. وأن جزءًا من عمله أن يجد مكانًا لى لأعيش فيه بعد الانتهاء من تأهيلى. وقال: «إن كنت بحاجة إلى الكلام معى فى أى وقت، اذهب إلى مكتب إستر، وهى سوف تطلبنى، أوكى؟» أومأت برأسى موافقًا، وزجاجة الكوكاكولا فى فمى.

قبل أن تدخل إستر إلى السيارة فى ذلك المساء للذهاب إلى بيتها، شدتنى جانبًا، ومالت لكى تنظر إلى مباشرة. تجنبت أن تلتقى عينى بعينيها، لكن ذلك لم يثنها. قالت: «سوف أحتفظ بشريط بوب مارلى، وسأحضره لك فى الغد. فتعال لتستمع إليه».

ودخلت فى السيارة، وأشارت لنا وهم يتحركون مبتعدين. كان الحاجى قد لبس فانلته بالفعل، وراح يجرى هنا وهناك ويقلد حركات لعب كرة القدم. وعندما دخلنا إلى الشرفة، أعجب الجميع بفانلة الحاجى الجديدة. كانت تجمع ألوان الأخضر والأبيض والأزرق، ألوان العلم القومى، وكان هناك رقم ١١ على الظهر. راح الحاجى يسير جيئة وذهابًا فى الشرفة مستعرضًا. وأخيرًا توقف وأعلن: «أنا أعرف المدينة كظهر يدى، أعرف من أين آتى بالبضائع».

ظل يرتدى الفانلة لمدة أسبوع تقريبًا دون أن يخلعها إلا ليأخذ حمامًا، لأنه كان يعرف أن أحدًا سيحاول سرقتها. وبدأ يقوم ببعض البيزنس باستخدام فانلته. كان يقرضها إلى الأولاد لبضع ساعات مقابل شىء من معجون الأسنان، أو الصابون، أو الغداء، وهكذا. وفى نهاية الأسبوع، كان لديه الكثير من معجون الأسنان والأشياء التى باعها فى سوق خارجى بعيد عن المركز.

* * *

فى اليوم التالى لعودتنا من المدينة، ذهبت إلى المستشفى فورًا بعد الحصص وانتظرت إستر. وقد أدهشها أن تجدنى بانتظارها عند الباب. ربتت على رأسى قائلة: «إن لدى أخبارًا جيدة، لقد جاءت نتائج الفحص الخاص بك. والطبيب يقول إنك لا تعانى من شىء خطير. لكن ينبغى

أن أتأكد من تناولك لبعض الأدوية، وفى خلال أشهر قليلة، سوف نقوم بفحص آخر».

فتحت الباب وتبعتها دون أن أقول كلمة. كانت تعرف ما أريده. أعطتنى شريط بوب مارلى والووكمان، ومعهما دفترًا جميلاً جدًّا، وقلمًا.

وقالت: «يمكنك أن تكتب كلمات الأغانى التى تحبها فى هذا الألبوم، ونتعلم أن نغنيها سويًّا، إن كنت ترغب فى ذلك». ثم بدأت تطلب مكالمة هاتفية.

كيف عرفت أننى كنت أحب أن أكتب أشعار الأغانى؟ فكرت فى ذلك لكنى لم أسأل. فيما بعد، بعد أن اكتمل تأهيلى، عرفت أن إستر عرفت اهتماماتى من خلال القسم المدرسى فى المركز. فى الحصص القصيرة التى كنا نحضرها، كنا نتلقى أوراق استجواب على شكل امتحان. كانت الأسئلة عامة فى البداية. لم تكن تثير أية ذكريات صعبة. ما نوع الموسيقى التى تحبها؟ هل تحب موسيقى الريجى؟ وإن كنت تحب هذه الموسيقى، من من المغنين يعجبك؟ لماذا تستمع إلى الموسيقى؟ كانت هذه هى أنواع الأسئلة التى إما كنا نناقشها فى الحصة أو نكتب إجابة قصيرة عليها. كانت إجاباتنا بعد ذلك تعطى للممرضات أو لأى مسئول عن جلسات الاستشارة المنفردة لكل منا.

بدأت أتطلع إلى حضور إستر فى فترة ما بعد الظهر، كنت أغنى لها أجزاء من الأغانى التى حفظتها فى ذلك اليوم. كان حفظ أشعار الأغانى لا يترك لى وقتًا للتفكير فيما حدث فى الحرب. وبينما ازداد ارتياحى إلى إستر، رحت أتحدث معها بشكل رئيسى عن كلمات أغانى بوب مارلى و« ران دى. إم. سى.» أيضًا. وكانت تستمع فى الغالب. وكان ليزلى يأتى مرتين أسبوعيًّا

ويتحدث فى الأشعار معى. كان يحب أن يحكى لى تاريخ الرستفارية(1). أحببت تاريخ إثيوبيا، وقصة اللقاء بين ملكة سبأ والملك سليمان. وشعرت أننى على علاقة بالمسافة الطويلة التى قطعاها وتصميمهما على الوصول إلى غايتهما. وتمنيت أن تكون رحلتى ذات معنى ومليئة بالبهجة مثلما كانت رحلتهما.

* * *

حدث ذلك فى إحدى الليالى عندما سقطت نائمًا بينما كنت أقرأ أشعار إحدى الأغانى. كنت لم أنم منذ أشهر، وحتى الآن كنت قادرًا على تجنب الكوابيس الليلية بالانشغال ليلاً ونهارًا بالاستماع وكتابة أشعار أغانى بوب مارلى. ولكن فى تلك الليلة رأيت كابوسًا مختلفًا عن الكوابيس التى كانت تنتابنى من قبل. بدأ الكابوس بى أسبح فى نهر فى ماترو يونج مع أخى جونيور. غصنا إلى قاع النهر وأحضرنا بعض المحار. ووضعناه على صخرة وغطسنا مرة أخرى إلى الأعماق. كنا نتنافس معًا. وفى النهاية أحضر جونيور محارات أكثر منى. جرينا إلى البيت لنتناول العشاء، ونحن نتسابق. وعندما وصلنا كان الطعام موضوعًا فى أطباق، ولكن لم يكن هناك أحد، التفت لأسأل أخى ماذا يحدث؟ لكنه اختفى. كنت وحدى والدنيا ظلام. بحثت عن لمبة ووجدتها، لكنى كنت خائفًا. كان العرق يتصبب من جبينى.

(1) الرستفارية أو الراستا، Rastafari movement: ديانة تعتبر الإمبراطور هيلا سلاسى الأول، الإمبراطور السابق لإثيوبيا، تجسيدًا للرب ويطلقون عليه اسم جاه Jah، وجزءًا من الثالوث المقدس بوصفه المسيح المذكور فى الإنجيل. نشأت الحركة فى چامايكا بين الطبقات العاملة والمزارعين السود فى أوائل الثلاثينيات من القرن الماضى (سنوات ١٩٣٠)، ومن أهم أسباب انتشار ثقافة الراستا فى العالم المغنى بوب مارلى وموسيقى الريچى، وهو اللون الغنائى الذى ينتمى للرستفاريين وتميز بلون خاص فى الغناء والشكل جذب إليه ملايين الناس حول العالم.

أخذت اللمبة إلى غرفة الجلوس، حيث كان صندوق من الثقاب موضوعًا على المنضدة. أشعلت اللمبة، وبمجرد أن أضاءت الغرفة، وجدت رجالاً واقفين حولى. كانوا قد أحاطوا بى فى الظلام. استطعت أن أرى أجسادهم، ما عدا وجوههم، التى كانت مظلمة، وكأنهم كانوا مخلوقات تسير بلا رءوس. بعضهم كان حافيًا وبعضهم يرتدى أحذية الجيش. وكلهم كانوا يحملون بنادق وسكاكين. بدأوا يطلقون، ويطعنون، ويذبحون رقاب بعضهم البعض. ولكنهم كانوا يقومون ويقتلون مرة أخرى. وبدأت دماؤهم تملأ الغرفة، ويرتفع مدها. كانوا يعولون ويصرخون، مسببين لى أحزانًا هائلة. أمسكت بأذنى لأمتنع عن سماع أصواتهم، لكنى بدأت أشعر بآلامهم. كلما طعن أحدهم، كنت أشعر بالألم يزداد؛ ورأيت الدم يقطر من نفس الجزء من جسدى مثلما يقطر من الضحية. وبدأت أبكى والدم يملأ الغرفة. اختفى الرجال وانفتح الباب بسرعة، لينطلق الدم مندفعًا إلى الخارج. خرجت والدم يغطينى كلى ورأيت أمى وأبى وأخى الأكبر وأخى الأصغر. كانوا جميعًا يبتسمون وكأن شيئًا لم يحدث، كما لو كنا معًا طوال هذا الوقت.

قال أبى: «اجلس يا جالب المشاكل».

وضحكت أمى ممازحة: «لا تهتم به».

جلست أمام أبى، لكنى لم أستطع أن آكل معهم. كان جسمى فى حالة تخدر، وبدا أن عائلتى لا يلاحظون أننى مغطى بالدم. وبدأت السماء تمطر، فركضوا إلى داخل البيت، وتركونى فى الخارج. جلست فى المطر برهة، ليغسل الدم عنى. ثم قمت لأدخل البيت، لكن البيت لم يكن هناك. لقد اختفى.

كنت أنظر حولى متحيرًا عندما استيقظت من هذا الحلم.

ووقعت من فوق فراشى.

قمت وذهبت إلى الخارج، وجلست على الدكة فى الشرفة أنظر إلى ظلام الليل. كنت لا أزال أشعر بالاضطراب، لم أكن قادرًا على تحديد إن كنت قد رأيت حلمًا أم لا. كانت أول مرة أحلم بعائلتى منذ بدأت أهرب من الحرب.

* * *

بعد ظهر اليوم التالى ذهبت لأرى إستر، وعرفت هى أن هناك ما يضايقنى. سألتنى، فيما يشبه الهمس: «هل تريد أن ترقد لتسترخى؟»

قلت وأنا أنظر بعيدًا: «لقد رأيت حلمًا فى الليلة الماضية، ولا أعرف ماذا أفهم منه!».

جاءت وجلست إلى جوارى وسألتنى: «هل تحب أن تتكلم معى عنه؟»

لم أجب.

«أو يمكنك أن تتكلم عنه بصوت عالٍ وكأننى لست موجودة هنا. لن أقول أى شىء. إلا إذا طلبت منى». وجلَست بهدوء إلى جوارى. استمر الصمت برهة، ولسبب ما، بدأت أروى لها حلمى.

فى البداية كانت تستمع لى فقط، وبالتدريج بدأت تسأل أسئلة لتجعلنى أتحدث عن الحياة التى عشتها قبل وأثناء الحرب. وكانت تقول بإصرار فى نهاية كل محادثة: «كل هذا ليس خطأك». ورغم أننى سمعت تلك العبارة من كل أفراد فريق الإشراف ـ وبصراحة كنت دائمًا أكرهها ـ إلا أننى فى هذا اليوم بدأت أصدقها. كانت النغمة الصادقة فى صوت إستر هى التى جعلت هذه العبارة أخيرًا تغوص فى عقلى وقلبى. ولكن ذلك لم يجعلنى

محصنًا من الشعور بالذنب الذى غمرنى بسبب ما فعلته. ورغم ذلك، فقد خففت كثيرًا من وطأة ذكرياتى، وأعطتنى القوة للتفكير فى أشياء. وكلما تكلمت أكثر عن تجربتى مع إستر، بدأت أشعر بجسامة التفاصيل، رغم أننى لم أدعها تعرف ذلك. لم أكن أثق بإستر كاملاً. لكنى كنت أحب الكلام معها لأننى شعرت أنها لم تكن تحكم علىّ بسبب ما كنت جزءًا منه؛ كانت تنظر إلى بنفس العينين الجذابتين والابتسامة المرحبة التى تقول إننى كنت طفلاً.

فى إحدى الأمسيات أخذتنى إستر إلى منزلها وصنعت لى غداء. وبعد الغداء خرجنا لنتمشى فى المدينة. ذهبنا إلى المرفأ الواقع فى نهاية شارع راودون. كان القمر ظاهرًا فى تلك الليلة وقد جلسنا على حاجز الماء نراقبه. أخبرت إستر عن الأشكال التى كنت أراها فى القمر عندما كنت أصغر كثيرًا. وأعجبها ذلك كثيرًا. نظرنا إلى القمر ووصفنا الأشكال التى نراها كل للآخر. رأيت المرأة التى تحمل الطفل فى ذراعيها، تمامًا كما كنت أراها فى السابق. وفى طريق عودتنا إلى منزلها، لم أكن أنظر إلى أضواء المدينة، بل كنت أنظر إلى السماء وشعرت أن القمر كان يتبعنا.

عندما كنت طفلاً، أخبرتنى جدتى أن السماء تتحدث لمن ينظر ويستمع إليها. قالت: «هناك فى السماء دائمًا إجابات وتفسيرات لكل شىء: كل ألم، كل معاناة، ومرح، وحيرة». فى تلك الليلة كنت أريد السماء أن تتحدث معى.

(١٨)

ذات يوم أثناء الشهر الخامس لى فى بيت بنين، كنت جالسًا على صخرة خلف حجرات الدراسة، عندما جاءت إستر. جلست إلى جوارى دون أن تنطق بكلمة. كانت تمسك فى يدها بدفتر كلمات الأغانى الخاص بى. قلت ببطء: «أشعر أنه لم يعد لى ما أعيش من أجله. ليست لى عائلة، ليس هناك سواى. لن يستطيع أحد أن يحكى قصصًا عن طفولتى». وتلاحقت أنفاسى بعض الشىء.

وضعت إستر ذراعيها حولى وجذبتنى لأقترب منها. وهزتنى لتحصل على انتباهى الكامل قبل أن تقول: «فكر فى أننى عائلتك، أختك».

أجبت: «لكنى ليس لى أخت».

«حسنًا، الآن لك. هل ترى، هذا هو الجميل فى أن تكون لك عائلة جديدة. يمكنك أن يكون لديك أعضاء عائلة من أنواع مختلفة». ونظرت لى مباشرة، منتظرة منى أن أقول شيئًا.

قلت: «وهو كذلك، يمكن أن تكونى أختى، مؤقتًا»، وشددت على الكلمة الأخيرة.

قالت: «لا مانع عندى. إذن هل ستأتى لرؤية أختك المؤقتة غدًا، من فضلك؟» وغطت وجهها كما لو كانت ستحزن لو قلت لا.

قلت: «وهو كذلك، لا داعى لأن تحزنى»، وضحكنا نحن الاثنين قليلاً.

كانت ضحكة إستر تذكرنى دائماً بأبيجيل، فتاة كنت أراها أثناء الفصلين الأولين من مدرستى الثانوية فى «بو تاون». أحيانًا كنت أتمنى أن تكون إستر هى أبيجيل، لكى نستطيع أن نتحدث عن الأوقات القديمة قبل الحرب. كنت أريد أن نضحك بكل كياننا، ضحكات أطول وبدون هموم، كما كنت أفعل مع أبيجيل، ولكنى لم أعد أستطيع ذلك. وفى نهاية كل ضحكة، كان يهاجمنى دائماً شعور بالحزن لا أستطيع الإفلات منه.

أحيانًا كنت أحدق فى إستر وهى مشغولة بأوراقها. وعندما كانت تشعر بعينى تتفحصان وجهها، كانت تلقى بورقة مطوية علىَّ دون أن تنظر تجاهى. كنت أبتسم، وأضع الورقة المطوية فى جيبى، متظاهرًا بأن الورقة البيضاء كانت مذكرة خاصة كتبتها لى.

فى ذلك المساء، عندما قامت إستر مبتعدة من حيث كنت أجلس على الصخرة، ظلت تتلفت باستمرار لتلوح لى، حتى اختفت خلف إحدى القاعات. ابتسمت لها ونسيت وحدتى بعض الوقت.

* * *

فى اليوم التالى أخبرتنى إستر أن هناك زائرين قادمين إلى المركز. طلب المشرفون من الأولاد أن يقيموا حفلاً لاستعراض مواهبهم. وكان المفترض فى الأساس أن نقوم جميعًا بفعل شىء نحسنه.

اقترحت إستر: «يمكنك أن تغنى أغانى الريجى التى تتقنها».

سألت: «ماذا لو تلوت فقرة من شكسبير؟»

قالت: «حسنًا، لكنى لا أزال أظن أنك ينبغى أن تقوم ببعض الغناء».

ووضعت ذراعيها حولى. كنت قد أصبحت مغرمًا بإستر جدًّا، ولكنى رفضت إظهار ذلك. عندما كانت تحتضننى أو تضع ذراعيها حولى، كنت أهرب من حضنها بسرعة. ومع ذلك، فعندما كانت تغادرنى، كنت أنظر إليها وهى ذاهبة. كانت لها مشية فريدة ورشيقة. كأنها هى تبحر على الأرض. كنت أجرى دائمًا لأراها بعد الحصة لأخبرها عن يومى. كان أصدقائى، مامبو والحاجى يسخران منى. «صديقتك هنا يا إشمائيل، طبعًا لن نراك طوال بعد الظهر؟»

* * *

بعد ظهر أحد الأيام، وصل الزائرون إلى المركز فى قافلة من السيارات. كانوا من اللجنة الأوروبية، والأمم المتحدة، واليونيسيف، والعديد من الجمعيات الأهلية. وكانوا يرتدون بِدَلاً وأربطة عنق، وتبادلوا المصافحات فيما بينهم قبل أن يبدأوا السير لرؤية المركز. بعض الأولاد ساروا خلفهم، جلست أنا فى الشرفة مع مامبو. كان جميع الزائرين يبتسمون، أحيانًا يعدلون وضع أربطة عنقهم أو يكتبون ملاحظات على دفاتر صغيرة كانوا يحملونها. رأى بعضهم أماكن نومنا، والبعض الآخر خلعوا ستراتهم وراحوا يلعبون مباريات مصارعة اليد وشد الحبل مع الأولاد. وبعد ذلك، تم الترحيب بهم فى قاعة الطعام، التى كانت قد أعدت بشكل جميل لتقديم استعراض المواهب. قدم مستر كامارا، مدير المركز، بضع ملاحظات، ثم بدأ الأولاد يحكون قصص العنكبوت «برا» وقصص الوحوش، ويقدمون بعض الرقصات القبلية. وألقيت مونولوجًا من يوليوس قيصر، ثم قدمت مسرحية من نوع الهيب هوب عن توبة طفل جندى كنت قد كتبتها قبل ذلك بتشجيع من إستر.

بعد الاحتفال، أصبحت مشهورًا فى المركز. دعانى مستر كامارا إلى مكتبه ذات صباح وقال: «لقد أعجب هؤلاء الزائرون بك وبأصدقائك حقًّا. وهم يعرفون الآن أنه من الممكن أن يتم تأهيلكم بالفعل». كنت سعيدًا لأننى حصلت على الفرصة لتقديم عرض مرة أخرى، فى سلام. لكن مستر كامارا كان فى روح معنوية مرتفعة، وسألنى: «هل تحب أن تكون متحدثًا باسم هذا المركز؟»

قلت مترددًا: «ولكن، ماذا سوف يكون علىّ أن أفعل أو أقول؟». كنت قد بدأت أفكر أن هذا الشىء قد بدأ يأخذ حجمًا أكبر من حقيقته.

قال: «حسنًا، إذا كان هناك لقاء حول قضية الأطفال الجنود، فى البداية سوف نكتب لك شيئًا تقرأه. وبمجرد أن تتعود على الجو، سوف تكتب الكلمات التى ستلقيها بنفسك، أو كما تريد». كان وجهه جادًا، مما أشعرنى بأنه يعنى ما يقول. وبعد أسبوع واحد على الأكثر، كنت أتحدث فى اجتماع فى فريتاون عن تجنيد الأطفال وكيف ينبغى أن يتوقف. وكنت أؤكد: «صحيح أننا يمكن تأهيلنا»، وأشير إلى نفسى كنموذج. وأقول للناس دائمًا إننى أعتقد أن الأطفال يتصفون بالمرونة وسهولة التكيف مما يجعلهم قادرين على تخطى معاناتهم، لو أتيحت لهم الفرصة.

* * *

كنت فى نهاية الشهر السادس عندما وصل إلى المركز محمد، صديق طفولتى. كانت آخر مرة رأيته فيها عند مغادرتى موجبويمو، مع تالوى وجونيور لتقديم عرض فى ماترو يونج. لم يستطع أن يحضر معنا فى ذلك اليوم، لأنه كان يساعد والده فى تجديد سقف مطبخهم. وكنت كثيرًا ما أتساءل عما حدث له، لكننى لم أفكر أننى سوف أراه ثانية أبدًا. كنت عائدًا من اجتماع فى مدرسة سانت إدوارد الثانوية فى ذلك المساء، عندما رأيت

صبيًّا نحيفًا فاتح البشرة، عظام خديه بارزة، جالسًا على الدكة وحده. وبدا لى مألوفًا، لكنى لم أكن متأكدًا من أننى أعرفه. اقتربت منه، وقفز بمجرد رؤيتى.

صاح: «هاى، يا رجل، هل تتذكرنى؟»، وبدأ يرقص ويغنى: «ها هى الطبول تأتى».

ورحت أرقص معه، وقمنا ببعض الحركات التى تعلمناها سويًّا لهذه الأغنية بالذات فى مجموعة الرقص. وتبادلنا التحية بتلاقى الأكف، ثم تعانقنا. كان لا يزال أطول منى. جلسنا معًا على الدكة، وتحدثنا باختصار عن ذكريات طفولتنا المبهجة. قال لى: «أحيانًا أفكر فى تلك الأوقات العظيمة التى كنا فيها نرقص فى حفلات استعراض المواهب، ونتدرب على رقصات جديدة، ونلعب كرة القدم حتى نعمى عن رؤية الكرة،.... يبدو لى أن كل تلك الأشياء حدثت منذ زمن طويل جدًّا. هذا غريب فعلاً، كما تعرف». ونظر بعيدًا لبرهة.

قلت: «أعرف، أعرف...».

قال يذكرنى: «لقد كنت ولدًا مشاكسًا..».

«أعرف، أعرف...».

* * *

كانت بداية الشهر السابع لى فى مركز التأهيل، عندما جاء ليزلى مرة أخرى ليتحدث معى. تم استدعائى إلى غرفة فى المستشفى حيث كان ينتظر. عندما دخلت إلى الغرفة، وقف وحيانى. كان وجهه يظهر عليه الأسى والسعادة فى نفس الوقت. وسألته ما الأمر.

نظرت إليه بإمعان قائلاً: «هل أنت بخير؟»

«نعم». هرش فى رأسه وغمغم بشىء لنفسه، ثم قال: «إننى آسف لذكر هذا الأمر مرة أخرى. أعرف أنه سوف يزعجك، ولكنى يجب أن أكون أمينًا معك». سار حول الحجرة، ثم بدأ: «لا نستطيع أن نعرف مكان أى فرد من أعضاء أسرتك المباشرة، ومن ثم لابد أن نجد لك عائلة بديلة لرعايتك هنا فى المدينة. أتمنى أن يكون ذلك حسنًا بالنسبة لك. وسوف أسأل عنك بعد أن يكتمل تأهيلك لأرى كيف تسير أمورك فى حياتك الجديدة».

جلس، ونظر لى قائلاً: «حسنًا، هل لديك أى أسئلة أو اعتبارات؟»

قلت: «نعم، أظن ذلك». أخبرته أنه قبل الحرب كان أبى يتحدث عن عمى الذى يعيش فى المدينة. لم أكن أعرف حتى شكله، وبالطبع لا أعرف أين يعيش.

سألنى ليزلى: «ما اسمه؟»

أجبت: «اسمه تومى، وأخبرنى أبى أنه يعمل نجارًا».

كان ليزلى يكتب اسم عمى الغامض فى دفتره، وبعد أن انتهى من كتابة ملحوظاته قال: «لا أعدك بشىء، لكنى سأرى ماذا أستطيع. سوف أعود إليك سريعًا». وتوقف قليلاً، وربت على كتفى، ثم أكمل: «سمعت أنك تقوم بأشياء عظيمة، استمر فى التقدم».

وسار خارجًا من الغرفة. لم أكن أعتمد على أنه سوف يتمكن من أن يجد عمى فى مثل هذه المدينة الكبيرة، خاصة مع المعلومات القليلة التى قدمتها. تركت الغرفة وذهبت لأرى إستر فى الجانب الآخر من المبنى. كانت مشغولة بوضع الإمدادات الجديدة من الضمادات والأدوية فى الخزائن المعلقة على جدران الغرفة. وبمجرد أن لاحظت أننى واقف عند المدخل، بدأت تبتسم، لكنها أكملت عملها. جلست وانتظرتها حتى تنتهى.

سألتنى وهى تضع آخر علبة من الأدوية: «إذن كيف سار اللقاء مع ليزلى؟» أخبرتها بكل شىء قاله لى، وانتهيت بذكر شكى فى أن ليزلى سيتمكن من العثور على عمى. استمعت لى جيدًا، وقالت: «لا تستطيع أن تعرف. فقد يجده».

* * *

بعد ظهر أحد أيام السبت، كنت أتحدث مع إستر ومحمد، دخل ليزلى، مبتسمًا ابتسامة واسعة. ظننت أنه ربما وجد لى بيتًا لرعايتى، وأننى سوف يتم «إعادتى» ـ كان هذا المصطلح يستخدم لوصف عملية إعادة الأطفال الذين كانوا جنودًا إلى اللقاء بالمجتمع.

سألت إستر: «ما هى الأخبار السعيدة؟» نظر ليزلى إلى وجهى المتطلع، ثم عاد إلى الباب مرة أخرى، وفتحه. دخل رجل طويل. كان يبتسم ابتسامة واسعة حقيقية جعلت وجهه يبدو كوجه طفل. كانت يداه طويلتين، ونظر إلىّ مباشرة، مبتسمًا. لم يكن فاتح البشرة كوالدى.

أعلن ليزلى بفخر: «هذا هو عمك».

قال الرجل: «كيف الحال، يا إشمائيل؟»، وسار إلى حيث كنت أجلس. انحنى وعانقنى بقوة عناقًا طويلاً. ظلت ذراعاى متدليتين إلى جانبى.

فكرت، ماذا لو كان مجرد رجل يتظاهر بأنه عمى؟ تركنى الرجل. كان يبكى، وهنا بدأت أعتقد أنه كان بالفعل من عائلتى، لأن هذا البكاء كان أصيلاً، والرجل فى ثقافتى لا يبكى إلا نادرًا.

جلس القرفصاء إلى جوارى، وبدأ قائلاً: «إننى آسف لأننى لم آت أبدًا لرؤيتك طوال تلك السنوات. يا ليتنى لقيتك قبل اليوم. لكن ما مضى لا يمكن استعادته. وليس أمامنا إلا أن نبدأ منذ الآن. إننى آسف لكل

ما لقيت. أخبرنى ليزلى كل شىء». ونظر إلى ليزلى بأعين شاكرة، واستمر يقول: «بعد أن تنتهى من هنا، يمكنك أن تأتى وتعيش معى. إنك ابنى. وليس لدى الكثير، لكنى سوف أمنحك مكانًا للنوم، وطعامًا، وحبى». ووضع ذراعيه حولى.

منذ وقت طويل لم ينادنى أحد بكلمة «ابنى». لم أكن أعرف ماذا أقول. وبدا أن كل شخص كان ينتظر رد فعلى. التفت إلى عمى، وابتسمت له، وقلت: «أشكرك لأنك جئت لترانى. إننى أقدر حقًّا عرضك لى بالإقامة معك. لكنى حتى لا أعرفك». وأحنيت رأسى.

أجاب قائلاً: «كما قلت لك، لا يمكننا إعادة الماضى. لكننا يمكن أن نبدأ من هنا. أنا من عائلتك، وهذا يكفى لكى نبدأ نحب بعضنا». وربت على رأسى وضحك قليلاً.

وقفت، واحتضنت عمى، وعانقنى بقوة أكثر من المرة الأولى، وقبلنى على جبينى. وقفنا لحظات فى صمت، ثم تكلم مرة أخرى: «لا أستطيع البقاء طويلاً، لأن لدى عملا يجب أن أنتهى منه فى الجانب الآخر من المدينة. ولكن منذ الآن فصاعدًا، سوف أزورك فى كل عطلة لنهاية الأسبوع. وإذا لم يكن لديك مانع، أريدك أن تأتى إلى البيت معى فى وقت ما، لترى أين أعيش وتلتقى بزوجتى وأولادى.. عائلتك». وارتعش صوت عمى، كان يحاول أن يكبح تنهداته. ربت على رأسى بيد واحدة، وصافح ليزلى باليد الأخرى.

قال ليزلى: «من الآن فصاعدًا يا سيدى سوف يتم إخبارك بمدى تقدم هذا الشاب».

أجاب عمى: «أشكرك». أمسك يدى وسرت معه نحو السيارة «الڤان» التى وصل فيها هو وليزلى. وقبل أن يركب عمى السيارة مع

ليزلى، احتضننى مرة أخرى، وقال: «إنك تشبه أباك، وتذكرنى به عندما كنا لا نزال نكبر سويًا. أتمنى ألا تكون عنيدًا مثله». وضحك، وضحكت أنا أيضًا. ولوحت، أنا وإستر ومحمد، بأيدينا لهما وهما ذاهبان.

قالت إستر بمجرد أن اختفت السيارة عن أنظارنا: «إنه يبدو رجلاً لطيفًا».

وقال محمد: «تهانى يا رجل، إن لك قريبًا فى المدينة بعيدًا عن كل الجنون».

قلت: «أظن ذلك». لكنى لم أكن أعرف ماذا أفعل فى حالة السعادة التى انتابتنى. كنت لا أزال مترددًا فى ترك العنان لمشاعرى، لأننى كنت أعتقد أن السعادة لا تدوم.

شدنى محمد من أذنى: «هيا يا رجل، ابتهج». ورفعانى هو وإستر وحملانى إلى داخل المستشفى ضاحكين. وفى المستشفى وضعت إستر كاسيت بوب مارلى فى الووكمان، وبدأنا كلنا نرقص: «ثلاثة طيور صغيرة»، معًا. غنينا: «دعك من القلق... لأن كل شىء سيكون على ما يرام...».

* * *

فى تلك الليلة جلست فى الشرفة مع مامبو والحاجى ومحمد. كنا هادئين كالعادة. وشق سكون الليل صوت بعيد لسيارة إسعاف فى المدينة. بدأت أتساءل ترى ماذا يفعل عمى فى تلك اللحظة. وتخيلته يجمع عائلته ليخبرهم عنى. واستطعت أن أتخيله ينهنه أثناء روايته وأفراد عائلته يلحقون به فى البكاء تدريجيًا. كان جزء بداخلى يريدهم أن يبكوا قدر ما يستطيعون قبل أن ألقاهم، لأنى دائمًا لم أكن أشعر بارتياح عندما يبكى الناس بسبب ما لقيته وخضته فى حياتى. نظرت إلى الحاجى ومامبو، اللذين كانا يحدقان

فى الظلام. كنت أريد أن أخبرهما بالعثور على عمى، لكنى شعرت بالذنب لأنهما لم يجدا أى شخص من عائلتيهما. كما لم أكن أريد أن أكسر الصمت الذى عاد بعد أن خفت صوت سيارة الإسعاف حتى ضاع فى السكون.

وكما وعد عمى، كان يأتى لزيارتى فى العطلة الأسبوعية كل أسبوع.

قلت لإستر فى أول مرة يأتى بعد زيارته الأولى: «عمى قادم، رأيته على الطريق بجوار شجرة المانجو».

وضعت قلمها وقالت: «إنك منفعل». وتفحصت وجهى برهة، ثم أكملت: «قلت لك إنه يبدو رجلاً طيبًا».

دخل عمى من الباب، ومسح العرق عن جبينه بمنديله قبل أن يعانقنى. وألقى التحية على إستر ونحن متعانقان. وبمجرد أن وقفنا متواجهين، بدأ يبتسم ابتسامة واسعة حتى إن وجهى استرخى وبدأت أنا أيضًا أبتسم. وضع حقيبته على الأرض، وأخرج بعض البسكويت وزجاجة من بيرة الزنجبيل.

وقال وهو يقدمها لى: «فكرت أنك قد تحتاج إلى بعض الوقود قبل أن نتمشى معًا».

اقترحت إستر: «ينبغى أن تسيرا فى الطريق المفروش بالحصى الصاعد إلى التل». وأومأنا أنا وعمى برأسينا موافقين على الفكرة.

قالت، ناظرة إلى عمى: «لن أكون هنا عند عودتكما، لقد سررت بلقائك يا سيدى». والتفتت لى قائلة: «سأراك غدًا».

تركت أنا وعمى المستشفى، وبدأنا نسير فى الاتجاه الذى اقترحته إستر. كنا هادئين فى البداية. كنت أستمع إلى صوت خطواتنا على الطريق المترب. وكان يمكننى سماع حركة السحالى تعبر الطريق لتتسلق شجرة المانجو القريبة. وكنت أشعر بعينى عمى علىّ.

سألنى: «كيف الحال؟ هل يعاملونك جيدًا فى هذا المكان؟»

أجبت: «كل شىء جميل هنا».

«أتمنى ألا تكون شديد الهدوء مثل والدك». ومسح جبينه مرة ثانية، ثم سألنى: «هل تحدث والدك أبدًا عن عائلته؟»

«أحيانًا كان يفعل، رغم أن ذلك لم يكن كثيرًا كما أتمنى لو فعل». رفعت رأسى المحنى، والتقت عيناى للحظة بعينى عمى الجذابتين قبل أن أحول بصرى بعيدًا. كان الطريق المفروش بالحصى يضيق كلما اقتربنا من سفح التل. أخبرته أن أبى تحدث عنه فى قصة من قصص شقاوة الطفولة. وأخبرته أن أبى حكى لى عن المرة التى ذهبا فيها إلى الأحراش لإحضار خشب للنار، واصطدما عن غير قصد بخلية نحل. وطاردهما النحل فجريا نحو القرية. ولأن أبى كان أقصر تجمع معظم النحل حول رأس عمى، ركضا وغطسا فى نهر، ولكن النحل تجمع فوق الماء منتظرًا ظهورهما. واضطرا أن يحبسا أنفاسهما، لكى يتمكنا من الخروج من المياه وجريا إلى القرية، والنحل وراءهما.

قال عمى: «نعم، أتذكر. لقد انزعج الجميع منا لإحضار النحل إلى القرية، لأن النحل قرص الرجال العجائز الذين لا يستطيعون الجرى بسرعة، وبعض الأطفال الصغار. أنا ووالدك أغلقنا الباب، واختفينا تحت السرير، وجعلنا نضحك على ما حدث». كان عمى يضحك، ولم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك أنا أيضًا. وبعد أن توقف عن الضحك، تنهد وقال: «آه، أبوك وأنا، لقد كنا مشاكسين للغاية. ولو كنت أنت مشاكسًا مثلنا، أظن أننى سوف أمنحك مهلة، لأنه لن يكون من العدل أن أثقل عليك». ووضع ذراعه حول كتفى.

قلت بحزن: «أظن أن أيام شقاوة الطفولة قد انتهت منذ وقت طويل بالنسبة لى».

قال عمى: «آه، لكنك لا تزال صبيًّا، ولا يزال لديك بعض الوقت لمزيد من الشقاوة». سادنا الهدوء مرة أخرى، واستمعنا إلى نسيم المساء يئز بين الأشجار.

أحببت هذه المسيرات مع عمى، لأنها أعطتنى فرصة للتحدث عن طفولتى، وعن كيف تربيت مع أبى ومع أخى الأكبر. كنت بحاجة للحديث حول تلك الأوقات الطيبة قبل الحرب. لكن كلما تحدثت أكثر عن أبى، ازداد حنينى لأمى وأخى الأصغر أيضًا. لم أكن قد تربيت معهما. شعرت كما لو أننى فقدت تلك الفرصة ولن أستطيع استرجاع ذلك أبدًا، وكان ذلك يحزننى. تحدثت مع عمى عن ذلك، لكنه استمع إلى فقط، لأنه لم يكن يعرف أمى ولا أخى الأصغر. ولكى يجعل الأمور تتوازن بالنسبة لى، جعلنى أتكلم عن الوقت الذى عاشته عائلتى فى ماترو يونج، عندما كان والداى يعيشان معًا. وحتى حينئذ، لم يكن هناك الكثير لأذكره، فقد افترق والداى وأنا صغير جدًّا.

* * *

أثناء تلك المسيرات معًا، أصبحت أعرف عمى جيدًا، وبدأت أنتظر وصوله فى عطلة نهاية الأسبوع بشوق. كان دائمًا يحضر لى شيئًا معه، ويحدثنى كيف كان أسبوعه. حدثنى عن السقف الذى بناه لبيت أحد الأشخاص، والمنضدة الجميلة التى كان عليه إكمالها بالطلاء فى اليوم التالى، وكيف حال أبناء عمى فى المدرسة، وأبلغنى السلام من زوجته. وفى المقابل كنت أروى له عن دورات لعب تنس الطاولة وكرة القدم التى شاركت فيها، والعرض الذى قدمناه للزائرين، إن كان هناك عرض أثناء الأسبوع.

سرنا مرات كثيرة على نفس الطريق المفروشة بالحصى لدرجة أننى أستطيع أن أتفادى الصخور الكبيرة فى طريقنا مغمض العينين.

فى إحدى عطلات نهاية الأسبوع أخذنى عمى لمقابلة أسرته. كان يوم سبت، وكانت الشمس شديدة التألق حتى إننا لم نكن نستطيع رؤية ظلالنا على الأرض. كان يعيش فى منطقة تسمى نيو إنجلاند فيل، وهى منطقة مرتفعة فى الجزء الغربى من فريتاون. جاء عمى إلى بيت بنين مبكرًا عن المعتاد ليأخذنى. وركبنا سيارة لورى شديدة الضجيج حتى وسط المدينة. كنا هادئين لفترة من الطريق، ولكن بدأنا نضحك، لأن الرجلين الجالسين بجوارنا كانا يتناقشان فى أى نوع من نبيذ النخيل أفضل، النوع الذى يستخرج من نخلة واقفة، أم ذلك الذى يؤخذ من النخلة بعد وقوعها. كان الرجلان لا يزالان يتناقشان فى ذلك عندما نزلنا من اللورى. سرنا ببطء نحو بيت عمى، وقد وضع ذراعه حول كتفى. كنت سعيدًا بالسير مع عمى، لكنى كنت قلقًا إن كانت أسرته سوف تتقبلنى مثله ـ دون أن يسألونى أى سؤال عن سنوات الحرب.

وبينما نسير صاعدين للتل، ونقترب من بيت عمى، جذبنى إلى جانبه وقال: «لقد رويت لزوجتى عن حياتك السابقة كجندى. لكنى حفظت ذلك سرًا عن أطفالى. لا أظن أنهم سوف يفهمون مثلما أفهم أنا وزوجتى. أتمنى ألا يكون لديك مانع». أومأت برأسى وقد شعرت بالارتياح، وواصلنا طريقنا.

وبمجرد أن استدرنا عند إحدى النواصى، وصعدنا مرتفعًا من الأرض على طريق مفروشة بالحصى، وصلنا إلى بيت عمى. كان البيت يشرف على المدينة، ومن الشرفة نستطيع رؤية السفن فى الميناء. كان منظر المدينة جميلاً، هذا هو المكان الذى سيصبح بيتى. لم يكن بالبيت كهرباء أو مياه جارية،

وكان المطبخ بعيدًا عن البيت ومصنوعًا بكامله من ألواح الزنك. وتحت شجرة مانجو على بعد أمتار قليلة من الفناء كان التواليت والـ «كيول» ـ وهو دش فى الهواء الطلق. ذكرنى المكان بهاترو يونج.

عندما دخلنا الشرفة، خرجت زوجة عمى، كان وجهها يلمع وكأنها قضت حياتها كلها فى تلميعه. وقفت عند مدخل الباب، وربطت إزارها جيدًا قبل أن تتقدم وتعانقنى بقوة حتى إننى شعرت بوجهى يكاد يتحطم تحت ذراعيها. ثم أرسلتنى، ووقفت أمامى، وقرصت خدى مداعبة.

قالت: «أهلاً بك يابنى»، كانت امرأة قصيرة ولها بشرة داكنة للغاية، وعظام وجنتين مستديرة، وعينان لامعتان مضيئتان. لم يكن لعمى أبناء من صلبه، ومن ثم كان يربى أطفال العائلة كأبنائه. وكان هناك أربعة منهم ـ على، أكبرهم، وماتيلدا، وكونا، وسومبو، أصغرهم، والتى كان عمرها ست سنوات. وقد توقفوا جميعًا عن المهام التى كانوا يقومون بها، وجاءوا إلى الشرفة ليعانقوا «أخاهم»، وشرح لهم عمى العلاقة بينى وبينهم.

قال على بعد أن عانقنى: «جميل أن يكون معنا صبى آخر فى العائلة». ضحك هو وعمى، وابتسمت أنا. كنت شديد الهدوء فى ذلك اليوم. بعد التقديم انصرف الجميع إلى شئونهم، وتركونى مع عمى وزوجة عمى، وجلسنا فى الشرفة. أعجبنى المنظر من المنزل، وظللت أنظر نحو المدينة. وفى كل مرة كنت أنظر إلى عمى، كنت أجده يبتسم بفرحة. وراحت زوجة عمى تحضر لنا أطباقًا كبيرة من الأرز والسمك واليخنى واللسان. وجعلتنى آكل كثيرًا لدرجة أن بطنى تضخمت. وبعد أن انتهينا من الأكل، فرجنى عمى على أدوات النجارة الخاصة به، ومنضدة العمل (التازجة)، والتى كانت بالخارج، تحتل معظم مساحة الفناء الصغير.

قال عمى: «إذا كنت تحب النجارة، سوف يسعدنى أن تكون مساعدًا لى. ولكن من معرفتى بوالدك، أستطيع أن أخمن أنك تريد الذهاب إلى المدرسة». ابتسمت ولم أقل شيئًا. جاء على وسأل عمى إن كان لا مانع لديه من أن يأخذنى معه إلى مباراة كرة قدم محلية. قال عمى إن الأمر متروك لما أريده أنا. ذهبت مع على إلى حقل فى منطقة تسمى «بروكفيلدز».

قال على لى ونحن فى انتظار بدء المباراة: «إننى سعيد لأنك ستقيم معنا، يمكن أن نشترك معًا فى غرفتى». كان أكبر منى وقد انتهى من مدرسته الثانوية، وكان مرحًا ومهذبًا للغاية. وظهر ذلك فى سلوكياته. كان يتحدث جيدًا، وفى الموضوع مباشرة.

وقبل أن تبدأ المباراة، لوحت لنا فتاة من الركن الآخر من الحقل. كانت لها أجمل ابتسامة رأيتها فى حياتى، وكانت تضحك كثيرًا. كنت على وشك أن أسأل من هى عندما تحدث على: «إنها ابنة عم لنا، لكنها تعيش عبر الشارع مع عائلة ترعاها. اسمها أميناتا. سوف تلتقى بها».

كانت أميناتا ابنة أخ ثان لأبى، الذى كان أخاه من أم أخرى. وفيما بعد أصبحت قريبًا منها ومن على أكثر من الأطفال الآخرين فى عائلتى الجديدة.

أثناء مسيراتى الكثيرة مع عمى، عرفت أن جدى كانت له زوجات كثيرات، وأن أبى له إخوة لم يتحدث عنهم أبدًا. وكان أبى هو الطفل الوحيد من ناحية والدته.

فى مباراة كرة القدم، كل ما استطعت أن أفكر فيه هو اكتشاف عائلة لم أكن أعلم أبدًا بأنها موجودة. كنت سعيدًا، لكنى كنت قد أصبحت معتادًا على عدم إظهار سعادتى. كان على يضحك طوال المباراة، وأنا لم أستطع

حتى إن أحمل نفسى على الابتسام. وعندما عدنا، كان عمى فى الشرفة، ينتظر أن يأخذنى لأعود إلى المركز. أمسك بيدى ونحن نسير إلى محطة الأتوبيس. كنت هادئًا طوال الرحلة. ولم أتكلم إلا لأشكر عمى بعد أن أعطانى أجرة الركوب لاستخدامها إذا أردت زيارته بنفسى فى أى وقت.

وعند مدخل المركز، عانقنى عمى، وبينما نفترق، التفت ناحيتى قائلاً: «سأراك قريبًا جدًّا، يا بنى».

(١٩)

قبل أسبوعين من الموعد المحدد، أخبرنى ليزلى أننى سيتم «إعادتى» ورجوعى إلى المجتمع الطبيعى. وكنت سوف أعيش مع عمى. شعرت بأن هذين الأسبوعين أطول من الأشهر الثمانية التى قضيتها فى بيت بنين. كنت قلقًا من الحياة مع عائلة. لقد عشت على مسئوليتى لسنوات، ورعيت نفسى دون توجيه من أى أحد. كنت أخشى أن أبدو غير ممتن لعمى، الذى لم يكن مضطرًا أن يأخذنى فى أسرته، لو كنت متباعدًا عن الوحدة الأسرية. كنت أخشى مما سوف يحدث لو تملكتنى الكوابيس الليلية والصداع النصفى. كيف لى أن أفسر لعائلتى، وخاصة للأطفال، الحزن الذى يستولى على ملامحى، والذى لم أكن قادرًا على إخفائه. لم تكن لدى إجابات عن تلك الأسئلة، وعندما أخبرت إستر عنها، قالت لى إن كل شىء سيكون على ما يرام، لكنى كنت أريد ما هو أكثر من مجرد الطمأنة.

كنت أرقد فى سريرى ليلة بعد أخرى أحدق فى السقف وأفكر، لماذا تجاوزت الحرب حيًا؟ لماذا كنت أنا آخر فرد يعيش من بين أفراد أسرتى المباشرة؟ لم أكن أعرف. توقفت عن لعب كرة القدم وتنس الطاولة. ورغم ذلك كنت أذهب لرؤية إستر كل يوم، وكنت ألقى بالتحية، وأسألها كيف الحال، ثم أغيب فى أفكارى عن حياتى بعد المركز، كيف ستكون. أحيانًا

كانت إستر تضطر إلى طرقعة أصابعها أمام وجهى لتستعيدنى من أفكارى. وفى الليل كنت أجلس هادئًا فى الشرفة مع محمد والحاجى ومامبو، ولا ألاحظ متى تركوا المقعد الذى كنا نجلس جميعًا عليه.

عندما جاء أخيرًا يوم عودتى، جمعت أشيائى القليلة فى كيس من البلاستيك. كان عندى زوج من الأحذية الخفيفة، وأربع فانلات تى شيرت، وثلاثة شورتات، ومعجون أسنان، وفرشة أسنان، وزجاجة من الفازلين، ووكمان وبعض أشرطة الكاسيت، وقميصان بكم طويل، وبنطلونان ورباط عنق - وهذه الأشياء تم شراؤها لى لارتدائها أثناء إلقائى للكلمات فى المؤتمرات. انتظرت، وقلبى يدق بشدة، كما كان يحدث عندما تركتنى أمى لأول مرة أمام المدرسة الداخلية. سمعت صوت السيارة الفان على الطريق المفروش بالحصى، تتخذ طريقها إلى المركز. أمسكت بالشنطة البلاستيكية، وسرت إلى مبنى المستشفى حيث كان ينبغى أن أنتظر. كان محمد والحاجى ومامبو جالسين على الدرجات الأمامية، وظهرت إستر، باسمة. لفت السيارة الفان وتوقفت على جانب الطريق. كان ذلك فى أواخر فترة ما بعد الظهر، وكانت السماء لا تزال زرقاء، لكن الشمس كانت باهتة، مختبئة خلف السحابة الوحيدة فى السماء. جلس ليزلى فى المقعد الأمامى ينتظر ركوبى، ليأخذنى إلى بيتى الجديد.

قلت للجميع بصوت مرتجف: «لابد أن أذهب». ومددت يدى إلى محمد، الذى بدلاً من أن يصافحنى، قفز وعانقنى. واحتضننى مامبو بينما كان محمد لا يزال يمسك بى. واعتصرنى بشدة كما لو كان يعرف أنه وداع إلى الأبد (بعد أن تركت المركز، عاد مامبو إلى الخطوط الأمامية، لأن عائلته رفضت استعادته). وفى نهاية العناق، صافحنى الحاجى بقوة. اعتصرنا أيدى بعضنا وحدق كل منا فى عينى الآخر، متذكرين كل ما مررنا به سويًا. وضربت بخفة على كتفه، فابتسم، كما لو كان قد فهم أننى أقول

أننا سنكون على ما يرام. ولم أره بعد ذلك أبدًا، حيث إنه ظل ينتقل من بيت أسرة بديلة إلى الآخر. وفى نهاية مصافحتنا، خطا الحاجى إلى الخلف، وألقى لى التحية العسكرية قائلاً: «وداعًا يا قائد الفرقة». لكنى ربت على كتفه مرة أخرى؛ ولم أستطع أن أرد له التحية. وتحركت إستر وقد عقدت ما بين حاجبيها، وبللت الدموع عينيها. احتضنتنى بقوة أكثر من أى وقت مضى. ولكنى لم أحتضنها بنفس القوة، فقد كنت مشغولاً بمحاولة إمساك نفسى عن البكاء. بعد أن تركتنى، أعطتنى ورقة، وقالت: «هذا عنوانى، تعال زرنى فى أى وقت».

وقد ذهبت إلى بيت إستر بعد بضعة أسابيع من ذلك اليوم. ولكن توقيتى لم يكن جيدًا، حيث كانت فى طريقها إلى العمل. عانقتنى، وفى هذه المرة استطعت أن أعانقها أيضًا؛ وقد جعلها هذا تضحك بعد أن وقفنا متواجهين. نظرت مباشرة إلى عينى، وقالت: «تعال وزرنى فى نهاية الأسبوع القادم ويمكن أن يكون لدينا المزيد من الوقت، موافق؟» كانت ترتدى زيها الأبيض، وكانت فى طريقها لأخذ أطفال آخرين ممن تأذوا من الحرب. لابد أن الحياة صعبة مع كل قصص الحرب هذه. كنت أعيش مع واحدة فقط، قصتى، وكانت صعبة، فقد استمرت الكوابيس التى تدور حول ما حدث تعذبنى. لماذا عليها أن تفعل ذلك؟ لماذا يفعلون كلهم ذلك؟ فكرت ونحن نسير كل منا فى طريقه. كانت هذه هى المرة الأخيرة التى رأيتها فيها. لقد أحببتها، لكننى لم أقل لها ذلك أبدًا.

* * *

لقينى عمى مفتوح الذراعين بمجرد نزولى من السيارة الفان، وحملنى إلى الشرفة. «إننى أرحب بك اليوم كزعيم، ولن تلمس قدماك الأرض إلا عندما تفقد زعامتك، وهذا يبدأ الآن»، قال هذا ضاحكًا وهو ينزلنى على

الأرض. ابتسمت، لكنى كنت عصبيًّا. عانقنى أولاد عمى ـ على والبنات الثلاث، ماتيلدا وكونا وسومبو ـ واحدًا بعد الآخر، وكانت وجوههم تتألق بالابتسامات.

وقالت زوجة عمى: «لابد أنك جائع؛ لقد طهوت لك طبقًا احتفاليًّا، «ساكى ثومبوى». كانت قد طهت أوراق الكسافا بالدجاج ترحيبًا بى. وإعداد دجاج لأى شخص شىء نادر، ويعتبر تشريفًا، فالناس لا يأكلون الدجاج إلا فى الأعياد، مثل عيد الميلاد ورأس السنة. أمسكت العمة سالاى بيدى وأجلستنى على مقعد إلى جوار عمى. وأحضرت الطعام إلى الخارج، وأكلت أنا وعمى معًا من نفس الطبق بأيدينا. كانت وجبة جيدة ولعقت أصابعى، مستمتعًا بزيت النخيل الغنى. نظر عمى إلى ضاحكًا وقال لزوجته: «سالاى، لقد فعلتها مرة أخرى. هذا الشخص جاء ليبقى معنا».

وبعد أن غسلنا أيدينا، تم استدعاء ابن عمى على، وكان فى الواحدة والعشرين من عمره، إلى الشرفة، وطُلب منه أن يرينى أين سأنام. أخذت الكيس البلاستيك وتبعته إلى بيت آخر كان خلف البيت الذى به غرفة نوم عمى. كان الممشى بين البيتين يشبه الممر، وقد رُصّت الحجارة بحرص على جانبيه.

أمسك على بالباب لى وأنا أدخل الغرفة النظيفة المنظمة. كان السرير مرتبًا، والملابس المعلقة على عمود مكوية، والأحذية مرتبة فى صف على منصة، والأرض المبلطة البنية لامعة. جذب حشية من تحت السرير، وشرح لى أننى سوف أنام على الأرض، حيث إنه يشترك فى السرير مع زميل. وكان على أن أطوى الحشية وأعيدها تحت السرير كل صباح. وبعد أن انتهى من شرح كيف أساهم فى الحفاظ على نظافة الغرفة ونظامها، عدت إلى الشرفة،

وجلست مع عمى، الذى وضع ذراعه حولى وشد أنفى. وسألنى: «هل تعرف المدينة جيدًا؟»

«ليس تمامًا».

«سوف يأخذك على فى جولات أحيانًا، إن كنت تحب. أو يمكنك أن تغامر بنفسك، تضل الطريق، ثم تهتدى إليها. إنها أفضل طريقة للتعرف على المدينة». وضحك. سمعنا آذان الصلاة الذى تردد صداه فى المدينة.

قال: «سوف أذهب للصلاة. إذا احتجت أى شىء، فاسأل أبناء عمومتك». وأخذ إناء من فوق المصطبة، وبدأ يتوضأ. بعد أن فعل ذلك سار نازلاً التل إلى الجامع القريب. خرجت العمة من الغرفة، وهى تربط رأسها بغطاء من القماش، وتبعت عمى.

تنهدت، جالسًا وحدى فى الشرفة. لم أعد عصبيًّا، لكنى شعرت بأننى أفتقد بيت بنين. وفيما بعد فى تلك الليلة، عندما عاد عمى وزوجته من الصلاة، اجتمعت عائلتى الجديدة كلها حول جهاز كاسيت فى الشرفة لسماع الحكايات. فرك عمى يديه، وضغط على زر التشغيل، وبدأ راوى حكايات مشهور يسمى ليله جبومبا يروى قصة عن رجل نسى قلبه فى البيت عندما رحل يتجول حول العالم. كنت قد سمعت القصة فى قرية جدتى وأنا صغير. ضحكت عائلتى الجديدة أثناء رواية القصة. أما أنا فابتسمت وكنت هادئًا جدًّا فى تلك الليلة، وسوف أكون هادئًا لفترة أطول. لكن بالتدريج بدأت أعتاد التواجد بين أناس يشعرون بالسعادة طول الوقت.

* * *

بعد يوم أو يومين من بداية إقامتى مع عمى، أعطانى على أول زوج من الأحذية الجيدة، وحزامًا، وقميصًا أنيقًا.

وضحك قائلاً: إن كنت تريد أن تكون شابًا أنيقًا، لابد أن تلبس مثل الشباب». كنت على وشك أن أسأله لماذا يعطينى تلك الأشياء عندما بدأ يشرح لى: «هذا سر. أريد أن آخذك إلى الرقص الليلة لكى تستمتع قليلاً. سوف نذهب بعد أن ينام العم».

فى تلك الليلة، تسللنا خارجين وذهبنا إلى أحد المراقص. وعندما كنت أسير مع على، تذكرت عندما كنت أذهب إلى الرقص فى المدرسة الثانوية مع أصدقائى. وبدا ذلك منذ زمن طويل، لكنى لا أزال أتذكر المناسبات التى كانت تقام فيها حفلات الرقص: «العودة إلى المدرسة»، «وضع القلم»، «ليلة بوب مارلى»، ومناسبات أخرى كثيرة. كنا نرقص حتى يصيح الديك، ثم نخلع قمصاننا المبتلة بالعرق، مستمتعين بنسيم الصباح البارد ونحن نعود إلى بيوتنا. كنت سعيدًا بالفعل فى تلك الأيام.

قال على: «لقد وصلنا»، وهو يهز يدى ويطرقع بأصابعه. كان هناك عدد كبير من الشباب منتظرين فى صف للدخول إلى المرقص. كان الأولاد يرتدون ثيابًا أنيقة، بنطلوناتهم مكوية وقد دسوا أطراف قمصانهم فيها. وكانت البنات ترتدى ثيابًا جميلة مطبوعة بالزهور وكعوبًا عالية جعلتهن أطول من بعض الأولاد الذين جاءوا معهن. كانت شفاههن مطلية بألوان زاهية. وكان على منفعلاً ويتحدث مع الناس الذين أمامنا. وكنت هادئًا، أنظر إلى الأضواء متعددة الألوان والمعلقة عند المدخل. كان هناك ضوء أزرق كبير جعل القمصان البيضاء بخاصة تبدو جميلة. وأخيرًا وصلنا إلى المدخل، ودفع على لكلينا. كانت الموسيقى مرتفعة جدًا بالداخل، ولكن مرة أخرى، لم أكن قد دخلت مكانًا للرقص منذ سنوات. تبعت على إلى منطقة البار، حيث وجدنا منضدة وجلسنا على مقعدين مرتفعين.

أعلن على قائلاً: «إننى ذاهب إلى أرضية الرقص»، كان يصيح لكى أتمكن من سماعه. واختفى فى الزحام. جلست لحظات أتأمل المكان، وببطء بدأت أرقص وحدى فى طرف دائرة الرقص. فجأة جذبتنى فتاة داكنة البشرة جدًّا ولها ابتسامة أضاءت دائرة الرقص، وقادتنى إلى وسط الدائرة قبل أن أتمكن من المقاومة. وبدأت ترقص بجانبى. نظرت إلى على، الذى كان واقفًا عند البار. أشار لى بإبهامه إشارة تشجيع، وبدأت أتحرك ببطء حتى استولى على الإيقاع. رقصت على إحدى أغنيات «راجامورفى» مع الفتاة، ثم كانت هناك موسيقى بطيئة. جذبتنى إليها، وأمسكت يدها برقة ونحن نتمايل على الموسيقى. كنت أشعر بدقات قلبها. حاولت أن تلتقى عيناها بعينى، لكنى كنت أنظر بعيدًا. وفى وسط الأغنية، جاء فتى أكبر منا وجذبها منى. فأشارت بيدها وهى تبتعد خلفه بين الزحام متجهة نحو الباب.

قال على: «إنك رائع يا رجل، لقد رأيت هذا». كان الآن واقفًا بجوارى. وبدأ يسير نحو البار فتبعته. استندنا على الكاونتر، مواجهين أرضية الرقص. كان لا يزال يبتسم.

قلت: «الواقع أننى لم أفعل شيئًا. هى التى أرادت أن ترقص معى ولم أستطع أن أقول لا».

قال مازحًا: «بالضبط، أنت لا تقول شيئًا والنساء يأتين إليك». لم أكن أريد أن أتكلم أكثر من ذلك. فقد قدحت فى ذهنى ذكرى مدينة كنا قد هاجمناها أثناء حفلة مدرسية راقصة. كنت أستطيع سماع الصرخات الفزعة للمعلمين والتلاميذ، وأستطيع رؤية الدم يغطى أرضية الرقص. نقر على كتفى وأعادنى إلى الحاضر. ابتسمت له، لكنى كنت حزينًا فى أعماقى طوال باقى السهرة. رقصنا طوال الليل وعدنا قبل أن يستيقظ العم.

بعد بضع ليال، عدت إلى المرقص وحدى، ورأيت نفس الفتاة. أخبرتنى أن اسمها زينب.

وقالت: «آسفة لما حدث المرة الماضية، كان أخى يريد العودة إلى البيت وكان لابد أن أذهب معه، وإلا يقلق والداى».

وكانت وحدها فى تلك الليلة مثلى.

تلاقينا لمدة ثلاثة أسابيع، لكنها بدأت تسأل أسئلة أكثر من اللازم. من أين أنا؟ كيف الحال مع من ينشأ على الخط؟ «على الخط» كلمة تقال بلغة الكريو، وتستخدم أساسًا فى فريتاون للإشارة إلى تخلف المناطق الريفية الداخلية وسكانها وسلوكياتهم الحياتية. ولم أكن مستعدًا لإخبارها بأى شىء، فقطعت علاقتها بى. وكانت هذه قصة علاقتى بالبنات فى فريتاون. كن يرغبن فى معرفة المزيد عنى، ولم أكن مستعدًا لإخبارهن. ولم أكن أهتم. كنت أحب أن أكون وحدى.

* * *

جاء ليزلى لرؤيتى. وسأل كيف تسير أحوالى وما هى خططى. أردت أن أخبره أننى عانيت من صداع نصفى حاد كانت أثناءه صورة قرية تحترق تتواتر فى ذهنى، وبعدها عويل لأصوات متعددة؛ وأننى شعرت بظهر رقبتى يتصلب ورأسى تثقل، كما لو كانت صخرة هائلة قد وضعت فوقها. ولكنى بدلاً من ذلك قلت له إن كل شىء على ما يرام. أخرج ليزلى دفترًا ورقيًا، وراح يكتب شيئًا فيه. وعندما انتهى التفت لى وقال: «لدى عرض لك. وهو مهم».

قلت مازحًا: «أنت دائمًا حامل الأخبار، أليس كذلك؟»

قال: «هذا مهم». ونظر إلى الورقة التى كتبها وأكمل قائلاً: «هناك مقابلة

لاثنين من الأولاد سيتم إرسالهما إلى الأمم المتحدة فى نيويورك، فى أمريكا، للتحدث حول حياة الأطفال فى سيراليون وما يمكن فعله بهذا الشأن. وقد أوصى مستر كامارا، مدير المركز التأهيلى الذى كنت فيه، بذهابك إلى هذه المقابلة. هذا هو العنوان، إن كنت مهتمًا». وقطع الورقة من الدفتر، وأعطاها لى. وبينما كنت أنظر إليها استمر يقول: «إن كنت تريد منى الذهاب معك، تعالَ إلى المكتب. وارتد ثيابًا لائقة من أجل المقابلة، وهو كذلك؟» وتفحص وجهى بحثًا عن إجابة. لم أقل شيئًا. وبعد ذلك رحل، والابتسامة على وجهه تقول إنه عرف أننى سوف أذهب إلى المقابلة.

* * *

أخيرًا جاء يوم المقابلة، وارتديت ملابس صباحية لها. ارتديت حذاء، وبنطلونًا أسود حسن المظهر، وقميصًا أخضر بكم طويل. ووضعت أطراف القميص داخل البنطلون وأنا فى طريقى إلى العنوان الذى أعطاه لى ليزلى فى شارع سياكا ستيفنز. لم أخبر أحدًا أننى ذاهب. كنت أريد أن أتحدث عن ذلك مع على، لكنى ترددت، لأنى عرفت أننى لو فعلت ذلك، فسوف أضطر لإخباره بالمزيد عن نفسى أكثر مما أخبره به عمى.

كان منتصف اليوم تقريبًا، لكن الطريق الأسفلتى كان شديد الحرارة بالفعل. راقبت كيسًا من البلاستيك يطير ثم يهبط على الأرض وسرعان ما بدأ يذوب. كانت سيارات الـ «بودا بودا» تمر، وقادتها يصيحون بأسماء الأماكن التى يقصدونها لجذب الزبائن. وعلى بعد بضعة أقدام أمامى توقفت سيارة على جانب الشارع، وكان السائق يصب ماء من جركن فوق الموتور الذى ارتفعت حرارته كثيرًا. وقال مغمغمًا: «هذه السيارة تشرب ماء أكثر من البقرة». كنت أسير ببطء، لكن قميصى التحتى كان غارقًا فى العرق.

عندما وصلت إلى العنوان، وجدت نفسى أمام بناية عالية وتعجبت من ارتفاعها قبل أن أدخل. فى البهو كان هناك حوالى عشرين صبيًّا، كلهم يرتدون ثيابًا أفضل منى. وكان معهم آباؤهم يعطونهم توصيات اللحظات الأخيرة قبل المقابلة. تفحصت الأعمدة الأسمنتية الكبيرة فى المبنى. ورحت أفكر كيف استطاع الناس أن يصنعوا مثل تلك الأعمدة الأسمنتية الكبيرة. كنت مشغولاً بفحص أحد الأعمدة عندما نقر رجل على كتفى وسألنى إن كنت قد جئت من أجل المقابلة. أومأت برأسى، فأشار إلى الصندوق المعدنى المفتوح الذى كان الأطفال جميعهم بداخله الآن. سرت إلى داخل الصندوق المزدحم مترددًا، وضحك الأطفال علىّ، ووقفت هناك لا أعلم بأننى لابد أن أضغط على الزر لكى يتحرك الصندوق. لم أكن قد دخلت فى مثل هذا الصندوق من قبل. إلى أين سيأخذنا؟ شق ولد فى قميص أزرق طريقه وتخطانى وضغط على رقم ٥. أضاء الرقم، وأغلق باب الصندوق علينا. نظرت حولى ورأيت أن الجميع فى حالة هدوء، فعرفت أنه لا حاجة للقلق. بدأ الصندوق يتحرك إلى الأعلى، بسرعة. ظل الأولاد الآخرون هادئين، يعدلون أربطة أعناقهم وقمصانهم. وعندما انفتح الباب، كنت آخر من خرج منه إلى غرفة واسعة مفتوحة بها أرائك جلدية بنية اللون. كان هناك رجل يجلس على مكتب عند الجدار البعيد، وأشار لى لأجلس. كان الأولاد الآخرون قد جلسوا بالفعل. جلست بعيدًا عنهم ورحت أتأمل الغرفة. من خلال النافذة كنت أرى قمم المبانى الأخرى، وقررت أن أقوم وأنظر لأرى كم ارتفعنا عن الأرض. وبينما أسير متجهًا إلى النافذة، نودى اسمى.

كان هناك رجل فاتح البشرة فعلاً (لم أستطع أن أعرف إن كان سيراليونيًّا أم لا)، جالسًا فى مقعد كبير من الجلد الأسود. قال بالإنجليزية: «اجلس من فضلك، سوف أكون معك بعد لحظة». وجعل ينظر فى بعض الأوراق،

وأمسك بتليفون، وطلب رقمًا. عندما رد عليه الطرف الآخر، قال فقط: «سوف نستمر»، ووضع السماعة.

والتفت ناحيتى، وفحصنى بعينيه لحظة قبل أن يبدأ فى سؤالى، متكلماً ببطء شديد، بالإنجليزية.

سألنى: «ما اسمك؟» وهو ينظر فى قائمة من الأسماء على مكتبه.

قلت: «إسماعيل»، ووضع علامة أمام اسمى قبل أن أقول له اسمى الأخير.

«لماذا تظن أنك كفء للذهاب إلى الأمم المتحدة لعرض الظروف التى تؤثر على الأطفال فى هذا البلد؟» ورفع رأسه عن القائمة ونظر لى.

«حسنًا، أنا من ذلك الجزء من البلاد، حيث لم أعان فقط من الحرب، لكنى أيضًا شاركت فيها، ومررت بمرحلة تأهيل. ومن ثم فإن فهمى للواقع أفضل، وقائم على تجربتى وخبرتى بالأوضاع، أكثر من أى من هؤلاء الأولاد المدنيين الذين جاءوا من أجل هذه المقابلة. ماذا لديهم ليقولوه عندما يذهبون إلى هناك؟ إنهم لا يعرفون شيئًا عن الحرب إلا أخبارها». ونظرت إلى الرجل، الذى كان يبتسم، وجعلنى ذلك أشعر ببعض الغضب.

سألنى: «هل لديك شىء آخر لتقوله؟»

قلت: «لا شىء، إلا أننى أعجب لماذا تبتسم؟» واسترخيت فى المقعد الجلدى الناعم.

قال الرجل: «يمكنك الذهاب الآن»، وكان لا يزال مبتسمًا.

قمت وغادرت الغرفة، تاركًا الباب مفتوحًا خلفى. سرت نحو الصندوق ووقفت إلى جانبه. وقفت وانتظرت عدة دقائق، لكن لم يحدث

شىء. لم أكن أعرف ماذا أفعل لأجعل الصندوق يصعد إلى أعلى. بدأ الأولاد الذين كانوا بانتظار المقابلة يضحكون. ثم جاء الرجل الذى كان جالسًا خلف المكتب ناحيتى، وضغط على زر على الجدار. وسرعان ما انفتح الباب، ودخلت فيه. ضغط الرجل على رقم ١ وأشار لى والباب ينغلق. حاولت أن أجد شيئًا أتمسك به، لكن الصندوق كان قد وصل بالفعل إلى مستوى الشارع. سرت خارجًا من المبنى ووقفت بالخارج أتأمله. وفكرت أننى لابد أن أحكى لمحمد عندما أراه عما فى داخل هذا المبنى العجيب.

سرت إلى البيت ببطء فى ذلك المساء، وأنا أراقب السيارات تمر بى. لم يكن لدى الكثير من الأمل فى المقابلة إلا أننى ما زلت أتعجب لماذا كان الرجل الذى أجرى المقابلة معى يبتسم. كنت أعنى ما أقول، ولم يكن الموضوع مضحكًا. وبينما أسير، مرت قافلة من السيارات، سيارات ڤان عسكرية، وسيارات مرسيدس مزينة بأعلام قومية. كانت نوافذها معتمة، فلم أستطع رؤية من يركب فيها، وكانت سريعة جدًّا على أية حال. وعندما وصلت إلى البيت، سألت على إن كان يعرف رجالاً أقوياء تمر مواكبهم فى المدينة بهذه الطريقة. أخبرنى أنه كان «تجان كبّاح»، الرئيس الجديد، الذى فاز بالانتخابات تحت راية حزب الشعب السيراليونى فى مارس ١٩٩٦، قبل ثمانية أشهر. ولم أكن سمعت أبدًا عن هذا الرجل.

فى تلك الليلة جاء عمى إلى البيت ومعه حقيبة من الفول السودانى. وسلقت العمة سالى الفول السودانى ووضعته فى صينية كبيرة. وجلسنا جميعًا، عمى وزوجته وعلى وكونا وماتيلدا وسومبو وأنا، حول الصينية نأكل الفول السودانى ونستمع إلى تسجيل آخر لحكايات «ليليه جبومبا». كان يحكى قصة عن كيف أصبح صديقًا لصبى آخر قبل أن يولدا. كانت والدتاهما جارتين، وحملتا بهما فى نفس الوقت، ومن ثم تقابلا وهما لا

يزالان فى بطنى والدتيهما. وصف الحكاء بحيوية مشاهد من حياة ما قبل الميلاد: الصيد الذى قاما به، اللعبات التى لعباها، كيف كانا يستمعان إلى عالمنا... كانت قصة مضحكة جدًّا أخذت انعطافات مستحيلة لدرجة صادمة، وتركتنا فى حالة روع ورهبة. ضحك العم والعمة، وأبناء العمومة بقوة حتى لم يستطيعوا التوقف عن الضحك لساعات، حتى بعد أن انتهت القصة. وبدأت أضحك أنا أيضًا، لأن عمى كان يحاول أن يقول شيئًا، لكن الضحك تملكه بشدة حتى إنه لم يستطع أن يقول كلمة على بعضها دون أن ينفجر فى نوبة ضحك أخرى. «لابد أن نفعل ذلك مرة أخرى، الضحك مفيد للروح»، قال عمى ذلك وهو لا يزال يضحك قليلاً. وتمنى كل منا للآخر ليلة طيبة، وذهبنا إلى أماكن نومنا المختلفة.

* * *

ذات صباح ظهر مستر كامارا فى بيت عمى فى سيارة ڤان تابعة لمنظمة «الأطفال المتصلين بالحرب». وأخبرنى أنه تم اختيارى للذهاب إلى الأمم المتحدة منذ بضعة أيام، ولكنى لم أكن قد أخبرت أحدًا عن هذا الموضوع سوى محمد، فلم أكن أعتقد أننى سأسافر حقًّا إلى مدينة نيويورك. كان الوقت قبل الظهر عندما وصل مستر كامارا، وكان عمى قد ذهب إلى العمل. وكانت زوجة عمى فى المطبخ؛ وعرفت من النظرة التى بدت على وجهها أن عمى سوف يعرف بزيارة مستر كامارا. عرفت حينئذ أننى يجب أن أخبر عمى عن الرحلة.

قال مستر كامارا: «صباح الخير»، وهو ينظر إلى ساعته ليتأكد أننا ما زلنا فى الصباح.

أجبت: «صباح الخير».

سألنى بالإنجليزية: «هل أنت مستعد للذهاب إلى المدينة وبدء

الاستعداد للرحلة؟» منذ عرف مستر كامارا أننى تم اختيارى للذهاب إلى الأمم المتحدة، أصبح لا يتحدث معى إلا بالإنجليزية. ألقيت التحية إلى العمة وقفزت فى السيارة الڤان، وذهبنا إلى حيث يمكن استخراج جواز سفر لى. وبدا وكأن كل شخص فى المدينة قد قرر أن يحصل على جواز سفر فى ذلك اليوم. ربما يخططون جميعًا لترك البلاد. لحسن الحظ كان مستر كامارا قد حصل على موعد مسبق، ومن ثم لم نضطر للانتظار فى الطابور. وعند الكاونتر قدم صورتى، والأوراق الضرورية، والنقود المطلوبة. فحص رجل مستدير الوجه الوثائق جيدًا، وسأل عن شهادة ميلادى. قال الرجل: «لابد أن تظهر لى ما يدل على أنك ولدت فى هذه البلاد». وانزعجت حقًّا، وكدت ألطم الرجل، الذى أصر على أننى لابد أن أظهر الدليل على أننى ولدت فى سيراليون حتى بعد أن أخبرته أن الحرب لم تترك فرصة لأحد لعمل وثائق من هذا النوع. كان جاهلاً بالحقيقة التى كنت أحاول أن أشرحها له. جذبنى مستر كامارا جانبًا وطلب منى برقة أن أجلس على الدكة بينما وقف يتحدث مع الرجل. وفى النهاية طلب أن يرى رئيسه. بعد ساعات من الانتظار استطاع شخص ما أن يستخرج نسخة من شهادة ميلادى، وأخبروا مستر كامارا أن يعود لأخذ جواز السفر بعد أربعة أيام.

قال مستر كامارا ونحن نخرج من مكتب الجوازات «اكتملت الخطوة الأولى. والآن علينا أن نحصل على الفيزا». لم أرد، كنت لا أزال منزعجًا، ومجهدًا، ولا أريد إلا العودة إلى البيت.

كان عمى بالبيت عندما أوصلنى مستر كامارا عند المغرب تقريبًا. وعندما ألقيت إليه بالتحية، كانت هناك ابتسامة على وجهه، وقال: «قل لى ما الذى يحدث». قلت له، أخبرته أننى سوف أذهب إلى الأمم المتحدة فى مدينة نيويورك، وأتحدث عن الحرب فيما يتعلق بالأطفال. لم يصدق

عمى ذلك، وقال: «الناس دائمًا يكذبون على بعضهم بمثل تلك الوعود. لا تجعلهم يرفعون من أحلامك يا بنى».

فى كل صباح، قبل أن يذهب إلى العمل، كان يقول مازحًا: «ماذا إذن سنفعل اليوم فى التخطيط للذهاب إلى أمريكا؟»

أخذنى مستر كامارا لشراء بعض اللوازم. اشترى لى حقيبة سفر وبعض الملابس، معظمها قمصان بأكمام طويلة، وبنطلونات أنيقة، وبدلات تقليدية، من القطن المشمع الملون، مشغولة على الياقات والأكمام وأطراف البنطلونات. أريت هذه الأشياء لعمى، لكنه ظل لا يصدق أننى سوف أذهب إلى تلك الرحلة.

وضاحكنى قائلاً: «ربما يريدون فقط أن يعطوك مظهرًا جديدًا، مظهرًا أفريقيًّا أكثر، بدلاً من تلك البنطلونات الكبيرة التى ترتديها دائمًا».

* * *

أحيانًا كنت وعمى نذهب لنتمشى بعد العمل. كان يسألنى كيف الحال وماذا أفعل؛ ودائمًا كنت أقول له إننى بخير حال. كان يضع ذراعيه الطويلتين حولى ويجذبنى بقربه. كنت أشعر أنه يعرف أننى أردت أن أقول له أشياء معينة ولكنى لم أستطع أن أجد الكلمات المناسبة. لم أكن قد أخبرته أننى عندما أذهب إلى الأحراش مع أبناء عمومتى لإحضار خشب للنار، كان عقلى يهيم فى أشياء رأيتها وفعلتها فى الماضى. وإن الوقوف بجوار شجرة يظهر على لحائها السوائل التى تخرج من باطنها متجمدة حمراء اللون يأتى إلى عقلى بلمحات خاطفة من تلك المرات الكثيرة التى قمنا فيها بإعدام الأسرى بربطهم إلى الأشجار وإطلاق النار عليهم. كان دمهم يلوث الأشجار ولا يغسل عنها أبدًا، حتى أثناء موسم المطر. لم أكن قد أخبرته أننى فى أغلب الأوقات كنت أتذكر ما فاتنى عندما أرى الأنشطة

اليومية للعائلات، طفل يحتضن أبيه، يتعلق بثوب أمه، أو يمسك بيدى والديه، يتأرجح بينهما. كل ذلك كان يجعلنى أتمنى لو أرجع إلى البداية وأغير ما حدث.

* * *

قيل لى إننى سوف ألتقى برجل يسمى د. تامبا فى السفارة الأمريكية فى صباح يوم الاثنين. وفى طريقى إلى السفارة، استمعت إلى المدينة تستيقظ تدريجيًّا. تردد آذان الصلاة من المسجد المركزى فى المدينة كلها، وازدحمت سيارات البودا بودا فى الشوارع، يتعلق منادوها على أبواب الركاب المفتوحة وينادون أسماء الأماكن التى تتوجه إليها: «لوملى، لوملى» أو «كونجو تاون...». كان الوقت لا يزال مبكرًا جدًّا عندما وصلت، ورغم ذلك كان هناك بالفعل طابور طويل من الناس ينتظرون خارج بوابات السفارة. كانت وجوههم حزينة ومليئة بالقلق، كما لو كانوا بانتظار محاكمة سوف تقرر موتهم أو بقاءهم على قيد الحياة. لم أكن أعرف ماذا أفعل، ومن ثم وقفت فى الطابور. بعد ساعة أو نحو ذلك، وصل د. تامبا مع صبى آخر وطلب منى أن أتبعه. كان يبدو شخصًا محترمًا، ومن ثم فأظن أننا لن نضطر إلى الانتظار فى الطابور. أما الصبى الآخر، والذى كان أيضًا من الأطفال الجنود سابقًا، فقد صافحنى وهو يقدم نفسه قائلاً: «اسمى باه. إننى سعيد لأننى سأذهب فى هذه الرحلة معك». فكرت بماذا قد يرد عمى عليه، «لا تجعلهم يرفعون من آمالك أيها الشاب».

جلسنا على أحد المقاعد القليلة المحترمة فى مساحة صغيرة مفتوحة فى السفارة، وانتظرنا المقابلة. كانت هناك نافذة زجاجية شفافة تقف خلفها امرأة بيضاء، ويأتى صوتها من خلال ميكروفون تحتها. تسأل: «ما الغرض من زيارتك للولايات المتحدة؟» دون أن ترفع وجهها عن الأوراق الموجودة أمامها.

وعندما جاء دورنا، كانت المرأة الجالسة خلف الزجاج معها جوازات سفرنا بالفعل. لم تنظر إلى، ولكنها جعلت تقلب فى صفحات جوازى الجديد. وكنت متحيرًا لماذا وُضعت النافذة بهذه الطريقة بحيث يضيع الاتصال الإنسانى بين من يجرى المقابلة ومن تجرى معه المقابلة.

قالت: «تحدث فى الميكروفون»، ثم استطردت: «ما هو الغرض من زيارتك للولايات المتحدة؟»

قلت: «لحضور مؤتمر».

قالت: «ما موضوع المؤتمر؟»

أجبت: «إنه بشكل عام حول القضايا التى تمس الأطفال فى العالم كله».

«أين ذلك المؤتمر؟»

«فى الأمم المتحدة بمدينة نيويورك».

«هل لديك أى ضمان أنك ستعود إلى بلدك؟» فكرت، واستمرت قائلة: «هل لديك أى ملكية، حساب بنكى يضمن عودتك؟»

عبست. فكرت أن أسألها هل تعرفين أى شىء عن حياة الناس فى هذا البلد؟ لو كانت تستطيع فقط أن تنظر لى مباشرة، ربما لن تسألنى هذين السؤالين الأخيرين. لا أحد فى سنى فى بلادى لديه حساب بنكى أو حتى يحلم بأن يكون له حساب بنكى، ناهينا عن ملكية أى شىء. أخبرها مستر تامبا أنه مرافق لنا عن منظمة «أطفال متصلين بالحرب»، وأنه ذاهب فى هذه الرحلة معنا، وأنه يضمن أننا سوف نعود إلى سيراليون فى نهاية المؤتمر.

سألتنى المرأة سؤالها الأخير: «هل تعرف أحدًا فى الولايات المتحدة؟»

قلت: «لا، لم أذهب من قبل إلى أى مكان خارج هذا البلد، وهذه فى الواقع أول مرة آتى فيها إلى هذه المدينة». أغلقت جوازى ووضعته جانبًا. «تعال فى الساعة الرابعة والنصف».

وبالخارج، أخبرنا مستر تامبا أننا حصلنا على الفيزا، وأنه سوف يأخذ جوازىّ السفر ويحتفظ بهما حتى يوم سفرنا. وبدا أخيرًا أننا سوف نسافر فعلاً، ورغم ذلك لم أكن رأيت جواز سفرى إلا للحظة.

* * *

أمسكت بحقيبتى فى يدى اليمنى، وكنت أرتدى بنطلونًا صيفيًّا تقليديًّا بنى اللون مشغولاً بخيط متعرج على أطرافه السفلية، وتى شيرت. كان عمى يجلس فى الشرفة عندما خرجت من غرفة على.

قلت له: «إننى ذاهب إلى المطار»، وابتسمت لأننى أعرف أن عمى سيكون ساخرًا كعادته.

قال: «مؤكد. اتصل بى بمجرد أن تصل إلى أمريكا. لكن ليس عندى تليفون، اطلب بيت أميناتا، ويمكنها أن تأتى وتحضرنى»، وضحك عمى.

قلت وأنا أضحك أيضًا: «وهو كذلك، سأفعل».

وقال عمى: «هيا يا أولاد، تعالوا سلموا على أخيكم. لا أعرف أين سيذهب لكنه بحاجة إلى مباركتنا». خرجت ماتيلدا وكونا وسومبو إلى الشرفة، يحملن دلاء فى أيديهن، كن فى طريقهن لإحضار الماء. عانقننى، وتمنين لى حظًّا طيبًا فى رحلتى. جاءت زوجة عمى من المطبخ تتصاعد منها رائحة دخان الموقد، واحتضنتنى. وقالت: «أينما تذهب، ستكون بحاجة لأن تكون معك رائحة البيت، هذا العطر منى لك». وضحكت، ثم أطلقتنى ووقفت. وقف عمى وعانقنى، ووضع ذراعه حول كتفى وقال: «كل تمنياتى الطيبة لك. وسأراك فيما بعد، على العشاء». وعاد يجلس على مقعده فى الشرفة.

(٢٠)

كان كل ما أعرفه عن مدينة نيويورك مستمدًا من موسيقى الراب. كنت أتخيلها مكانًا يقوم فيه الناس بإطلاق النار على بعضهم البعض فى الشارع ويفلتون دون حساب؛ وأن الناس لا يسيرون فى الشوارع، وإنما يتجولون فى سيارات رياضية بحثًا عن النوادى الليلية وعن العنف. ولم أكن أتطلع حقيقة إلى أن أكون فى مكان ما وسط هذا الجنون. فقد نلت كفايتى منه فى بلدى.

كانت الدنيا مظلمة عندما هبطت الطائرة فى مطار جون كينيدى الدولى. وكانت الساعة الرابعة والنصف مساء. سألت د. تامبا لماذا أظلمت الدنيا مبكرًا هكذا فى هذا البلد. قال: «لأنهم فى الشتاء». أومأت برأسى: «أوه!»، ولكن الظلام المبكر ظل أمرًا غير معقول بالنسبة لى. كنت أعرف كلمة «شتاء» من نصوص شكسبير، وفكرت أننى سوف أبحث عن معناها مرة أخرى فى القاموس.

أخذ د. تامبا جوازاتنا، وتولى كل الكلام عند إدارة الهجرة. جئنا بحقائبنا واتجهنا نحو الأبواب المنزلقة. وفكرت، ربما لم يكن ينبغى أن نغامر بالسير فى الشوارع هكذا، لكن د. تامبا كان بالخارج بالفعل. وعندما عبرنا أنا وباه من خلال الأبواب المنزلقة، قابلتنا رياح شديدة البرودة. شعرت أن بشرتى تنكمش، ولم أستطع أن أشعر بوجهى، وبدا

كأن أذنىّ قد سقطتا؛ وآلمتنى أصابعى، واصطكت أسنانى. تخللت الريح البنطلون وال تى شيرت الصيفيين اللذين كنت أرتديهما، وشعرت كأننى لا أرتدى شيئًا على الإطلاق. كنت أرتعش وأنا أجرى عائدًا إلى المطار. لم أشعر فى حياتى بمثل هذا البرد. كيف يستطيع أى إنسان أن يعيش فى هذا البلد؟ فكرت فى ذلك وأنا أفرك يدىّ معًا وأقفز فى مكانى لكى أشعر ببعض الدفء. وقف باه بالخارج مع د. تامبا، ويداه ملتفتان حول نفسه وهو يرتعش بشدة. ولسبب ما، كان د. تامبا لديه جاكيت، لكن باه وأنا لم يكن لدينا. انتظرت فى المطار حتى أوقف د. تامبا سيارة أجرة، ثم جريت إلى الخارج وقفزت فيها، وأغلقت الباب بسرعة خلفى. كانت هناك أشياء بيضاء صغيرة تسقط من السماء، وبدا أنها تتكوم على الأرض. وفكرت فى نفسى، ما هذا الشىء الأبيض الذى يسقط من السماء. أخبر د. تامبا السائق بوجهتنا، وهو يقرأها من ورقة يحملها فى يده.

سأل سائق التاكسى: «هل هذه أول مرة لكم فى المدينة، وهل تستمتعون يا شباب بسقوط الجليد؟»

قال د. تامبا: «نعم، إنها أول مرة لهما فى هذه المدينة»، وانشغل بوضع وثائقنا فى مكانها. لم أكن قد سمعت كلمة «جليد» من قبل. لم تكن شيئًا نتكلم بشأنه بالضبط فى سيراليون. لكنى رأيت أفلامًا عن الكريسماس، وكان هذا الشىء الأبيض المتساقط موجودًا فى تلك الأفلام. وفكرت، لابد أن الكريسماس هنا كل يوم.

عندما دخلنا المدينة، بدا وكأن أحدًا أضاء المبانى الكثيرة العالية التى ارتفعت إلى عنان السماء. بدت بعض تلك المبانى عن بُعد وكأنها مصنوعة من أضواء ملونة. كانت المدينة تتلألأ، واستولت على الدهشة حتى إننى لم أكن أعرف أين أنظر. ظننت أننى رأيت مبانى عالية فى فريتاون، لكن

هذه المبانى أكثر من عالية، بدا وكأنها تناطح السماء. كانت هناك سيارات كثيرة جدًّا فى الشوارع، وكانت تطلق نفيرها بلا صبر، حتى عندما كان ضوء الإشارة أحمر. ثم رأيت أناسًا يسيرون على الأرصفة. فركت عينىّ لأتأكد من أننى حقًّا أرى الناس يسيرون فى شوارع مدينة نيويورك. وأنها لم تكن بالخطورة التى سمعتها. ليس حتى الآن. كانت الأضواء أكثر تألقًا من تلك الأضواء فى بلادى، وظللت أبحث عن الأعمدة التى تعلق عليها أسلاك الكهرباء، لكنى لم أجد شيئًا منها.

وصلنا إلى فندق «فاندربيلت واى.إم.سى.إيه.» فى الشارع السابع والأربعين، ودخلنا إلى البهو حاملين حقائبنا. تبعنا د. تامبا إلى مكتب الاستقبال، وأخذنا مفاتيح غرفنا. لأول مرة فى حياتى تكون لى غرفة وحدى. وفوق ذلك، كان عندى تليفزيون، كنت أشاهده طول الليل. كان الجو شديد الحرارة فى الغرفة، فخلعت ملابسى وجلست أتصبب عرقًا أمام التليفزيون. وبعد يومين عرفت أن السبب فى أن الغرفة شديدة الحرارة هو أن مؤشر الحرارة كان مضبوطًا على أعلى درجة. ولم أكن أعرف ما شكل هذا المؤشر، وبالطبع لم أكن أعرف كيف أغيره على درجة حرارة أقل أو أغلقه. وأتذكر أننى كنت أفكر أن هذا البلد غريب جدًّا، شديد البرودة بالخارج، وشديد الحرارة بالداخل.

وفى اليوم التالى لوصولنا، نزلت إلى الكافيتيريا، حيث كان سبعة وخمسون طفلاً من ثلاثة وعشرين بلدًا ينتظرون تناول الإفطار وافتتاح برلمان الأمم المتحدة الدولى الأول للأطفال. كان هناك أطفال من لبنان، وكمبوديا، وكوسوفو، والبرازيل، والنرويج، واليمن، وموزمبيق، وفلسطين، وجواتيمالا، والولايات المتحدة (نيويورك)، وجنوب أفريقيا، وبيرو، وأيرلندة الشمالية، والهند، وغينيا الجديدة، ومالاوى، وغيرها.

وبينما كنت أنظر حولى باحثًا عن باه ود. تامبا، جذبتنى امرأة بيضاء جانبًا، وقدمت نفسها.

«اسمى كريستين، أنا من النرويج»، ومدت يدها، فصافحتها قائلاً: «أنا إشمائيل، من سيراليون». فتحت مظروفًا به بطاقات للأسماء، ووضعت واحدة على قميصى. ابتسمت، وأشارت لى أن ألحق بطابور الإفطار وهى تسير مبتعدة، باحثة عن أطفال آخرين ليس لديهم بطاقات أسماء. وقفت خلف ولدين كانا يتكلمان لغة غريبة. كانا يعرفان ماذا يريدان، لكننى لم تكن لدى أى فكرة ماذا أتناول أو أسماء الأطعمة التى كان يصنعها الطباخون. وطوال إقامتى، كان الطعام محيرًا بالنسبة لى. فكنت دائمًا أطلب «نفس الشىء»، أو أضع على طبقى أى شىء رأيت الآخرين يضعونه فى أطباقهم. أحيانًا كنت محظوظًا ويعجبنى الطعام. ولكن هذا لم يكن هو الحال عادة. سألت د. تامبا إن كان يعرف أين يمكن الحصول على بعض الأرز ويخنى السمك فى زيت النخيل، أو بعض أوراق الكاسافا، أو حساء البامية. ابتسم وقال: «عندما تكون فى روما، افعل ما يفعله الرومان».

فكرت وأنا أشرب كوبًا من عصير البرتقال أنه كان ينبغى أن أحضر معى طعامى الخاص من البيت ليقيم أودى حتى أتعلم ما يختص بالطعام فى هذا البلد.

بعد الإفطار سرنا عبر كتلتين سكنيتين فى الجو الثلجى حتى مبنى كانت تجرى فيه معظم اللقاءات. كان الجليد لا يزال يسقط بالخارج، وكنت أرتدى بنطلونًا صيفيًا وقميصًا بكم طويل. قلت لنفسى إننى لا أريد أن أعيش طويلاً فى مثل هذا البلد شديد البرودة، حيث أظل قلقًا دائمًا خشية أن يسقط أنفى، وأذناى، ووجهى.

* * *

فى ذلك الصباح الأول فى مدينة نيويورك، قضينا ساعات نتعرف على حياة كل منا. بعض الأطفال خاطروا بحياتهم لحضور المؤتمر. وآخرون ساروا مئات الأميال إلى بلدان مجاورة ليتمكنوا من ركوب طائرة. وبعد دقائق من الكلام مع بعضنا، عرفنا أن الغرفة مليئة بشباب عاشوا طفولة شديدة الصعوبة، وبعضهم كان سيعود إلى تلك الحياة فى نهاية المؤتمر. وبعد تقديم كل منا، جلسنا فى دائرة ليتمكن رعاة هذا المؤتمر من تعريفنا بأنفسهم.

كان معظمهم يعمل فى جمعيات أهلية، لكن كانت هناك امرأة بيضاء قصيرة، ذات شعر طويل داكن وعينين لامعتين، قالت: «أنا حكاءة». أدهشنى ذلك، وأعطيتها كل انتباهى. كانت تستخدم إيماءات توضح ما تقول، وتتحدث بوضوح شديد، تتلفظ بكل كلمة. قالت إن اسمها لورا سيمز. وقدمت الشخصية التى شاركتها فى تسهيل إقامة هذا المؤتمر، تيريز بلير، التى كانت فاتحة البشرة، ولها ملامح أفريقية، وتحمل طبلة. وقبل أن تنهى لورا كلامها، كنت قد قررت بالفعل أننى سوف أشترك فى ورشتها. قالت إنها سوف تعلمنا كيف نروى حكاياتنا بطريقة أكثر جاذبية. كنت أتطلع بشدة لمعرفة كيف أصبحت هذه المرأة البيضاء، التى ولدت فى نيويورك، حكاءة.

فى نفس ذلك الصباح، ظلت لورا تنظر إلى باه وإلىّ. ولم أعرف أنها قد لاحظت أننا لم نكن نرتدى إلا قمصانًا وبنطلونات أفريقية خفيفة، وجلسنا بالقرب من مخارج التدفئة، كانت أيدينا ملفوفة حول أجسادنا النحيفة، وبين حين وآخر نرتعش من البرد الذى بدا أنه قد استقر فى عظامنا. وبعد الظهر، بعد تناول الغداء، اقتربت منا. وسألتنا: «هل لديكما سترات شتوية؟» هززنا رءوسنا بالنفى. ومر بوجهها تعبير يوحى بالاهتمام والألم، مما جعل ابتسامتها تبدو مصطنعة. وفى المساء عادت ومعها سترتان

شتويتان، وقبعتان، وقفازان لنا. شعرت أننى كنت أرتدى زيًا أخضر ثقيلاً جعل جسدى أكبر مما يبدو. لكنى كنت سعيدًا لأن هذا سيمكننى من المغامرة بالخارج لرؤية المدينة بعد الورش اليومية. وبعد سنوات، عندما قدمت لى لورا إحدى ستراتها الشتوية، رفضت قبولها لأنها سترة نسائية. فجعلت تمازحنى حول حقيقة أنها عندما لقيتنى أول مرة كنت أشعر ببرد شديد حتى إننى لم أكن أمانع فى ارتداء سترة نسائية.

تقاربنا أنا وباه أكثر مع لورا وتيريز فى فترة المؤتمر. أحيانًا كانت لورا تتحدث معنا حول قصص سبق أن سمعتها فى طفولتى. وكنت أشعر بأسى وحيرة لحقيقة أن امرأة بيضاء جاءت عبر المحيط الأطلنطى، ولم تذهب أبدًا إلى بلدى، تعرف القصص الخاصة بقبيلتى وتربيتى. وعندما أصبحت أمًا لى بعد سنوات، كنا كثيرًا ما نتحدث معًا حول هل كان مقدرًا لنا أم مجرد مصادفة أن جئت من ثقافة موجهة لرواية الحكايات لأعيش مع أم فى نيويورك هى حكاءة.

* * *

اتصلت بعمى فى فريتاون فى يومى الثانى. ردت أميناتا على التليفون.

قلت: «هاى، أنا إشمائيل، هل يمكن أن أتكلم مع عمى من فضلك؟»

قالت أميناتا: «سوف أحضره. اطلب ثانية بعد دقيقتين». وعندما طلبت مرة أخرى رد عمى على التليفون.

قلت له: «أنا فى مدينة نيويورك».

قال: «حسنًا، أظن أننى أصدقك، لأننى لم أرك منذ بضعة أيام». وضحك. فتحت نافذة الفندق ليسمع أصوات نيويورك.

قال: «لا يبدو ذلك مثل فريتاون»، وسكت لحظة، قبل أن يقول: «إذن كيف هى؟».

قلت: «إنها شديدة البرودة»، وبدأ يضحك.

«آه! ربما هى مبادرتك إلى عالم الإنسان الأبيض. حسنًا، قل كل شىء عنها عندما تعود. ابق فى الأماكن الداخلية بقدر الإمكان». وبينما يتحدث، تصورت الطريق المترب المفروش بالحصى بجوار منزله. وشعرت برائحة حساء الفول السودانى الذى تصنعه زوجة عمى.

فى كل صباح كنا نشق طريقنا فى الثلج مسرعين إلى قاعة المؤتمر فى نفس الشارع. وهناك كنا نضع معاناتنا جانبًا، ونناقش بذكاء حلولاً للمشاكل التى تواجه الأطفال فى بلداننا المختلفة. وفى نهاية هذه المناقشات الطويلة، كانت وجوهنا وعيوننا تتألق بالأمل والوعد بالسعادة. وبدا أننا نقوم بتغيير معاناتنا ونحن نتكلم عن طرق لحل أسبابها، وجعلها معروفة للعالم.

* * *

وفى ليلة اليوم الثانى، خرجت أنا ومادوكا، الذى كان من مالاوى، وسرنا غربًا فى الشارع السابع والأربعين دون أن ندرك أننا كنا نتجه مباشرة إلى قلب «ميدان تايمز». كنا منشغلين بالنظر إلى المبانى وكل الناس المسرعين عندما رأينا فجأة أضواء تغمر المكان كله، وعروضًا ظاهرة على شاشات هائلة. نظرنا إلى بعضنا بدهشة وروع من مدى الزحام فى المكان، وما أثاره المكان نفسه فى نفوسنا من عجب. على إحدى الشاشات كانت امرأة ورجل فى ثيابهما الداخلية؛ وأظن أنهما كانا يعلنان عن هذه الملابس. أشار مادوكا إلى الشاشة وضحك. كانت الشاشات الأخرى تعرض أفلام فيديو للموسيقى، أو تتواتر عليها الأرقام. كان كل شىء يومض ويتغير بسرعة كبيرة. وقفنا عند الناصية لبرهة، وقد تسمرنا فى أماكننا لمشاهدة هذه الشاشات. وبعد أن أصبحنا قادرين على نزع أعيننا بعيدًا عنها، سرنا ذهابًا

وإيابًا فى برودواى لساعات، نحملق فى نوافذ عرض المحلات. ولم أكن أشعر بالبرد، حيث كان عدد الناس، والمبانى المتلألئة، وأصوات السيارات قد استولت على تمامًا. فكرت أننى أحلم. وعندما عدنا إلى الفندق فى تلك الليلة، أخبرنا الأطفال الآخرين عما رأيناه. وبعد ذلك، كنا نذهب جميعًا إلى «ميدان تايمز» فى كل مساء.

تجولنا أنا ومادوكا فى أماكن قليلة فى المدينة قبل الأيام التى جُدولت لنزهاتنا. ذهبنا إلى مبنى «روكفلر بلازا»، حيث رأينا شجرة كريسماس هائلة مزينة، وتماثيل الملائكة، والناس الذين يتزلجون على الثلج. ظلوا يتحركون فى دوائر، ولم نفهم أنا ومادوكا لماذا يستمتعون بذلك. ذهبنا أيضًا إلى مركز التجارة العالمى مع مستر رايت، وهو رجل كندى التقينا به فى الفندق. وفى إحدى الأمسيات، ذهبنا نحن السبعة والخمسين جميعًا إلى مترو الأنفاق فى طريقنا إلى ميناء الشارع الجنوبى، وسألت مادوكا: «كيف حدث أن الجميع بهذا الهدوء؟» نظر حوله فى القطار وأجاب: «إنه ليس مثل المواصلات العامة فى بلادنا». كانت شانثا هى المصورة الفوتوغرافية الخاصة بالمؤتمر، وقد أصبحت خالة لى فيما بعدعندما عدت للحياة فى نيويورك، وجهت الكاميرا إلينا، واتخذنا أنا ومادوكا وضع التصوير أمامها. وفى كل رحلة، كنت أكتب ملاحظات فى عقلى عن الأشياء التى أريد أن أخبر عنها عمى وأبناء عمى، ومحمد. ولم أكن أعتقد أنهم سيصدقون شيئًا من ذلك.

* * *

فى آخر أيام المؤتمر، تحدث طفل من كل بلد باختصار أمام اجتماع مجلس الأمم المتحدة الاقتصادى الاجتماعى عن بلاده، وتجاربه. كان هناك ديبلوماسيون وكل أنواع الأشخاص ذوى النفوذ. كانوا يرتدون سترات وأربطة عنق، ويجلسون منتبهين للاستماع لنا. جلست بفخر خلف لافتة

عليها اسم سيراليون، مستمعًا ومنتظرًا دورى لأتحدث. كانت معى كلمة كُتبت لى فى فريتاون، لكنى قررت أن أتحدث من قلبى بدلاً منها. تحدثت باختصار عن تجربتى وأملى أن تنتهى الحرب ـ فتلك هى الطريقة الوحيدة التى ستوقف الكبار عن تجنيد الأطفال. وبدأت قائلاً: «أنا من سيراليون، والمشكلة التى تؤثر على الأطفال فى بلادى هى الحرب التى تجبرنا على الهروب من بيوتنا، وفقدان عائلاتنا، والتجول بلا هدف فى الغابات. ونتيجة لذلك يتم تجنيدنا، ونتورط رغمًا عنا فى النزاع كجنود، أو نستخدم لحمل الأحمال الثقيلة، وفى كثير من المهام الأخرى الصعبة. كل هذا بسبب الجوع، وفقدان عائلاتنا، والحاجة للشعور بالأمان، وإلى أن نكون جزءًا من شىء عندما يكون كل شىء آخر قد انهار. لقد التحقت بالجيش فى الواقع بسبب فقدانى لعائلتى، وبسبب الجوع الشديد. كنت أريد أن أنتقم لموت عائلتى، كما كان لابد لى أن أحصل على بعض الطعام لأبقى على قيد الحياة، وكانت الطريقة الوحيدة لفعل ذلك هى أن أكون جزءًا من الجيش. لم يكن التحول إلى الجندية أمرًا سهلاً، لكننا اضطررنا لذلك. وقد تم تأهيلى الآن، فلا تخافوا منى. لم أعد جنديًا، أنا مجرد طفل. وكلنا إخوة وأخوات. وما تعلمته من تجربتى هو أن الانتقام ليس مفيدًا. لقد التحقت بالجيش لأنتقم لموت عائلتى، ولكى أحيا، لكنى تعلمت أننى عندما أنتقم، ففى أثناء تنفيذ هذا الانتقام سوف أقتل شخصًا آخر، وسيرغب أهله فى الانتقام؛ ثم الانتقام يجر الانتقام والانتقام إلى ما لا نهاية...»

وبعد إلقاء كل الكلمات، غنينا أغنية كنا قد فكرنا فيها. ثم بدأنا نغنى أغانى أخرى؛ بكينا، وضحكنا، ورقصنا. كانت أمسية مؤثرة للغاية. وكنا جميعًا نشعر بالحزن لأننا سوف نترك بعضنا، ولأننا نعرف أننا لن نعود إلى أماكن يسودها السلام. وضعت أنا ومادوكا ذراعينا حول بعضنا ورحنا نقفز على الموسيقى. وكان باه يرقص مع مجموعة أخرى من الأولاد.

وجلس د. تامبا بين الجمهور باسمًا لأول مرة منذ وصلنا إلى نيويورك. وبعد الرقص، شدتنى لورا جانبًا وقالت لى إنها تأثرت بما قلته.

فى تلك الليلة ذهبنا إلى مطعم هندى، وكنت سعيدًا بوجود أناس يقدمون أرزًا فى هذا الجزء من العالم. أكلنا كثيرًا، وتحدثنا، وتبادلنا العناوين، ثم ذهبنا إلى منزل لورا فى إيست فيليدج (القرية الشرقية). ولم أفهم لماذا كانت لورا تسمى المنطقة قرية، لأنها لم تكن تبدو مثل أى قرية أعرفها. ولم يأت المرافقون معنا؛ بل عادوا إلى الفندق. لم أكن أعرف أن بيت لورا سوف يكون بيتى فى المستقبل. كانت هناك ملابس تقليدية منسوجة يدويًّا من كل مكان فى العالم معلقة على الجدران، وتماثيل للحيوانات موضوعة على أرفف كتب كبيرة تحتوى كتب الحكايات؛ وعلى المناضد كانت أوانٍ خزفية رسمت عليها طيور جميلة وغريبة، وكانت هناك آلات موسيقية من البامبو وأشياء أخرى غريبة. كان البيت كبيرًا بما يكفى لاحتوائنا جميعًا نحن السبعة والخمسين. فى البداية جلسنا فى غرفة معيشة لورا، وروينا حكايات، ثم رقصنا طول الليل. كانت تلك آخر ليلة لنا فى نيويورك، وكان هذا أفضل مكان نقضيها فيه، لأن البيت كان ممتعًا ومليئًا بقصص مدهشة، وكذلك كانت مجموعتنا. شعر الجميع بالراحة ورأى كل واحد شيئًا من بلده. وشعرنا فى ذلك البيت وكأننا غادرنا نيويورك ودخلنا عالمًا آخر.

* * *

فى مساء اليوم التالى، صحبتنا لورا وشانثا، أنا وباه ود. تامبا، إلى المطار. وفى البداية كنا جميعًا هادئين فى السيارة، ولكن بالتدريج بدأنا جميعًا، فيما عدا د. تامبا، ننشج. وفى المطار تكاثف النشيج ونحن نودع بعضنا، معانقين.

أعطتنا لورا وشانتا عناوينهما وأرقام تليفوناتهما لكى نستطيع أن نستمر على اتصال بهما. غادرنا مدينة نيويورك فى ١٥ نوفمبر ١٩٩٦. وكان ذلك قبل عيد ميلادى السادس عشر بثمانية أيام، وخلال رحلة العودة إلى الوطن كنت لا أزال أشعر وكأننى كنت أحلم، حلمًا لم أكن أريد أن أستيقظ منه. كنت حزينًا لرحيلى، لكنى كنت فرحًا لأننى قابلت أناسًا خارج سيراليون. لأننى لو تعرضت للقتل بعد عودتى، فإننى أعرف أن هناك ذكرى حية موجودة عنى فى مكان ما من العالم.

(٢١)

فى بعض الأمسيات كنت أروى لعائلتى (ومن ضمنها محمد الذى أصبح يعيش معنا) قصصًا عن رحلتى. وصفت كل شىء لهم ـ المطار، والطائرة، شعورى وأنا أرى السحب من نافذة الطائرة. كنت أشعر بوخز خفيف فى بطنى وأنا أتذكر السير على ممشى متحرك فى مطار أمستردام. لم أر فى حياتى هذا العدد الكبير من الناس البيض، كلهم متعجلون يجرون حقائبهم ويجرون فى اتجاهات مختلفة. أخبرتهم عن الناس الذين التقيت بهم، والمبانى العالية فى مدينة نيويورك، كيف كان الناس يشتمون فى الشوارع؛ فعلت كل ما بمقدورى لتصوير الجليد، وكيف أن الدنيا كانت تظلم مبكرًا جدًّا.

وكان عمى يعلق قائلاً: «إنها تبدو رحلة غريبة». وبالنسبة لى، كنت أشعر وكأنها كانت شيئًا حدث كله داخل عقلى.

* * *

بدأنا أنا ومحمد الذهاب إلى المدرسة مرة أخرى، والتحقنا بمدرسة سانت إدوارد الثانوية. كنت شديد الانفعال. تذكرت سيرى كل صباح إلى مدرستى الابتدائية؛ وصوت المقشات تكنس أوراق المانجو المتساقطة على الأرض، فتجفل الطيور، وتبدأ فى الغمغمة بأصوات مرتفعة، وكأنها تسأل

بعضها البعض عن معنى هذا الصوت الغريب. كانت مدرستى مجرد مبنى صغير، من الطوب اللبن، ولها سقف من الصاج. لم تكن هناك أبواب، ولم تكن الأرض بالداخل مكسوة بالأسمنت، وكانت صغيرة جدًّا على عدد التلاميذ. فكانت معظم الحصص تؤدى فى الخارج تحت أشجار المانجو التى كانت توفر الظلال.

كان محمد يتذكر دائمًا نقص الأدوات فى مدرستنا الابتدائية والثانوية، وكيف أننا اضطررنا لمساعدة المدرسين فى زراعة المحاصيل فى مزارعهم أو حدائقهم. كانت هذه هى الطريقة الوحيدة التى يكسب بها المدرسون معاشهم، حيث قضوا سنوات لا تدفع أجورهم. وكلما تحدثنا أكثر عن هذه الذكريات، تحققت من أننى نسيت مشاعرى كتلميذ، الجلوس فى الحصة، كتابة الملاحظات فى كراستى، عمل الواجبات المنزلية، اكتساب الأصدقاء، والتعامل مع التلاميذ الآخرين. كنت أشتاق إلى العودة. ولكن فى أول أيام المدرسة فى فريتاون، جلس كل التلاميذ بعيدًا عنا، كما لو كنا أنا ومحمد سننتهز أية فرصة ونقتل شخصًا ما. بشكل ما عرفوا أننا كنا من الأطفال الجنود. لم نكن قد فقدنا طفولتنا فقط فى الحرب، ولكن حياتنا كانت قد تلوثت بنفس التجربة التى لا تزال تسبب لنا آلامًا وحزنًا عظيمًا.

كنا دائمًا نسير إلى المدرسة ببطء. كنت أحب هذا لأننى أستطيع أن أفكر إلى أين تتجه حياتى. كنت واثقًا من أنه لا شىء يمكن أن يصبح أسوأ مما كان، وهذه الفكرة كانت تجعلنى أبتسم كثيرًا. كنت لا أزال أحاول التعود على أن أكون جزءًا من عائلة مرة أخرى. كما بدأت أخبر الناس أن محمدًا أخى، لكى لا أضطر لشرح أى شىء. كنت أعلم أننى لا يمكن أن أنسى ماضى حياتى، لكننى أردت أن أتوقف عن الكلام عنه كى أعيش بالكامل فى حاضر حياتى الجديدة.

* * *

استيقظت مبكرًا في الصباح كالمعتاد، وكنت أجلس على الحجر المسطح خلف البيت منتظرًا أن تستيقظ المدينة. كان ذلك في يوم ٢٥ مايو ١٩٩٧. ولكن بدلاً من الأصوات المعتادة التي كانت تستيقظ عليها المدينة، استيقظت ذلك الصباح على نيران البنادق تنطلق حول مجلس الدولة ومبنى البرلمان. أيقظت طلقات البنادق الجميع، ولحقت بعمي وجيراني في الشرفة. لم نكن نعلم ماذا يحدث، لكننا رأينا جنودًا يركضون على طريق «بادمبا»، وشاحنات الجيش تسرع جيئة وذهابًا أمام منطقة السجن.

ازدادت أصوات طلقات البنادق طوال اليوم، وانتشرت في كل مكان من المدينة. وقف أهالي المدينة بالخارج في شرفاتهم، متوترين، يرتعدون من الرعب. تبادلنا أنا ومحمد النظرات: «ليس مرة أخرى». وفي فترة مبكرة من بعد الظهر، فُتح السجن المركزي وأُطلق سراح المساجين. وأعطتهم الحكومة الجديدة بنادق وهم خارجون. بعضهم ذهب مباشرة إلى منازل القضاة والمحامين الذين حكموا عليهم، فقتلوهم هم وعائلاتهم، أو أحرقوا بيوتهم إن لم يجدوهم. وبعضهم التحق بالجنود، الذين بدأوا ينهبون المحلات. امتلأ الهواء بالدخان المتصاعد من البيوت المحترقة، ليكسو المدينة بالضباب.

جاء شخص ما على الإذاعة وأعلن نفسه الرئيس الجديد لسيراليون. قال إن اسمه «جوني بول كوروما»، وأنه قائد «المجلس الثوري للقوات المسلحة»، والذي شكلته مجموعة من ضباط جيش سيراليون للإطاحة بالرئيس المنتخب ديمقراطيًّا «تجان كبّاح». كانت إنجليزية كوروما سيئة مثلها في ذلك مثل السبب الذي أعلن أنه الدافع إلى الانقلاب. ونصح الجميع بالذهاب إلى العمل قائلاً إن كل شيء كان تحت السيطرة. وعلى خلفية خطبته، كانت تعلو أصوات طلقات البنادق والجنود الغاضبين، لاعنين ومهللين، حتى كادوا يحجبون صوته تمامًا.

وفى وقت متأخر من تلك الليلة، جاء إعلان آخر على الإذاعة، وهذا الإعلان كان يقول إن المتمردين (الجبهة الثورية المتحدة) والجيش قد تعاونوا فى الإطاحة بالحكومة المدنية «من أجل صالح الأمة». وبدأ المتمردون والجنود فى خطوط القتال يتوافدون على المدينة. وانهارت الأمة كلها فى حالة من الفوضى الخارجة على القانون. كرهت ما كان يحدث. ولم أكن أستطيع الرجوع إلى حياتى السابقة. ولم أظن أننى سأتمكن من النجاة بحياتى هذه المرة.

* * *

بدأ المجلس الثورى للقوات المسلحة متحدًا مع الجبهة الثورية المتحدة، والذين أطلق عليهم معًا «سوبلز»، بدأوا يفجرون خزائن البنوك باستخدام مدافع الـ «آر بى جى» وغيرها من المتفجرات وينهبون الأموال. أحيانًا كان السوبلز يوقفون الناس وهم يسيرون، ويفتشونهم، ويأخذون أى شىء يجدونه معهم. احتلوا المدارس الثانوية ومبانى الجامعة. لم يكن هناك ما يمكن فعله طوال اليوم إلا الجلوس فى الشرفة. قرر عمى أن ينهى بناء بيت كنا نعمل فيه منذ جئت للمعيشة معه. كنا فى الصباح نسير إلى الأرض ونعمل حتى بعد الظهر حين تدفعنا طلقات البنادق إلى الركض عائدين إلى البيت للاحتماء تحت الأسرَّة. ولكن يومًا بعد يوم أصبح الخروج فى مكان مفتوح شديد الخطورة، فالطلقات العشوائية قتلت الكثير من الناس. ومن ثم توقفنا عن العمل فى ذلك البيت.

استولى المسلحون قسريًا على معظم الطعام فى المدينة من المحلات والأسواق، وتوقفت واردات الطعام إلى المدينة من خارج البلاد ومن الأقاليم. والقليل الذى تبقى كان ينبغى السعى إليه فى وسط هذا الجنون. كانت لورا سيمز ترسل لى نقودًا، وكنت قد وفرت بعضها، ومن ثم قررنا

أنا ومحمد أن نذهب إلى المدينة لنحاول أن نشترى بعض الجارى (كسافا مجففة)، وعلب السردين، والأرز، أى شىء يمكن أن نجده. كنت أعرف أننى أخاطر باللقاء بأصدقائى القدامى من العسكريين، الذين يمكن أن يقتلونى إن أخبرتهم أننى لم أعد أشارك فى الحرب. لكن فى نفس الوقت لم أكن أستطيع أن أجلس فى البيت بلا أى فعل. كان لابد أن أجد طعامًا.

كنا قد سمعنا عن سوق سرية فى المدينة تُقام فى فناء خلف بيت مهجور، حيث تباع أطعمة غير متاحة للمدنيين فى الأماكن الأخرى. كانوا يبيعون الأشياء بضعف الثمن المعتاد، لكن الرحلة بدا أنها تستحق المخاطرة والسعر المرتفع. خرجنا فى الصباح الباكر، ونحن مذعورون من أن يرانا أى شخص نعرفه. وظللنا نحتفظ برأسينا محنيين ونحن نسرع عبر المتمردين والجنود الشباب. وصلنا بينما كان البائعون قد بدأوا لتوهم فى إخراج بضائعهم من الطعام. اشترينا بعض الأرز، وبعضًا من زيت النخيل، والملح، والسمك؛ وما أن انتهينا كانت السوق قد امتلأت بالناس الذين يحاولون متعجلين شراء أى شىء يستطيعون دفع ثمنه.

وبينما كنا على وشك المغادرة، وصلت سيارة لاندروفر مفتوحة وقفز منها رجال مسلحون قبل أن تقف. جروا إلى المدنيين المتجمعين وهم يطلقون طلقات تحذيرية. واستخدم قائدهم مكبر صوت ليأمر الجميع بترك أكياس الطعام التى يحملونها، ووضع أيديهم فوق رءوسهم، والاستلقاء ووجوههم إلى الأرض. ذعرت امرأة وسط الزحام وقررت أن تجرى. فأطلق أحد المسلحين الذى كان يرتدى رباط رأس أحمر النار على رأسها مباشرة. صرخت ووقعت، وصدر لوقوعها صوت مرتفع وهى ترتطم بالأرض الحجرية. وتسبب هذا فى المزيد من الذعر، وبدأ الجميع يتفرقون فى اتجاهات مختلفة. أمسكنا بضائعنا وركضنا محنيين. وبدا هذا شيئًا مألوفًا جدًّا.

وبينما كنا نجرى هاربين من المنطقة، جاءت سيارة لاندروفر أخرى مليئة بالمزيد من المسلحين، وبدأوا يطلقون النار ويضربون الناس فى رءوسهم بكعوب بنادقهم. اختبأنا خلف جدار يفصل منطقة السوق عن الشارع الرئيسى، ثم انطلقنا مسرعين ولكن حذرين إلى طريق خلف البيوت خارج الميناء. وعند نهاية الميناء تقريبًا، حيث كان المد يضرب بعنف قاربًا غارقًا، قفزنا إلى الشارع الرئيسى وقد وضعنا بضائعنا بحرص تحت أذرعنا وبدأنا مسيرتنا الأخيرة نحو البيت. كنا نقترب من شجرة القطن عند مركز المدينة عندما رأينا مجموعة من المتظاهرين يجرون، حاملين لافتات مكتوبا عليها: «أوقفوا القتل»، وما إلى ذلك. كانوا يرتدون قمصانًا بيضاء ورءوسهم مربوطة بقماش أبيض. حاولنا أن نتجاهلهم، لكن بمجرد أن درنا حول أحد المنعطفات لنواصل طريقنا إلى البيت، جرى نحونا مجموعة من الرجال المسلحين، نصفهم فى ملابس مدنية والنصف الآخر فى ملابس عسكرية، وهم يطلقون النار على الحشد. لم يكن ثمة وسيلة للانفصال عن الحشد، فلحقنا بهم. بدأ المسلحون إلقاء غازات مسيلة للدموع. وبدأ المدنيون يتقيأون على الأرصفة وأنوفهم تسيل دمًا. وبدأ الجميع يركضون باتجاه شارع كيسى. كان من المستحيل أن نتنفس. وضعت يدى فوق أنفى، وشعرت كأنه قد غمس فى وسط كمية من التوابل الحريفة. تمسكت بكيس الطعام بقوة وجريت مع محمد، محاولاً ألا أفقده وسط الزحام. جرت الدموع على خدى، وشعرت بثقل فى عينىّ وجفونى. كان الغضب قد بدأ يتملكنى، لكنى حاولت السيطرة على نفسى، لأننى كنت أعلم أن فقدان أعصابى قد يكلفنى الكثير، وأن النتيجة قد تكون الموت، فأنا الآن مدنى؛ كنت أعرف هذا.

واصلنا الجرى مع الحشد، محاولين أن نجد طريقًا للخروج والتوجه إلى البيت، بدأ حلقى يؤلمنى. وظل محمد يسعل حتى نفرت عروق رقبته.

واستطعنا أن نهرب، ووضع رأسه تحت طلمبة عامة. وفجأة ظهرت مجموعة أخرى من الناس يجرون نحونا بأسرع ما يستطيعون، كان الجنود يطاردونهم، ومن ثم بدأنا نسرع فى الركض ولا نزال نحمل طعامنا.

ووجدنا أنفسنا وسط مجموعة أخرى من المتظاهرين المحتجين فى شارع محاط بمبانٍ مرتفعة. كانت طائرة هليكوبتر تدور فوق المكان، وبدأت تنزل وتتحرك نحو الحشد. كنت أنا ومحمد نعرف ما سوف يحدث. جرينا إلى أقرب قناة ونزلنا فيها. نزلت الهليكوبتر إلى مستوى الشارع، وبمجرد أن كانت على بعد خمسة وعشرين مترًا من المتظاهرين، لفت بسرعة وواجهتهم من جانبها. وظهر جندى فى جانبها المفتوح وفتح النار من بندقية آلية على الحشد. جرى الناس للنجاة بحياتهم. وتحول الشارع الذى كان منذ لحظة مليئًا باللافتات والضجيج إلى ساحة هلاك صامتة مليئة بأروح قلقة تحاول أن تفهم سبب موتها المفاجئ.

جريت أنا ومحمد متخذين ممرات جانبية. وصلنا إلى سور يواجه شارعًا رئيسيًّا وضعت فيه متاريس. وكان الرجال المسلحون يتجولون لحراسة المنطقة. رقدنا فى القناة لمدة ست ساعات، منتظرين هبوط الليل. كانت فرص النجاة من الموت أفضل ليلاً، لأن الضوء الأحمر للطلقات يمكن رؤيتها فى الظلام. وكان هناك آخرون معنا، أحدهم، طالب يرتدى قميصًا أزرق، كان وجهه يتصبب عرقًا، ويمسح جبينه بقميصه كل بضعة ثوان. وامرأة شابة، ربما فى أوائل العشرينيات، جلست ورأسها بين ركبتيها، ترتعد وترتعش. وعلى جدار القناة، جلس رجل ذو لحية كان قميصه ملوثًا بدم شخص آخر واضعًا رأسه بين يديه. كانت مشاعرى بشعة حيال ما يحدث، لكننى لم أكن مرعوبًا مثل هؤلاء الناس، الذين لم يجربوا الحرب من قبل. كانت تلك هى المرة الأولى لهم، وكانت مشاهدتهم مؤلمة. وتمنيت ألا يقلق عمى كثيرًا علينا. سمعنا المزيد من طلقات البنادق وطارت عبرنا

سحابة من الغاز المسيل للدموع. أمسكنا أنوفنا حتى ابتعد الغاز مع الريح. وبدا الليل بعيدًا جدًّا، وشعرت كأننا ننتظر يوم القيامة. ولكن كما لابد أن يحدث، جاء الليل أخيرًا، واستطعنا أن نصل إلى البيت، ونحن ننحنى خلف البيت ونقفز فوق الأسوار.

كان عمى جالسًا فى الشرفة، والدموع فى عينيه. وعندما حييته، قفز واقفًا كما لو رأى شبحًا. وعانقنا طويلاً وطلب منا ألا نذهب إلى المدينة مرة أخرى. لكن كان الأمر رغمًا عنا، وسوف نضطر لفعلها، لكى نحضر طعامًا.

لم تتوقف طلقات البنادق طوال الأشهر الخمسة التالية، أصبحت هى صوت المدينة الجديد. فى الصباح كانت العائلات تجلس فى الشرفات ويمسكون بأطفالهم بالقرب منهم، يحدقون نحو شوارع المدينة حيث كان المسلحون يتجولون جماعات، ينهبون، ويغتصبون، ويقتلون الناس عمدًا. كانت الأمهات يضعن أذرعهن المرتجفة حول أطفالهن كلما تكاثف إطلاق النار. وكان الناس فى الغالب يأكلون أرزًا منقوعًا بالسكر أو جارى مجفف بالملح، ويستمعون إلى الإذاعة، بأمل أن يسمعوا بعض الأخبار الطيبة. وأحيانًا، أثناء النهار، كانت تتصاعد أدخنة كثيفة عديدة من البيوت التى يشعل المسلحون النار فيها. كنا نسمعهم يضحكون بانفعال على منظر البيوت المحترقة. فى إحدى الأمسيات، كان أحد جيران عمى الذى يعيش على بعد بضعة منازل يستمع إلى محطة إذاعة غير قانونية اتهمت الحكومة الجديدة بارتكاب الجرائم ضد المدنيين. وبعد دقائق قليلة، توقفت شاحنة مليئة بالجنود أمام بيت الرجل، وجروه هو وزوجته وابنيه الكبيرين إلى الخارج، وأطلقوا عليهم النار، وركلوا أجسادهم حتى القناة القريبة. وتقيأ عمى بعد أن رأينا هذا المشهد.

فى الأسابيع الثلاثة الأولى كان الناس شديدى الخوف حتى إنهم لم تكن لديهم الجرأة على ترك بيوتهم. ولكن سرعان ما كان الجميع قد اعتادوا على الطلقات والجنون. بدأ الناس يخرجون إلى أعمالهم اليومية للبحث عن الطعام، رغم أن الطلقات العشوائية قد تقتلهم. وكان الأطفال يلعبون لعبة التخمين، فيقول كل منهم هل الطلقة من بندقية كلاشينكوف ٤٧، أم بندقية أتوماتيكية جى٣، أم آر بى جى، أم بندقية آلية. كنت أجلس فى الغالب خارجًا على الصخرة المستوية مع محمد، وكنا هادئين. كنت أفكر فى واقع أننا استطعنا الهروب والابتعاد عن الحرب، لا لشىء إلا لنقع فيها مرة أخرى. لا مكان يمكن الهروب إليه من هنا.

كنت قد فقدت صلتى بلورا فى نيويورك لأكثر من خمسة أشهر. وقبل ذلك كنا أنا وهى نتبادل الرسائل باستمرار. كانت تقول لى ماذا تفعل، وتطلب منى أن أعتنى بنفسى جيدًا. كانت رسائلها تأتى من كل مكان فى العالم، حيث كان لديها مشروعات لرواية الحكايات. وفى الفترة الأخيرة حاولت أن أطلبها كل يوم، لكنى لم أنجح. لم تعد تليفونات «سيراتل»، شركة التليفونات القومية، تعمل جيدًا. فى كل يوم كنت أجلس فى الشرفة مع عمى وأبناء عمومتى ننظر نحو المدينة. توقفنا عن سماع شرائط الحكايات، فقد كان حظر التجوال يبدأ قبل الظلام. كان ضحك عمى يقل باستمرار، بينما ازدادت تنهداته. وظللنا نأمل فى تغير الأحوال، لكنها ظلت تسير من سيئ إلى أسوأ.

* * *

مرض عمى. فى صباح أحد الأيام كنا جالسين فى الشرفة عندما اشتكى من أنه يشعر بأنه ليس على ما يرام. وفى المساء هاجمته الحمى ورقد بالداخل يتأوه. ذهبنا أنا وعلى إلى الدكان القريب واشترينا دواء، لكن حالة عمى

ساءت يومًا بعد يوم. كانت العمة سالاى ترغمه على أن يأكل، لكنه كان يتقيأ كل شيء بمجرد أن تنتهى من إطعامه. كانت كل المستشفيات والصيدليات مغلقة. بحثنا فى المدينة عن أطباء أو ممرضات، لكن من بقى منهم رفض ترك منزله خوفًا من ألا يستطيعوا العودة إلى أسرهم مرة أخرى.

فى مساء أحد الأيام كنت جالسًا بجوار عمى، أمسح له مقدمة رأسه، عندما وقع من فوق الفراش. أمسكت جسده الطويل بين ذراعى، وحملت رأسه على حجرى. كانت عظام وجنتيه تبرز من وجهه المستدير. نظر إلى ورأيت فى عينيه أنه قد فقد الأمل. رجوته ألا يتركنا. كانت شفتاه على وشك أن تنطقا بشىء، لكنهما توقفتا عن الارتعاش. كان قد ذهب. حملته بين ذراعى وفكرت كيف أقول هذا لزوجته، التى كانت تغلى له بعض الماء فى المطبخ. وسرعان ما جاءت إلى الغرفة وأسقطت المياه الساخنة، فطرطشت علينا نحن الاثنين. ورفضت أن تصدق أن زوجها قد مات. كنت لا أزال أمسك بعمى بين ذراعى، والدموع تجرى على وجهى. وشعرت بجسدى كله فى حالة تخدر. لم أستطع أن أتحرك من مكانى. جاء محمد وعلى وأخذا عمى منى ووضعاه فى السرير. بعد بضع دقائق تمكنت من القيام. ذهبت خلف البيت ورحت أضرب شجرة المانجو بقبضتى حتى جاء محمد وأخذنى بعيدًا عنها. كنت دائمًا أفقد كل شيء له معنى فى حياتى.

بكى أبناء عمى، متسائلين من الذى سيعتنى بنا الآن؟ لماذا حدث ذلك لنا فى هذه الأوقات العصيبة؟

وهناك فى المدينة، أطلق المسلحون بنادقهم.

* * *

دُفن عمى فى صباح اليوم التالى. ورغم الجنون الجارى فى المدينة، جاء كثيرون لحضور جنازته. سرت خلف النعش، صوت أقدامى يدق فى قلبى.

كنت أمسك بأيدى أبناء عمى ومحمد. حاولت زوجة عمى أن تأتى إلى المدفن، لكنها انهارت قبل أن نخرج من البيت. وفى المدفن قرأ الإمام بعض السور، وأُنزل عمى إلى الحفرة، وغُطى بالتراب. وتفرق الناس بسرعة للاستمرار فى شئون حياتهم. وبقيت مع محمد، جلست على الأرض بجوار المقبرة وتحدثت إلى عمى. قلت له إننى آسف أننا لم نستطع أن نأتى له بالمساعدة، وأننى آمل لو كان يعرف أننى أحببته حقًّا وكنت أتمنى أن يكون حيًّا ليرانى عندما أكبر. وبعد أن هدأت، وضعت يدى على كومة التراب، وبكيت بهدوء. لم أعرف كم بقيت فى المدفن بعد أن توقفت عن البكاء. كان الوقت قد أصبح فى المساء، وكان حظر التجوال على وشك أن يبدأ. جريت أنا ومحمد بأسرع ما نستطيع للعودة إلى البيت قبل أن يبدأ الجنود فى إطلاق النار.

بعد أيام قليلة من دفن عمى، استطعت أخيرًا إجراء مكالمة مع لورا. سألتها إن كنت أستطيع أن أقيم معها إن استطعت الوصول إلى مدينة نيويورك. فقالت نعم.

سألتها مرة أخرى: «لا. أريدك أن تفكرى فى ذلك جيدًا. لو استطعت الوصول إلى نيويورك، هل يمكننى أن أقيم فى منزلك؟»

قالت مرة أخرى: «نعم». وأخبرتها أننى «تصورت ذلك»، وسوف أتصل بها عندما أصل إلى كوناكرى، عاصمة غينيا، البلد المجاور الوحيد الذى كان فى سلام والطريق الوحيد للخروج من سيراليون فى ذلك الوقت. كان يجب أن أرحل، لأننى كنت أخشى لو بقيت فى فريتاون أكثر من ذلك فسوف أنتهى جنديًّا مرة أخرى، أو سوف يقتلنى زملائى السابقون من الجنود إن رفضت. بعض الأصدقاء الذين مروا بمرحلة التأهيل معى قد عادوا إلى الالتحاق بالجيش.

* * *

تركت فريتاون مبكرًا فى صباح اليوم السابع بعد وفاة عمى. لم أخبر أحدًا سوى محمد، والذى كان عليه أن يخبر زوجة عمى برحيلى بعد أن تنتهى من حدادها. كانت قد عزلت نفسها عن العالم وعن الجميع بعد وفاة عمى. غادرت فى ٣١ أكتوبر ١٩٩٧، بينما كان الظلام لا يزال سائدًا فى الخارج. كنا لا نزال تحت حظر التجوال، لكننى كنت بحاجة إلى مغادرة المدينة قبل طلوع الشمس. كان السفر فى هذه الساعة أقل خطورة، حيث يكون بعض المسلحين نائمين ومن الصعب على رجال الميليشيا أن يرونى عن بعد. كانت طلقات البنادق تسمع فى المدينة الهادئة، وشعرت بنسيم الصباح خشنًا على وجهى. كان الهواء ينفث رائحة الأجساد المتعفنة والبارود. صافحت محمدا، وقلت له: «سوف أبلغك بما يكون من أمرى». نقر على كتفى، ولم يقل شيئًا.

لم يكن معى سوى حقيبة صغيرة قذرة تحتوى القليل من الملابس. كان من الخطر أن أسافر بحقيبة كبيرة أو فخمة، حيث قد يظن المسلحون أنك تحمل شيئًا ذا قيمة، ومن المحتمل أن يطلقوا عليك النار. وبينما سرت فى اللحظات الباقية من الليل، تاركًا محمد واقفًا فى الشرفة، شعرت بالخوف. كان هذا قد أصبح مألوفًا. توقفت قليلاً بالقرب من أحد أعمدة المنافع العامة، أتنهد بشدة، وألقيت بعض القبضات الغاضبة فى الهواء. وفكرت، لابد أن أحاول الخروج، ولو لم أستطع ذلك فلا سبيل إلا العودة إلى الجيش. لم أكن أحب التفكير بهذه الطريقة.

سرت مسرع الخطى بالقرب من القنوات وكنت أحتمى عندما أسمع صوت سيارة تقترب. كنت المدنى الوحيد فى الشارع، وأحيانًا كنت أضطر لعبور نقاط التفتيش إما بالزحف فى القنوات أو منحنيًا خلف المنازل. واستطعت المرور بسلام حتى محطة الأتوبيس القديمة التى لم تعد تستخدم عند أطراف المدينة. كان العرق يتصبب منى وارتعشت أجفانى عندما

نظرت إلى المحطة. كان هناك كثير من الرجال ـ يبدو أغلبهم فى العقد الرابع، على ما أظن ـ وبعض النساء، وعائلات قليلة معهم أطفال فى حوالى الخامسة من العمر وأكبر. كانوا كلهم يقفون طابورًا أمام الجدار المتهدم، بعضهم يحمل صررًا بأشياء قليلة، ويمسك آخرون بأيدى أطفالهم.

سرت إلى آخر الصف وانحنيت على كعبى لأتأكد أن نقودى لا تزال داخل جوربى، تحت قدمى اليمنى. ظل الرجل الواقف فى المقدمة يغمغم لنفسه ويسير مبتعدًا عن الحائط ثم يعود. كان يثير المزيد من عصبيتى. وبعد دقائق عديدة من الانتظار الهادئ، صرح رجل كان واقفًا فى الصف مع الآخرين بأنه سائق الأتوبيس، وطلب من الجميع أن يتبعوه. سرنا داخل المحطة المهجورة، نشق طريقنا فوق الجدران الأسمنتية المنهارة حتى منطقة مفتوحة لنركب الأتوبيس الذى كان مطليًّا بلون داكن، حتى أطرافه، لكى لا يراه أحد فى الظلام. تحرك الأتوبيس من المحطة بأضوائه مطفأة، وأخذ طريقًا خلفيًّا إلى خارج المدينة. لم يكن الطريق قد استخدم منذ سنوات، لذا بدا وكأن الأتوبيس يتحرك داخل الأحراش، وكانت الأوراق والأفرع تضرب جوانبه. ظل يتدحرج ببطء فى الظلام حتى بدأت الشمس تظهر. وعند نقطة معينة كان علينا أن ننزل ونسير خلفه ليكون قادرًا على صعود تل صغير. كنا جميعًا هادئين للغاية، وجوهنا متوترة من الخوف، حيث لم نكن قد غادرنا مجال المدينة بأمان بعد. عدنا إلى الأتوبيس، وبعد حوالى ساعة أنزلنا عند جسر قديم.

دفعنا للسائق، وسرنا عبر الجسر الصدئ كل اثنين معًا، ثم كان علينا أن نسير طوال اليوم حتى ملتقى طرق ننتظر فيه أتوبيسًا آخر سوف يصل فى صباح اليوم التالى. كانت هذه هى الطريقة الوحيدة للخروج من فريتاون بدون التعرض للقتل على أيدى المسلحين وصبية الحكومة الجديدة، الذين كانوا يكرهون مغادرة الناس للمدينة.

كنا حوالى ثلاثين شخصًا عند المفترق. جلسنا على الأرض بالقرب من الأحراش وانتظرنا طوال الليل. لم يتبادل أحد كلامًا مع غيره، فقد كنا جميعًا نعلم أننا لم ننجُ بعد من الجنون. كان الآباء والأمهات يهمسون بأشياء فى آذان أطفالهم، خشية أن يجهروا بأصواتهم. بعض الناس كانوا يحدقون فى الأرض، والبعض الآخر كان يلعب بالحصى. كنا نسمع أصوات طلقات البنادق ضعيفة فى النسيم. جلست عند حافة القناة، ورحت أمضغ بعض الأرز النيئ كنت أضعه فى كيس بلاستيكى. متى سأتوقف عن الهروب من هذه الحرب؟ ماذا لو لم يأت الأتوبيس؟ كان أحد الجيران فى فريتاون قد أخبرنى أن هذه هى الطريقة الوحيدة للخروج من البلاد. وحتى الآن بدت آمنة، لكنى كنت قلقًا، حيث كنت أعرف كم تتغير الأشياء إلى الأسوأ بسرعة فى مثل هذه الظروف.

أعدت الأرز مرة أخرى إلى حقيبتى، وبدأت أسير على الطريق الترابى لأجد مكانًا مناسبًا أجلس فيه طوال الليل. كان هناك أناس نائمون تحت الشجيرات بالقرب من محطة الأتوبيس. بهذه الطريقة يمكنهم أن يسمعوا الأتوبيس إذا ظهر أثناء الليل. وعلى مبعدة، كان آخرون يهيئون أماكن تحت أفرع أشجار الخوخ التى كانت متشابكة. دفعوا الأوراق الجافة جانبًا بأيديهم وجمعوا بعض الأوراق الخضراء لوضعها تحت رءوسهم على الأرض. أحد الرجال صنع لنفسه مقشة من أفرع شجرة، واستخدمها بكفاءة لدفع الأوراق جانبًا. قفزت فوق القناة، وجلست إلى جوار شجرة، وطوال الليل كنت أفكر فى عمى ثم فى أبى، وأمى وإخوتى، وأصدقائى. لماذا يموت الجميع ما عداى؟ سرت جيئة وذهابًا فى الطريق محاولاً ألا أترك نفسى للغضب.

فى الصباح وقف الناس وراحوا ينفضون التراب عن أنفسهم بأيديهم. بعض الرجال اغتسلوا بمياه الندى. كانوا يهزون أوراق النباتات الصغيرة

والأشجار، ويمسحون بقطرات المياه وجوههم ورءوسهم. بعد ساعات من الانتظار الطويل، سمعنا صوت موتور على الطريق. لم نكن متأكدين من أنه الأتوبيس، ومن ثم فقد جمعنا حقائبنا واختبأنا بين الأحراش بالقرب من الطريق. ظل صوت الموتور يرتفع حتى أمكننا أخيرًا أن نرى الأتوبيس. خرج الجميع جريًا من مخابئهم وأشاروا للأتوبيس حتى توقف. أسرعنا بالصعود إليه وانطلق. وبينما سار الأتوبيس، اقترب قائد السيارة ليجمع الأجرة. دفعت نصف الأجرة، لأننى كنت لا أزال أصغر من ثمانية عشر عامًا، لكن نصف الأجرة فى تلك الأوقات كان أكثر من الأجرة الكاملة فى أوقات السلام. نظرت من النافذة وراقبت الأشجار تمر بنا. ثم بدأ الأتوبيس يبطئ وبدلاً من الأشجار كان هناك جنود يحملون بنادق كبيرة موجهة إلى الطريق، إلى الأتوبيس. طلبوا من الجميع النزول من الأتوبيس؛ ثم جعلونا نسير لنعبر أحد الحواجز. نظرت حولى، وبين الشجيرات رأيت أنه كان هناك رجال آخرون يحملون بنادق نصف آلية ومدفعًا لإطلاق القنابل اليدوية. كنت أحاول إدراك التشكيل الذى يتخذونه، وكدت أصطدم بجندى كان يتجه نحو الأتوبيس. نظر لى بعينين داميتين ووجه يقول: «سوف أقتلك إذا أردت، ولا شىء يمكن أن يحدث لى لو فعلت». كانت هذه النظرة مألوفة لى.

فتشوا الأتوبيس لأسباب لم يفهمها أحد. وبعد دقائق قليلة ركب الجميع مرة أخرى. وبينما بدأنا نتحرك ونبتعد تدريجيًّا، راقبت الحاجز يختفى وتذكرت عندما كنا نهاجم مثل هذه الحواجز. طردت هذه الخواطر قبل أن أعود إلى تلك الأوقات. كانت هناك حواجز كثيرة جدًّا، وعند كل حاجز كان الجنود يتصرفون بشكل مختلف. بعضهم طلب نقودًا، حتى عندما كان المسافرون معهم الوثائق السليمة. ورفض الدفع قد يعنى المخاطرة بالإعادة إلى المدينة. ومن لم يكن معهم نقود، أخذ منهم ما معهم

من ساعات أو مجوهرات أو أى شىء ذى قيمة. وعندما كنا نقترب من أحد حواجز الطرق، كنت أبدأ بهدوء أتلو صلوات كنت آمل أن تساعد على مرورى منه بسلام.

فى حوالى الرابعة بعد الظهر، وصل الأتوبيس إلى مدينة تسمى كامبيا، وكانت هى محطته الأخيرة. ولأول مرة منذ غادرنا المدينة، رأيت وجوه بعض المسافرين تسترخى قليلاً. ولكن سرعان ما توترت الوجوه مرة أخرى، وتذمرنا جميعًا عندما طلب موظفى الهجرة أيضًا منا أن ندفع قبل أن نعبر الحدود. وضع الجميع أيديهم فى جواربهم، أو أطراف بنطلوناتهم، أو تحت أربطة رءوسهم، لإخراج ما تبقى من نقودهم. وتوسلت امرأة معها طفلان فى السابعة من العمر إلى الضابط، قائلة إنها بحاجة إلى النقود لإطعام طفليها فى كوناكرى. ولكن الرجل ظل يمد يده وصاح فى المرأة أن تقف جانبًا. وشعرت بالغثيان لرؤية أبناء سيراليون يطلبون نقودًا من هؤلاء الذين خرجوا من نيران الحرب. كانوا يستغلون أناسًا يهربون بحياتهم. وفكرت، لماذا ينبغى أن يدفع الإنسان ليترك بلده؟ لكنى لم أستطع المناقشة. كان لابد أن أدفع النقود. كان ضباط الهجرة يطلبون ثلاثمائة ليون، وهو ما يساوى أجر شهرين، لكى يضعوا ختم الهجرة على جوازات السفر. وبمجرد أن تم ختم جوازى، عبرت الحدود إلى غينيا. وكان أمامى طريق طويل، يزيد على خمسين ميلاً، لكى أصل إلى كوناكرى، العاصمة، ومن ثم سرت بسرعة لألحق بأتوبيس آخر يأخذنى هناك. لم أفكر فى حقيقة أننى لم أكن أعرف أى لغة من لغات غينيا. وقلقت قليلاً لكننى شعرت بارتياح لأننى خرجت من بلدى حيًّا.

* * *

كانت الأتوبيسات الذاهبة إلى كوناكرى تنتظر على الجانب الآخر من نقطة الحدود التى أقامها جنود غينيا. وكان هناك رجال بالقرب من

نقطة الحدود يبيعون عملة غينية بأى سعر يعجبهم. كنت أظن أن الجنود سيكونون ضد أى سوق سوداء لتبادل العملة، لكن بدا أنهم لا يهتمون. غيرت نقودى وسرت نحو نقطة التفتيش. كانت الحدود مزدحمة بجنود لا يتكلمون الإنجليزية، أو يتظاهرون بأنهم لا يتكلمونها. وكانت بنادقهم موجهة على وضع الاستعداد، كما لو كانوا يتوقعون شيئًا أن يحدث. تجنبت تلاقى الأعين، خشية أن يروا فى عينىّ أننى كنت مرة جنديًّا فى الحرب التى كنت الآن أتركها خلفى.

كان هناك مبنى خشبى ذو لون بُنى قاتم، وكان ينبغى أن أعبره لأصل إلى الأتوبيس. وداخل هذا المبنى وقف الجنود يفتشون حقائب الناس، وبعد ذلك يخرج الناس ويقدمون وثائقهم للضباط. عندما كنت فى ذلك المبنى الخشبى، فتح الجنود حقيبتى وألقوا كل محتوياتها على الأرض. ولم يكن معى الكثير، ومن ثم فلم تكن هناك مشكلة فى لم محتويات الحقيبة مرة أخرى: قميصان، وقميصان تحتيان، وثلاثة بنطلونات.

خرجت من البيت الخشبى، وشعرت وكأن كل الجنود ينظرون إلى. كان علينا تقديم وثائقنا، ولكن لمن؟ كانت هناك مناضد كثيرة، ولم أعرف إلى أيها أذهب. جلس الجنود تحت ظل أشجار المانجو يرتدون كامل زيهم العسكرى، ومدججون بالسلاح. كانت مع بعضهم بنادق معلقة من أحزمتها على المقاعد، بينما وضع آخرون بنادقهم على المنضدة، وفوهتها موجهة إلى المبنى الخشبى. وهذا جعل الناس عصبيين قبل أن يطلبوا منهم النقود.

جلس أحد الجنود على يمين المناضد المتراصة، يضع سيجارًا فى فمه، وأشار لى أن أقترب. ومد يده ليأخذ جواز سفرى. أعطيته له دون أن أنظر إلى وجهه. كان الجندى يتكلم بلغة لم أستطع فهمها. وضع جوازى

فى جيبه، ووضع يديه على المنضدة، ونظر لى بصرامة. أحنيت بصرى، لكن الجندى رفع ذقنى، وأخرج السيجار من فمه، وفحص جوازى مرة أخرى. كانت عيناه حمراوين، لكن كانت على وجهه ابتسامة عريضة. طوى يديه، واسترخى فى مقعده، وهو ينظر لى. ابتسمت قليلاً، وضحك الجندى على. وقال شيئًا بلغته ووضع يده على المنضدة مرة أخرى. هذه المرة كانت الابتسامة على فمه قد اختفت. وضعت بعض النقود فى يده. تشمم النقود ووضعها فى جيبه، وأخرج جوازى من جيبه وأشار لى أن أتقدم لأخرج من البوابة.

كانت هناك أتوبيسات عديدة متوقفة على الناحية الأخرى. وشعرت بالحيرة أيها يذهب إلى كوناكرى. كلما سألت أحدًا عن الاتجاه لم يكن يفهم ما أقول. الكلمة الوحيدة التى كنت أعرفها بالفرنسية هى «بونجور»، ولم يكن لها نفع.

كنت أبحث بارتباك عن أتوبيس ذاهب إلى العاصمة عندما اصطدمت بأحد العابرين.

«انتبه لطريقك..»، قال العابر ذلك بلغة الكريو.

أجبت: «آسف يا سيدى»، وأكملت بنفس اللغة: «كيف حالك»، وأنا أصافح الغريب.

سألنى الرجل: «أنا بخير، وإلى أين أنت ذاهب؟»

قلت له: إننى أبحث عن الأتوبيس الذاهب إلى كوناكرى. قال: إنه ذاهب هناك أيضًا. كان الأتوبيس شديد الازدحام، ومن ثم كنت واقفًا معظم الرحلة. وعلى مدى أكثر من خمسين ميلاً إلى العاصمة كانت هناك أكثر من خمس عشرة نقطة تفتيش، وكان الجنود بلا رحمة. كانت كل الحواجز على الطرق لها نفس الشكل. سيارات جيب مزودة بالأسلحة

واقفة على طول الطريق. وجنديان يقفان عند العمود الحديدى الممتد عبر الطريق من قناة إلى أخرى. وعلى اليمين، بعض الجنود جالسون تحت كشك مغطى بسقف من القماش المقوى. وهناك أقسام قليلة داخل الكشك، حيث يقوم الجنود بتفتيش الناس. وكانوا يفرضون ثمنًا محددًا لكل أهالى سيراليون، ومن لم يستطيعوا الدفع تم إلقاؤهم من الأتوبيس. وسألت نفسى إن كانوا سوف يعيدون الناس مرة أخرى إلى الناحية الأخرى من الحدود. وتحت رعاية الرجل الذى ركبت الأتوبيس معه، استطعت المرور من بعض الحواجز مجانًا. فقد ظن معظم الجنود أننى ابنه، ففحصوا وثائقه ولم يفحصوا وثائقى، وأخذوا منه أجرًا لكلينا. ولا أظن أنه لاحظ، كان يريد فقط أن يذهب إلى كوناكرى، وبدا أن النقود ليست مشكلة بالنسبة له. عند أحد الحواجز أخذنى الجنود إلى غرفة وجعلونى أخلع ثيابى. فى البداية لم أكن أريد أن أخلعها ولكنى رأيتهم يلقون رجلا أرضًا ويركلونه ويمزقون قميصه وبنطلونه. أخذ أحد الجنود حزامى، والذى كان مشبكه على شكل رأس أسد، وكان حزامى المفضل. أمسكت بنطلونى بيد واحدة وجريت عائدًا إلى الأتوبيس، وأنا أجز على أسنانى بقوة وأكوم قبضتى، لأكتم غضبى.

وعند الحاجز الأخير، طلب منى أحد الجنود أن أضع يدى على رأسى حتى يستطيع تفتيشى. وعندما رفعت يدىّ وقع بنطلونى على الأرض، وضحك بعض المسافرين. التقط الجندى بنطلونى وربطه برباط حذاء كان فى جيبه. وبعد ذلك وضع يديه فى جيوبى، وأخرج جواز سفرى. وكر الصفحات ثم أعطاه لى. سرت خلف الناس الذين كانوا ينتظرون فى طابور لأخذ ختم الدخول. كنت أرتعد من الغضب، لكننى أعرف أننى يجب أن أهدأ إن كنت أريد الوصول إلى كوناكرى. وسمعت بعض الناس يقولون إن تكلفة رسم الدخول تعادل ثلاثمائة ليونى. لم يكن معى

سوى مائة ليونى، وكنت أحتاجها لباقى الرحلة. فكرت، ماذا أفعل؟ لقد جئت كل هذا الطريق بلا فائدة. ولا أملك حتى النقود التى تعيدنى إلى فريتاون إن أردت. بدأت الدموع تتجمع فى عينىّ. وتملكنى التوتر ولم أر وسيلة للخروج من هذا الموقف. بدأ القلق يأخذ منى كل مأخذ عندما كان رجل قد ختم جوازه لتوه ووقع منه كيسين من الأكياس الكثيرة التى كان يحملها وهو يلف حول نقطة التفتيش ليعود إلى ركوب الأتوبيس، ترددت لحظة، لكنى قررت أن أنتهز الفرصة. خرجت من الطابور وحملت الكيسين، وتبعته إلى الأتوبيس، وجلست فى المقعد الخلفى، متداعيًا فى مقعدى، واسترقت النظر لأرى إن كان الجنود ينظرون نحوى. جلست فى الأتوبيس حتى ركب الجميع؛ لم يأت الجنود ورائى. وبدأ الأتوبيس يتحرك ببطء ثم اتخذ سرعته. لقد دخلت البلاد بطريقة غير شرعية، وهو ما كنت أعرف أنه سيصبح مشكلة فيما بعد.

وبمجرد أن اتجه الأتوبيس إلى كوناكرى، بدأت أشعر بالقلق، حيث إننى فى الواقع لم أكن أعرف ماذا سأفعل عندما أصل إلى هناك. كنت قد سمعت أن السفير السيراليونى يترك اللاجئين ينامون مؤقتًا فى السفارة، لكن لم تكن لدى فكرة أين موقع السفارة نفسها. كنت جالسًا إلى جوار شخص من قبيلة «فولانى» اسمه جاللوه، والذى قال إنه كان يعيش فى فريتاون. تكلمنا عن الحرب وما فعلته بالبلاد. بعد ذلك أعطانى رقم تليفونه وطلب منى أن أطلبه لو كنت بحاجة إلى المساعدة فى المدينة. أردت أن أقول له إننى ليس لى مكان أقيم فيه، لكنه نزل قبل أن أجد الشجاعة لأقول له ذلك. نظرت حولى فى الأتوبيس بحثًا عن الرجل السيراليونى الذى اصطدمت به، لكنى لم أجده. وبعد دقائق توقف الأتوبيس فى محطة كبيرة، هى المحطة النهائية. نزلت ورحت أراقب الجميع يذهبون. تنهدت ووضعت يدىّ فوق رأسى، ثم سرت إلى دكة وجلست. غطيت وجهى

بيدى. وظللت أغمغم لنفسى: «لا يمكننى أن أجلس هنا طوال الليل».

كانت هناك سيارات أجرة كثيرة، واستقل كل الناس الذين وصلوا إلى محطة الأتوبيس سيارات أجرة. ولم أكن أريد أن أقف كالغريب التائه، فأخذت سيارة أجرة أنا أيضًا. قال السائق شيئًا بالفرنسية. وكنت أعرف أنه يسأل إلى أين أريد الذهاب. قلت للسائق: «سفارة سيراليون». ونظرت من النافذة إلى أعمدة الكهرباء وأضواء الشوارع الرقيقة المعلقة؛ وبدت أضواؤها أكثر سطوعًا من ضوء القمر. توقفت سيارة الأجرة أمام السفارة، وأشار السائق إلى علم يتكون من الألوان الأخضر والأبيض والأزرق لأتأكد أننى فى المكان المطلوب. أومأت برأسى ودفعت له. وعندما نزلت، سألنى الحراس على باب السفارة، والذين كانوا يتحدثون باللغة الكريونية، عن جواز سفرى. أريته لهم، فأدخلونى إلى أرض السفارة.

بالداخل كان أكثر من خمسين من البشر، ربما فى نفس موقفى. كان معظمهم يرقد على حصائر فى المنطقة المفتوحة داخل سور السفارة. وإلى جوارهم صررهم أو حقائبهم. كان آخرون لا يزالون يخرجون حصائر من بين أمتعتهم. كنت أفترض أن الناس ينامون هنا أثناء الليل فقط ويخرجون نهارًا. ووجدت مكانًا فى الركن، جلست على الأرض، واستندت على الجدار، وأنا أتنفس بصعوبة. ذكرنى مشهد كل هؤلاء الناس ببعض القرى التى مررت عبرها عندما كنا نهرب من الحرب. كنت مرعوبًا وقلقًا مما سوف يجلبه اليوم التالى من موار. ورغم كل شىء، كنت سعيدًا لأننى استطعت الخروج من فريتاون والوصول إلى هنا، وأننى استطعت أن أنجو من احتمال أن أعود جنديًّا مرة أخرى. أشعرنى ذلك ببعض الراحة. أخرجت الباقى من الأرز النيئ من حقيبتى وبدأت أمضغه. كانت هناك امرأة تجلس مع طفليها، ولد وبنت لا يزيدان عن سبع سنوات من العمر، على بعد خطوات قليلة منى. كانت تروى لهما حكاية، همسًا، فلم تكن تريد

إزعاج الآخرين. وبينما راقبت الإيماءات المعبرة ليديها، جرفتنى أفكارى إلى قصة معينة سمعتها مرات كثيرة وأنا صبى.

* * *

هبط الليل، وجلسنا بجوار النار نمد أذرعنا نحو اللهب ونحن نستمع إلى الحكايات ونراقب القمر والنجوم فى السماء. أضاء فحم الخشب المتوهج وجوهنا فى الظلام، وارتفعت خيوط رفيعة من الدخان باستمرار نحو السماء. ليلتها روى لنا «با سيساى»، جد أحد أصدقائى، حكايات كثيرة، لكن قبل أن يروى الحكاية الأخيرة، قال: «هذه حكاية مهمة جدًّا». كرر هذه العبارة عدة مرات، ثم تنحنح وبدأ:

«كان هناك صياد ذهب إلى الأحراش ليقتل قردًا. لم يكن قد أمضى فى البحث إلا دقائق قليلة عندما رأى قردًا جالسًا بهدوء على فرع شجرة واطئة. لم يهتم به القرد على الإطلاق، ولا حتى وهو يسمع خطوات قدميه على الأوراق الجافة ترتفع وتنزل وهو يقترب. وعندما اقترب مسافة كافية، اختبأ خلف شجرة بحيث يستطيع رؤية القرد بوضوح، رفع بندقيته وصوبها. وقبل أن يجذب الزناد، تكلم القرد قائلاً: إن أطلقت النار علىّ، فسوف تموت أمك، وإن لم تطلق النار، فسوف يموت أبوك». وجلس القرد فى مكانه، يمضغ طعامه، وبين لحظة وأخرى كان يهرش رأسه أو جانب بطنه.

«فماذا تفعل لو كنت الصياد؟»

كانت تلك حكاية تروى للصغار فى قريتى مرة كل عام. وعند نهاية القصة يوجه الراوى، الذى هو دائمًا من العجائز، هذا السؤال الذى لا يمكن الإجابة عنه للصغار فى حضور آبائهم وأمهاتهم. وكان يُطلب من كل طفل من الحاضرين أن يجيب عن السؤال، ولكن لم يجب أحد أبدًا

عن هذا السؤال، حيث إن الآباء والأمهات كلهم حاضرون. ولم يقدم الراوى أبدًا إجابة أيضًا. وأثناء كل تجمع من هذه التجمعات، عندما كان يحين دورى للإجابة، كنت دائمًا أقول للراوى إننى سوف أفكر فى الأمر، وبالطبع لم تكن هذه إجابة كافية.

بعد مثل هذه الجلسات، كنت وبقية زملائى ـ كل الأطفال بين سن السادسة والثانية عشرة ـ نقدح زناد أفكارنا بحثًا عن بعض الإجابات الممكنة التى يمكن بها تجنب موت أحد الوالدين. ولم تكن هناك أية إجابة مناسبة. فإن قتلت القرد، سيموت أحدهما، وإن لم تقتله سيموت الآخر.

فى تلك الليلة اتفقنا على إجابة، لكنها رُفضت على الفور. قلنا لباسيساى إنه لو كان أحد منا صيادًا ما كنا ذهبنا لصيد القرود أصلاً. وقلنا له: «هناك حيوانات أخرى، مثل الغزلان»

قال: «هذه إجابة غير مقبولة، إننا نفترض أنك أنت الصياد، وقد رفعت البندقية بالفعل، وعليك أن تتخذ قرارًا». وكسر جوزة الكولا التى بين يديه إلى نصفين، وابتسم، واضعًا قطعة فى فمه.

عندما كنت فى السابعة من عمرى كانت لدى إجابة عن هذا السؤال تبدو معقولة بالنسبة لى، ولكنى لم أناقش هذه الإجابة مع أى شخص، خشية أن أوذى أحاسيس أمى. قلت لنفسى إننى لو كنت الصياد، فلسوف أقتل القرد حتى لا تكون لديه فرصة لإيقاع صيادين آخرين فى نفس الورطة مرة أخرى.

جدول زمنى

رغم عدم وجود سجل مكتوب قبل سنوات ١٢٠٠ (القرن الثالث عشر)، فمن المعتقد أن شعب البوللوم (أو الشربرو [Bullom [Sherbro) كانوا يعيشون على شواطئ سيراليون قبل ذلك التاريخ، أو مبكرًا عن ذلك ـ قبل حدوث اتصال بين الأوروبيين وسيراليون. وفى أوائل القرن الخامس عشر، هاجرت قبائل كثيرة من أجزاء أخرى من أفريقيا واستقرت فى المنطقة التى تعرف اليوم باسم سيراليون. ومن بين هذه القبائل قبيلة «تِمْنِى» Temne، الذين استقروا على الساحل الشمالى لسيراليون الحالية، وقبيلة مِنْدِى Mende، وهى قبيلة كبيرة أخرى ـ والتى احتلت الجنوب. وكانت هناك خمس عشرة قبيلة أخرى متناثرة فى أجزاء مختلفة من البلاد.

١٤٦٢: بداية التاريخ المكتوب لسيراليون، عند نزول المستكشفين البرتغاليين على شواطئها، والذين أطلقوا على الجبال المحيطة بمدينة فريتاون الحالية اسم سِرّا ليونيا (جبال الأسد)، بسبب شكلها الذى يكون تشكيلاً يشبه الأسد.

١٥٠٠-أوائل سنوات ١٧٠٠: يتوقف التجار الأوروبيون بانتظام فى شبه جزيرة سيراليون، يبادلون الملابس والبضائع المعدنية مقابل العاج والخشب وعدد قليل من العبيد.

١٦٥٢ : يتم إحضار أول عبيد فى أمريكا الشمالية من سيراليون إلى «جزر البحر»، على الشاطئ الجنوبى للولايات المتحدة.

١٧٠٠–١٨٠٠ : ازدهار تجارة العبيد بين سيراليون ومزارع ساوث كارولينا وجورجيا، حيث كانت مهارات العبيد فى زراعة الأرز ترفع من قيمتهم بشكل خاص.

١٧٨٧ : مؤيدو إلغاء العبودية فى بريطانيا يساعدون على إعادة أربعمائة من العبيد المحررين من الولايات المتحدة ومن نوفا سكوشيا وبريطانيا إلى أفريقيا، حيث يستقرون فى منطقة أطلقوا عليها «إقليم الحرية»، فى سيراليون. وهؤلاء الكريونيون ـ كما أصبح يطلق عليهم ـ هم من جميع أنحاء أفريقيا.

١٧٩١ : جماعات أخرى من العبيد المحررين يأتون للإقامة فى «إقليم الحرية»، والذى سرعان ما أصبح معروفًا باسم «فريتاون»، وهو اسم عاصمة سيراليون الحالية.

١٧٩٢ : فريتاون تصبح واحدة من أولى المستعمرات الإنجليزية فى غرب أفريقيا.

١٨٠٠ : وصول عبيد محررين من چامايكا إلى فريتاون.

١٨٠٨ : سيراليون تصبح مستعمرة للتاج البريطانى. الحكومة البريطانية تستخدم فريتاون قاعدة بحرية لدوريات منع تجارة العبيد.

١٨٢١–١٨٧٤ : فريتاون تصبح مقرًّا للحاكم البريطانى، الذى يحكم أيضًا مستوطنتى ساحل الذهب (غانا الحالية) وچامبيا.

١٨٢٧ : تأسيس كلية خليج «فوراه»، وسرعان ما تصبح جاذبة للأفريقيين المتحدثين بالإنجليزية فى منطقة الساحل الإفريقى الغربى.

وعلى مدى أكثر من قرن، كانت هى الجامعة الوحيدة على الطراز الأوروبى فى غرب أفريقيا جنوب الصحراء.

١٨٣٩ : ثورة العبيد على متن باخرة تسمى «أميستاد» من أجل حريتهم. وقائدهم، «سنجبى بياه» أو «جوزيف سينك»، وهو الاسم الذى أصبح معروفًا به فى الولايات المتحدة ـ شاب من قبيلة مندى من سيراليون.

١٨٩٨ : بريطانيا تفرض ضريبة الكوخ فى سيراليون، والتى تقضى بأن يدفع سكان البلد الذى أصبح حديثًا تحت الحماية البريطانية ضريبة حسب حجم أكواخهم تدفع لصالح الإدارة البريطانية. ويشعل هذا شرارة تمردين فى المناطق الداخلية للبلاد: أحدهما قامت به قبية تمنى، والآخر قامت به قبيلة مندى.

١٩٥١ : البريطانيون يسنون دستورًا يعطى بعض النفوذ للسكان، مما أعطى إطارًا للتخلص من الاستعمار.

١٩٥٣ : أول وزارة محلية مسئولة، وتعيين سير ميلتون مارجاى الوزير الأعلى.

١٩٦٠ : سير ميلتون مارجاى يصبح رئيسًا للوزراء بعد اكتمال محادثات دستورية ناجحة فى لندن.

٢٧ إبريل ١٩٦١ : استقلال سيراليون، وأول رئيس لوزراء سيراليون المستقلة هو سير ميلتون مارجاى. وتختار البلاد نظامًا برلمانيًّا ضمن دول الكومنولث. فى العام التالى يفوز حزب الشعب السيراليونى برئاسة سير ميلتون مارجاى، وهو الذى قاد البلاد إلى الاستقلال، بأول انتخابات عامة تحت قانون حق الانتخاب العام المباشر للبالغين.

١٩٦٤: وفاة سير ميلتون مارجاى، ويعقبه أخوه غير الشقيق، سير ألبرت مارجاى، كرئيس للوزراء.

مايو ١٩٦٧: فى انتخابات بلغت فيها المنافسة أوجها، يفوز حزب مؤتمر كل الشعب All People's Congress (APC) بأغلبية مقاعد البرلمان. وبناء عليه، يعلن الحاكم العام (الممثل للملك البريطانى) سياكا ستيفنز - زعيم حزب مؤتمر كل الشعب، ومحافظ فريتاون - رئيسًا للوزراء. وخلال ساعات قليلة، يوضع ستيفنز وألبرت مارجاى تحت الاعتقال داخل بيتيهما، على يد «بريجادير دافيد لانزانا»، قائد القوات العسكرية لجمهورية سيراليون، على أساس أن قرار رئاسة الوزراء ينبغى أن ينتظر انتخاب ممثلى القبائل فى المنصب. وسرعان ما تقوم جماعة أخرى من الضباط بانقلاب آخر، ولكن هذا الانقلاب أيضًا يتم قلبه فى انقلاب ثالث، هو «انقلاب الرقباء العسكريين».

١٩٦٨: عودة إلى الحكم المدنى، أخيرًا يتولى سياكا ستيفنز منصبه كرئيس للوزراء. لكن الهدوء لا يعود للبلاد تمامًا. فى نوفمبر، إعلان حالة الطوارئ بعد قلاقل إقليمية.

١٩٧١: تتغلب الحكومة على انقلاب عسكرى فاشل، ويتم تبنى دستور جمهورى، ويصبح سياكا ستيفنز أول رئيس للجمهورية.

١٩٧٤: انقلاب عسكرى فاشل آخر ضد الحكومة.

١٩٧٧: الطلبة يقومون بمظاهرات ضد فساد الحكومة واختلاسات الأموال.

١٩٧٨: إصلاح الدستور، وحظر جميع الأحزاب السياسية ما عدا حزب مؤتمر كل الشعب، الحزب الحاكم. وتصبح سيراليون دولة حزب واحد، وحزب مؤتمر كل الشعب هو الحزب الشرعى الوحيد.

١٩٨٥ : استقالة سياكا ستيفنز وتعيين الميجور جنرال جوزيف سيدو موموه الرئيس التالى لسيراليون. وتميز حكم حزب مؤتمر كل الشعب تحت قيادة موموه بتزايد فساد السلطة.

مارس ١٩٩١ : فرقة صغيرة من الرجال يسمون أنفسهم الجبهة الثورية المتحدة (RUF)، تحت قيادة عريف سابق هو «فوداى سنكوح»، تبدأ فى مهاجمة القرى فى شرق سيراليون، على الحدود الليبيرية. كانت الجماعة الأولى تتكون من متمردى تشارلس تيلور والقليل من المرتزقة من بوركينا فاسو. كان هدفهم تخليص البلاد من حكومة حزب مؤتمر كل الشعب الفاسدة. ويستمر القتال طوال الأشهر التالية، وتزايد سيطرة الجبهة الثورية المتحدة على مناجم الماس فى منطقة كونو ودفع جيش سيراليون إلى التراجع نحو فريتاون.

إبريل ١٩٩٢ : جماعة من شباب ضباط الجيش، بقيادة الكابتن «فالنتين ستراسر»، تشن انقلابًا عسكريًّا ينتهى بإرسال موموه إلى المنفى. وتؤسس الجماعة مجلس الحكم القومى المحلى (NPRC) ليكون السلطة الحاكمة فى سيراليون. ويثبت أن مجلس الحكم القومى المحلى غير جدير أو مؤثر مثله فى ذلك مثل حكومة موموه فى صد الجبهة التى تزداد شراسة ويقع المزيد من البلاد فى أيدى محاربيها.

١٩٩٥ : الجبهة الثورية المتحدة تسيطر على أغلب المناطق الريفية، وأصبحت على أعتاب فريتاون. وكمحاولة للسيطرة على الأوضاع، تقوم حكومة المجلس القومى المحلى الحاكم باستقدام بضع مئات من المرتزقة من شركات خاصة. وخلال شهر، يطردون محاربى الجبهة الذين يتراجعون ليتخندقوا بطول حدود سيراليون.

١٩٩٦: طرد «فالنتين ستراسر» من السلطة، ويحل محله «بريجاديار جنرال جوليوس مادا بيو»، وزير دفاعه. ونتيجة تزايد الطلب الشعبى والضغط الدولى، يوافق مجلس الحكم القومى المحلى، تحت قيادة مادا بيو، على تسليم السلطة إلى حكومة مدنية عبر انتخابات رئاسية وبرلمانية، والتى أقيمت فى مارس ١٩٩٦. ويفوز «أحمد تجان كبّاح»، وهو ديبلوماسى عمل فى الأمم المتحدة لأكثر من عشرين عامًا، بالانتخابات الرئاسية تحت راية حزب الشعب السيراليونى (SLPP).

مايو ١٩٩٧: الإطاحة بكباح على يد المجلس الثورى للقوات المسلحة، ويتم وضع مجلس عسكرى تحت قيادة ليوتنانت كولونيل «جونى بول كوروما»، ويدعو المجلس الجبهة الشعبية المتحدة للاشتراك فى الحكومة الجديدة.

مارس ١٩٩٨: الإطاحة بالمجلس الثورى للقوات المسلحة على يد قوات جماعة مراقبة إيكواس ذات القيادة النيجيرية (ECOMOG)، وتعود الحكومة المنتخبة ديمقراطيًا برئاسة كبّاح لتولى السلطة.

يناير ١٩٩٩: الجبهة الثورية المتحدة تشن محاولة أخرى للإطاحة بالحكومة، ويصل القتال إلى أجزاء من فريتاون مرة أخرى، لينتج عنه آلاف القتلى والجرحى. وتتمكن قوات إكوموج من دفع الجبهة إلى التراجع بعد عدة أسابيع.

يوليو ١٩٩٩: توقيع معاهدة سلام لوميه بين الرئيس كبّاح وفوداى سنكوح رئيس الجبهة الثورية المتحدة. ويعطى الاتفاق المتمردين مناصب فى حكومة جديدة، ويفرض الجميع عفوًا عامًّا من المقاضاة. لكن الحكومة لم تعد تعمل بكفاءة، وتظل نصف مناطقها على الأقل تحت سيطرة المتمردين. وفى أكتوبر، يقرر مجلس الأمن فى الأمم المتحدة تأسيس قوات

الأمم المتحدة فى سيراليون (أونامسيل UNAMSIL) للمساعدة فى تطبيق اتفاقية السلام.

إبريل/ مايو ٢٠٠٠: يعود العنف ونشاط المتمردين، خاصة عندما تقوم قوات الجبهة الثورية بأخذ مئات من شخصيات قوات الأمم المتحدة كرهائن، والاستيلاء على أسلحتهم وذخيرتهم. وفى مايو، يقوم أعضاء من الجبهة الثورية المتحدة بإطلاق النار وقتل حوالى عشرين شخصًا يتظاهرون خارج بيت سنكوح فى فريتاون ضد انتهاكات الجبهة الثورية. ونتيجة لهذه الأحداث، التى انتهكت اتفاقية السلام، يتم القبض على سنكوح وغيره من كبار أعضاء الجبهة الثورية المتحدة، وتجرد الجماعة من موقعها فى الحكومة. فى أوائل مايو، يتم توقيع اتفاق جديد لوقف إطلاق النار فى أبوجا. ولكن لا يتم الاستمرار فى نزع السلاح، والتسريح وإعادة توحيد البلاد، ويستمر القتال.

مايو ٢٠٠٠: الأوضاع تتدهور فى البلاد لدرجة أن القوات البريطانية تنتشر فى «عملية باليسر» لإخلاء القوميات الأجنبية. وتستقر الأوضاع وتصبح القوات البريطانية هى الحافز على وقف إطلاق النار ونهاية الحرب الأهلية.

٢٠٠١: يتم توقيع معاهدة سلام أبوجا الثانية لتهيئة مرحلة لاستئناف عملية واسعة النطاق من نزع التسلح وتسريح القوات المتحاربة وإعادة توحيد البلاد. ويؤدى هذا إلى انحسار العداوات بشكل محسوس. وبينما تم التقدم فى نزع التسلح، بدأت الحكومة فى إعادة توكيد سلطتها فى المناطق التى كان يسيطر عليها المتمردون فى السابق.

يناير ٢٠٠٢: الرئيس كبّاح يعلن انتهاء الحرب الأهلية رسميًا.

مايو ٢٠٠٢: الرئيس كبّاح وحزبه، حزب الشعب السيراليونى، يحرز

انتصارات ساحقة فى الانتخابات الرئاسية والتشريعية، ويُعاد انتخاب كبّاح رئيسًا لفترة رئاسية من خمس سنوات.

٢٨ يوليو ٢٠٠٢: بريطانيا تسحب فرقة عسكرية من ٢٠٠ رجل كانت فى البلاد منذ صيف ٢٠٠٠، تاركة فرقة قوية من ١٠٥ رجال لتدريب الجيش السيراليونى.

صيف ٢٠٠٢: تبدأ كل من لجنة الحقيقة والمصالحة، والمحكمة الخاصة فى العمل. يدعو اتفاق لوميه لتأسيس لجنة الحقيقة والمصالحة لتقديم منبر لكل من الضحايا ومرتكبى انتهاكات حقوق الإنسان للإدلاء بشهاداتهم، ولتسهيل عملية مصالحة حقيقية. ونتيجة لذلك، تطلب حكومة سيراليون من الأمم المتحدة المساعدة فى إقامة محكمة خاصة لسيراليون، والتى سوف تحاكم أولئك الذين «يحملون أكبر المسئولية عن ارتكاب جرائم ضد الإنسانية، وجرائم حرب، وانتهاكات خطيرة للشريعة الإنسانية الدولية، وكذلك جرائم تقع تحت طائلة قانون سيراليون داخل منطقة سيراليون منذ ٣٠ نوفمبر ١٩٩٦».

نوفمبر ٢٠٠٢: تبدأ الأونامسيل (مهمة الأمم المتحدة فى سيراليون UNAMSIL: United Nations Mission in Sierra Leone) سحبًا تدريجيًا لقواتها، من أعلى ذروة بلغت فيها ١٧٥٠٠.

أكتوبر ٢٠٠٤: لجنة الحقيقة والمصالحة تعلن تقريرها النهائى للحكومة، رغم تأخير إعلان هذا التقرير حتى أغسطس ٢٠٠٥، بسبب مشاكل التحرير والطباعة. وتنشر الحكومة ورقة بيضاء فى يونيو ٢٠٠٥، تعلن قبول بعض التوصيات ورفض أو تجاهل عدد من التوصيات الأخرى. وتعارض جماعات المجتمع المدنى إعلان الحكومة باعتباره مبهما للغاية وتستمر فى انتقاد الحكومة لفشلها فى الأخذ بتوصيات التقرير.

ديسمبر ٢٠٠٥: انتهاء مهمة حفظ السلام الأونامسيل رسميًا، ويتم تأسيس مكتب متكامل للأمم المتحدة فى سيراليون (يونيوسيل UNIOSIL)، ليقوم بدور مندوب لبناء السلام.

٢٥ مارس ٢٠٠٦: بعد مناقشات مع الرئيس الليبيرى المنتخب حديثًا «إلين جونسون سيرليف»، يقوم الرئيس «أولوسجون أوباسانجو» رئيس نيجيريا بالتصريح بأن ليبيريا حرة فى استعادة تشارلز تايلور، الذى كان يعيش فى المنفى فى نيجيريا، تحت الحجز فيها. وبعد يومين، يحاول تايلور الهرب من نيجيريا، لكن يتم القبض عليه وتحويله إلى فريتاون تحت حراسة الأمم المتحدة فى مساء يوم ٢٩ مارس. وهو الآن تحت التحفظ فى سجن الأمم المتحدة، بانتظار المحاكمة أمام المحكمة الخاصة لسيراليون على إحدى عشرة تهمة بارتكاب جرائم الحرب.

شـكر

ما ظننت أبدًا أن أعيش إلى هذا اليوم، بل وأن أكتب كتابًا أيضًا. أثناء حياتى الثانية هذه، كان هناك عدد كبير من الناس الرائعين الذين أعطوا لحياتى معنى، فتحوا قلوبهم وأبوابهم لى، دعمونى وآمنوا بى وبكل ما عانيته. وبدون وجودهم، كان من المستحيل خروج هذا الكتاب إلى النور. إن امتنانى الأعظم لعائلتى: أمى، لورا سيمز، لعملها بلا كلل لإحضارى إلى هنا، لحبها ونصحها، ولأنها قدمت لى بيتًا عندما كنت بلا بيت، ولأنها سمحت لى بالراحة والاستمتاع باللحظات الأخيرة التى بقيت من طفولتى؛ وخالاتى: هيثر جرير، وفران سيلفربيرج، وشانثا بلومين، لأنهن منحننى أذنًا صاغية، وقلوبًا طيبة، وكرمًا، وحبًا ودعمًا عاطفيًا، كل اللحظات الجميلة، وكل شىء؛ أختى: إريكا هينجين، لثقتها وصدقها وحبها، ولكل تلك الليالى الطويلة البصيرة التى قضيناها نتناقش حول أسباب الوجود؛ وبرنارد ماتامبو، أخى، لصداقته وذكائه، لأحلامنا المشتركة وقوتنا على الاستمرار والاستمتاع بكل لحظة من حياتنا، ولأنه جعل كل تلك الليالى الطويلة فى المكتبة ذات معنى ولا تنسى. شكرًا لك يا تشيل. أشكر ابنة عمى أميناتا وصديق طفولتى محمد، وأنا سعيد جدًا لعودته مرة أخرى فى حياتى، وأدين له باستعادة ذكريات الماضى الجميل الذى نشترك فيه.

أدين بالشكر أيضًا إلى مارج شوير وجميع أفراد أسرة شوير للدعم المالى المستمر، والذى مكننى من استكمال دراساتى وتحقيق أشياء فاقت أحلامى. أشكركم كثيرًا. وامتنانى لكل من فى مؤسستى بلو ريدج وفور أوكس، إلى جوزيف كوتون وتريسى لأنهما رعيانى كأخ أصغر ووضعانى على الطريق الصحيح، إلى مارى سوبل التى كانت حريصة على أن يكون كل شىء على ما يرام، إلى ليزا، لكل شىء.

وأدين بالامتنان لكثير من الأساتذة فى كلية أوبرلين، الأستاذ لورى ماكميلان، منحنى الثقة التى كنت بحاجة إليها لأبدأ جديًّا فى الكتابة. أدين أيضًا للأستاذ دان تشاون لصبره وإرشاده وثقته وأمانته وصداقته ودعمه فى تحويل هذا الكتاب إلى حقيقة. أشكرك يا دان، لقد علمتنى جيدًا وبذلت جهدك لتجعلنى أكمل هذا الكتاب. امتنانى للأستاذة سيلفيا واتانابى، لكل الدعم والصداقة والاستشارة الجيدة، ولجهدها الذى لا يتوقف لإثراء حياتى الإبداعية، وشكرى للأساتذة ياكوبو ساكا، وبن شيف، لنصائحهم المخلصة، دائمًا.

أصدقائى الأعزاء، بول فوجل وإيفيت تشالوم: أشكركما لاهتمامكما المستمر بصحتى وسلامتى، لنصائحكما، لفتح بيتكما لى أثناء كتابة هذا الكتاب، ولأنكما كنتما من قرائى الأوائل ـ تعليقاتكما ساعدت كثيرًا على صياغة هذا العمل. إننى ممتن لكل شىء. أشكر بريسيلا هاينر، وجو بيكر، وبام برونز، لتشجيعهم وصداقتهم ونظراتهم الثاقبة إلى المسودات الأولى.

من حسن حظى أن تكون وكيلتى هى إيرا سيلفربيرج. أشكرك لكل نصائحك نافذة البصيرة، وصداقتك، وصبرك على شرح شئون عالم النشر. بدونك كان يمكن أن أيأس بسهولة. محررتى، سارة كريتشتون، أشكرك كثيرًا لكل العمل الدءوب. أشكر لك إخلاصك، ودقتك ومعالجتك

المتعاطفة لهذا العمل شديد الخصوصية والمفعم بالعواطف القوية، وكل القيل والقال قبل وبعد كل لقاء، مما ساعد فى تخفيف الأشياء. أحب العمل معك وقد تعلمت الكثير من هذه العملية. أشكر أيضًا روز ليختر مارك لمتابعتها وإصرارها على ألا أؤجل أو أماطل، وامتنانى أيضًا لكل شخص فى فرار وشتراوس وجيروكس لكل ما أديتم من عمل شاق، ولكل ما أبديتم من صداقة.

أصدقائى ملفين جيمينيه، مات مور، لورين هايمان، وماريل رامساى، أشكركم لصداقتكم ولاستمراركم فى الاتصال وفى تفهم أننى بحاجة إلى وقت أبتعد فيه عن الجميع لإكمال هذا العمل. وإلى كل من فتحوا قلوبهم أو أبوابهم لى، أشكركم شكرًا عميقًا أيضًا.

أخيرًا، إننى ممتن جدًّا لدانييل فوجل لكل الدعم العاطفى: حبك، وصبرك، وفهمك أثناء كتابة هذا الكتاب. بدون صداقتك واهتمامك كان من الصعب أن أباشر كتابة هذه الرحلة، خاصة أثناء وجودى فى كلية أوبرلين.

عن المؤلف

إشمائيل بيه ولد فى سيراليون فى ١٩٨٠. انتقل إلى الولايات المتحدة فى ١٩٩٨ وأنهى سنتيه الأخيرتين من الدراسة الثانوية فى المدرسة الدولية للأمم المتحدة، بنيويورك. فى ٢٠٠٤ تخرج فى كلية أوبرلين حاصلاً على بكالوريوس فى العلوم السياسية. وهو عضو فى اللجنة الاستشارية لحقوق الإنسان قسم مراقبة حقوق الأطفال، وقد تحدث أمام الأمم المتحدة، ومجلس العلاقات الأجنبية، ومركز التهديدات الناشئة والفرص فى معمل مارين كوربس لمناهضة الحرب. ظهرت أعماله فى دار نشر فيسبرتين ومجلة ليت. يعيش فى مدينة نيويورك.

عن المترجمة

سحر توفيق: أديبة ومترجمة ومن تراجمها:

١. فلاحو الباشا، الأرض والمجتمع والاقتصاد فى الوجه البحرى ١٧٤٠-١٨٥٨: كينيث كونو، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٠

٢. قصص برازيلية: ترجمة عن الإنجليزية بالاشتراك مع الأستاذ خليل كلفت، إبداعات عالمية، الكويت، إبريل ٢٠٠١

٣. أرض الحبايب بعيدة: رحلة نقدية فى حياة وأعمال بيرم التونسى: ماريلين بوث، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢

٤. المذنبة (رواية): مارجريت أتوود، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥

٥. المرأة المحاربة (مذكرات): ماكسين هونج كنجستون، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥

٦. كريك وأوريكس (رواية): مارجريت أتوود، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٧

٧. موجز تاريخ الشعب الأرمنى: جورج بورنوتيان، الجمعية الأرمنية بالقاهرة، ٢٠٠٨

ومن مؤلفاتها:

١. أن تنحدر الشمس (مجموعة قصص ـ ١٩٨٤)

٢. طعم الزيتون (رواية ـ ٢٠٠٠)

٣. رحلة السمان (رواية ـ ٢٠٠٢)

٤. بيت العانس (مجموعة قصص ـ ٢٠٠٥).

الطريق الطويل

مذكرات صبى مجند

- رواية مذهلة، مروية باقتدار وصدق يمزق القلب! -

يروى لنا إشمائيل بيه، وهو الآن فى السادسة والعشرين من عمره، قصة قوية آسرة: فعندما كان فى الثانية عشرة في سيراليون، استطاع الهروب من هجوم المتمردين، وراح يضرب هائمًا على وجهه فى بلد لم يعد من الممكن التعرف على ملامحه بسبب العنف، وفى الثالثة عشرة التقطه جيش الحكومة، ووجد الصبى الرقيق القلب أنه قادر على ارتكاب أفعالاً مروعةً حتى أنقذته اليونيسيف من ساحات الحرب وهو فى السادسة عشرة.

وقدتُرجم هذا الكتاب لأكثر من ٢٢ لغة ولاقى نجاحًا كبيرًا فى جميع أنحاء العالم.

إشمائيل بيه: ولد فى سيراليون فى ١٩٨٠. وانتقل إلى الولايات المتحدة عام ١٩٩٨، حيث أكمل السنتين الأخيرتين من دراسته الثانوية فى مدرسة الأمم المتحدة الدولية فى نيويورك. وتخرج من كلية أوبرلين فى ٢٠٠٤، وهو عضو فى اللجنة الاستشارية لحقوق الإنسان قسم مراقبة [illegible] وقد تحدث أمام مجلس العلاقات الأجنبية، ومركز التهديدات [illegible] والفرص فى معمل مارين كورز لمناهضة الحرب. كما تحدث أما[illegible] فى مناسبات عدة. ويعيش حالياً فى نيويورك.



دار الشروق
www.shorouk.com